تاريخ الوزير محمد على باشا

للشيخ خليل بن أحمد الرجبى

تحقيق وتعليق ودراسة

د. دانيال كريسيليوس

أستاذ تاريخ الشرق الأوسط

جامعة ولاية كاليفورنيا - لوس أنجيلوس

د. حمزة عبدالعزيز بدر

أستاذ الآثار الإسلامية المساعد

جامعة جنوب الوادى

د. محمد حسام الدين إسماعيل

مدرس الآثار الإسلامية

جامعة الإسكندرية





الطبعة الأولى
١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر
القاهرة - ت : ٢٦١٠١٦٤

إهداء

إلى آبائنا وأمهاتنا الذين وضعوا خطانا على طريق العلم والتعلم.

المحققون

شكر وتقدير

يتقدم المحققون لهذا الكتاب بعظيم الشكر وخالص التقدير لهيئة فولبرايت وخاصة **الدكتورة آن رضوان** مديرة هيئة فولبرايت بالقاهرة والسادة العاملين بهيئة فولبرايت لحسن تعاونهم ومساندتهم لكى يخرج هذا العمل إلى حيز الوجود.

كما يتقدمون بالشكر لمركز البحوث الامريكى بمصر وخاصة السيد **مارك إيستون** مدير مركز البحوث الامريكى والسيد **إبراهيم صادق** نائب مدير المركز لتقديمهم الدعم المادى والفنى وإستخدام الامكانيات المتوفرة بالمركز وخاصة مركز الكمبيوتر، بمساعدة السيد **ياسر حمدى** الذي بذل جهداً كبيراً في الإعداد الفني لهذا العمل في شكله النهائي، كما بذل جهداً كبيراً في إعداد الفهارس.

ويتقدم المحققون بخالص الشكر والتقدير للعاملين بالمكتبات الآتية

دار الكتب المصرية

معهد المخطوطات العربية بالقاهرة

الجامعة الامريكية بالقاهرة

مركز البحوث الامريكى بمصر

جامعة ولاية كاليفورنيا (لوس أنجلوس)

كما يتقدم المحققون بالشكر لأسرهم التي أقتطعوا من وقتها الكثير لإنجاز هذا العمل.

المحتويات

المحتويات

بسم ا لله الرحمن الرحيم

مقدمة*

إختلفت الآراء في إصلاحات محمد علي، وذهب الباحثون والمؤرخون في تأويل أعماله ونواياه كل مذهب، غير أنه مما لا شك فيه أن محمد علي هو باني مصر الحديثة، وصانع مجدها التليد، وأنه هو القائد المحنك الذي إنتقل بها حقاً من حالة العصور الوسطى إلى دولة حديثة، ووصل بها إلى مصاف الدول العظمى في وقته، وأنه قد حمل على كاهله من الأعباء ما تنوء به العصبة أولي القوة من عظماء الرجال، فقد تولى حكم مصر في فترة من أحلك فترات تاريخها وهى الفترة التي أعقبت خروج

---

* تم إنجاز تحقيق هذا المخطوط بتدعيم من لجنة التبادل التعليمي والثقافي بين الولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية مصر العربية (هيئة فولبرايت)، التي أتاحت للدكتور حمزة عبد العزيز بدر والدكتور محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح، القيام بأبحاثهم في لوس أنجلوس في الفترة من سبتمبر ١٩٩٥ إلى مارس ١٩٩٦، كما أتاحت للدكتور دانيال كريسيليوس البحث في القاهرة في الفترة من إبريل إلى يونيه ١٩٩٦، كما ساهم مركز البحوث الأمريكي بالقاهرة بمنحة للدكتور دانيال كريسليوس من يولبو إلى ديسمبر ١٩٩٦. جميع الآراء الواردة بهذه الدراسة مسئولية الباحثين وليس هيئة فولبرايت، أو مركز البحوث الأمريكي بالقاهرة.

الفرنسيين في أكتوبر سنة ١٨٠١م، وهى فترة إنتابت مصر فيها حالة من الفوضى والإضطراب في مختلف مناحي الحياة، وهى إستمرار للفوضى التي إعتورت مصر قبيل الحملة الفرنسية وأدت إلى مجيء الفرنسيين وإحتلالهم مصر زهاء ثلاث سنوات، وعقب إنسحابهم إنقسم المماليك إلى طوائف عدة متناحرة وتحول الكثير منهم من حكام ورجال دولة إلى رجال عصابات،كما أن الجنود الأتراك من الأرنؤط والألبان وغيرهم الذين قدموا إلى مصر للمساعدة في طرد الفرنسيين منها تحولوا إلى القتل والسرقة والنهب، وإمتلأت عاصمة مصر وقراها ومدنها المختلفة بعصابات من الأتراك والمماليك والبدو، وإفتقد الأمن على الأموال والأنفس والممتلكات، ووقعت مصر فريسة صراعات بين طوائف عدة متناحرة تحكمها أهوائها ومصالحها الخاصة، وتحرك الشعب يقوده كبار رجال الدين وقادة الرأي في ذلك الوقت وجلهم من علماء الأزهر، وأدرك محمد علي -الذي كان قد قدم إلى مصر سنة ١٨٠١م على رأس طائفة من الجند الألبان أرسلتهم الدولة العثمانية ضمن جيشها لإخراج الحملة الفرنسية، وللمساهمة في وضع حد للفوضى التي أثارتها صراعات المماليك التي لا تنتهي بينهم وبين بعضهم البعض، وبينهم وبين الباشا العثماني وعساكره- أدرك بحس صادق أن شمس الحكم العثماني توشك أن تغيب، وأن مصر على شفا مرحلة جديدة من تاريخها لن تكون فيها للسلطان العثماني من الحكم إلا الإسم، فقاد دفة الأمور بدهاء سياسي لا يبارى حتى إنتهى الأمر بجلوسه على دست الحكم، ولم تكن مصر ولاية عثمانية عادية، فهى ذات المكانة والإمكانات الهائلة، وهى ذات التاريخ الحافل وسلطنة المماليك منذ أمد ليس ببعيد، وعمل محمد علي منذ اليوم الأول لتوليه الحكم على أن يوطد أركانه، ثم على أن ينفض عن كاهل تلك الأمة ما ران عليها من غبار الجهل والتخلف، تقوده في ذلك طموحات كبيرة وآمال عراض.

وإذا كان البعض يري أن إصلاحات محمد علي تصب جميعها في بوتقة واحدة هى الجيش، وأن قدرات الشعب المصري ومقدراته سُخرت جميعها لخدمة غرض

واحد هو صنع مجد شخصي لمحمد علي، وتكوين إمبراطورية مترامية الأطراف يحكمها هو وأبناؤه من بعده، فإننا نسوق رأي أحد معاصري محمد علي، وهو الشخص الذي أشرف على إصلاحاته في مجال التعليم الطبي والصحة العامة، حيث يقول كلوت بيك "لست أدعو أحداً إلى إعتبار والي مصر واحداً من رسل الحضارة والمدنية، بل أدعو إلى وجوب إعتباره من فحول الرجال والعبقريين، وإنه مع كونه لم يعلم شيئاً من شئون الأمة التي ظهر بينها أمره، و لم يجد منها تشجيعاً ولا مؤازرة على العمل، قد سلك مسلكاً مبنياً على الحذق، وحسن التدبير، رام به الإستيلاء على زمام الحكم أولاً ثم الإحتفاظ به بعد ذلك"[١].

ويرى كلوت بيك أن جيش مصر في عصر محمد علي وما إرتبط به من الفروع العديدة هما اللذان دفعا بمصر في تيار حركة المدنية التي ما برحت تسوقها إلى الأمام، كما يرى أيضاً أن محمد علي هو الذي أثار حركة الإصلاح وأيقظها من خمودها، وأن الشعب المصري لم يساهمه قط في شيء ما من التصميمات التي أقرها، ولا في إختيار الوسائل التي إستحسنها لتنفيذها، بل ألقى في طريقه كل ما إستطاع أن ينثره فيه من الصعوبات والمعاثر لتعطيلها[٢]. غير أن كلوت بيك يضيف أيضاً أنه لا تثريب على المصريين في ذلك إذ أن "الأمم في أدوار إرتكاسها وتنكسها كلما ظهر من بينها مصلح يريد الأخذ بيدها والنهوض بأمرها والسمو بها إلى الغايات العالية في الحضارة والرفاهية، تعرضت له بالعمل على إحباط مساعيه وألقت في طريقه العقبات والمصاعب"، ويضيف أنه "لم يذكر التاريخ مثلاً لأمة نهضت بدافع من نفسها لبناء صرح المدنية وإقامة معالمه، وإنما الذين تعرضوا لذلك أفراد إمتازوا بذاتية متينة وعبقرية عالية، فدعوا إلى مشاركتهم في عملهم أبناء وطنهم، وكثيراً ما لجأوا في تنفيذ

---

[١] – كلوت بيك: لمحة عامة الى مصر،ترجمة محمد مسعود، ٤ أجزاء، القاهرة سنة ١٩٨٢-١٩٨٤، ج٣، ص١٧٥-١٧٦.

[٢] – كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص١٧٦.

مقاصدهم، إذا أرهقتهم من هؤلاء نزعة الجمود على القديم إلى وسائل العنف والشدة"[١].

أدرك محمد علي بفكر ثاقب أن نهضة الأمة المصرية لن تكون إلا بسواعد أبنائها، وأن جيش مصر يجب أن يكون مصرياً لحمة وسداة، فعمد إلى تكوين جيش جديد يقوم على تجنيد المصريين، ويتبع أحدث الأساليب الأوروبية ويزود بأحدث الأسلحة، وهو ما عرف بأسم "النظام الجديد"، وإذا كان محمد علي قد نجح في القضاء على نفوذ رجال الدين وتخلص من زعامة المشايخ والعلماء الذين وصل دورهم السياسي إلى ذروته في مطلع القرن التاسع عشر، إلا أنه لم يتخلص من تأثيرهم على عامة الشعب، فلم يتحمس رجال الدين لإصلاحات محمد علي، بل رفضوها وتهكموا عليها وسخروا منها وإتهموا "النظام الجديد" بإنه بدعة مرددين الحديث الشريف "كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار"[٢]، وإزدرى الأهالي النظام العسكري الجديد ونفروا منه ولقبو محمد علي "باشا النصارى"، لإستخدامه معلمين أوروبيين مسيحيين في تشكيلات الجيش المصري[٣]،ورغم الصعوبات والعراقيل نجح محمد علي سريعاً في تكوين جيش مصري حديث قوامه الفلاح المصري[٤]، ويذكر كلوت بيك -الذي عاصر نشأة النظام الجديد- أنه ربما كان المصريون من أصلح أهل الأرض لأن يكونوا أفضل الجنود وأحسنهم[٥]، غير أن عدم تحمس رجال الدين لإصلاحات محمد علي -بل والنفور منها وإزدرائها- كان خطراً يهدد كل آماله وطموحاته، ونحن إزاء آراء اثنين من رجال الدين علماء الأزهر هما

---

[١] - كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص١٧٧.

[٢] - رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، القاهرة سنة ١٩٧٠م، ص٢٢٦.

[٣] - كلوت بيك: لمحة،ج٣، ص٢٦٥-٢٦٦.

[٤] - كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص٢٦٥-٢٦٦.

[٥] - كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص٢٢٤.

الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ومؤلفه ذائع الصيت "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" الذي إنتقد فيه كثيراً من إصلاحات محمد علي، وتحدث عنها بمرارة شديدة، بل وسخر من نظامه الجديد وعساكره "ذوي الملابس المقمطة"، وعالم آخر من علماء الأزهر هو الشيخ خليل بن أحمد الرجبي ومؤلفه "تاريخ الوزير محمد علي" الذي نقدمه للقاري الكريم -على الرغم من أسلوبه الركيك- لنقيم الدليل على أنه في أحلك أوقات الظلام كان بالأزهر الشريف علماء مستنيرين تفهموا إصلاحات محمد علي وبُعد أهدافها، على الرغم من قسوة وطأتها على الشعب المصري في ذلك الوقت.

ولسنا في مجال الحكم على إصلاحات محمد علي وجيش مصر في عصره وحروبه العديدة ومدى إتفاق ذلك مع مصالح الشعب أو مع تعاليم الدين الحنيف، بل إننا نقدم رأياً آخر معاصراً كتبه أحد أبناء الأزهر مثله في ذلك مثل الجبرتي، ولكنه يرى في محمد علي رأياً آخر.

التعريف بالمخطوط وخطة تحقيقه

هو كتاب "تاريخ الوزير محمد علي"، توجد لهذا المخطوط عدة نسخ، الأولى بمكتبة رفاعة الطهطاوي بسوهاج تحت رقم ١٠٥ تاريخ، وتحتفظ دار الكتب المصرية بعدة نسخ، الأولى تحت رقم ٥٠٢ تاريخ، والثانية تحت رقم ٥٨٥ تاريخ، والثالثة تحت رقم ١١٤٩ تاريخ تيمور، كما يوجد أيضاً بقسم المخطوطات بدار الكتب المصرية نسختين أخريين كل منهما تحت أرقام ٩٤٨١ تاريخ و٣٩٥١ تاريخ، غير أن كل منهما صورة ضوئية من المخطوط رقم ٥٠٢ تاريخ، كما يحتفظ معهد المخطوطات العربية بصورة من نسخة سوهاج تم تصويرها سنة ١٩٤٨م من مكتبة رفاعة الطهطاوي بسوهاج التي كانت تعرف آنذاك بمكتبة الأمير فاروق. وتوجد نسخة أخرى من هذا المخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية تحت رقم٩٦٢ تاريخ، لم نستطع إستخدامها لظروف إعداد مكتبة الإسكندرية الجديدة.

أولاً – نسخة سوهاج

تقع نسخة سوهاج في ٢٢٦ صفحة قياس ١٤×٢١ سم، وصفحاتها غير مرقمة، وكل صفحة تحتوي على سبعة عشر سطراً، وكل سطر تتراوح كلماته ما بين ست وثماني كلمات، والصفحة الأولى من المخطوط مزخرفة ومذهبة، وجميع صفحات كل منها داخل إطار مستطيل، وتفصل بين الجمل فواصل زخرفية، وقد دُون على صفحة العنوان "هذا تاريخ في شأن الوزير محمد علي باشا لخليل بن أحمد الرجبي الشافعي الشاذلي والذي بعثه على ذلك الشيخ محمد العروسي رحم الله الجميع وتجاوز عنهم آمين"، وتحت العبارة السابقة كتب "ملك ولي النعم الحاج إبراهيم سر عسكر" عدد ١٠٨"، مما يشير إلى أن نسخة سوهاج كانت ضمن مقتنيات مكتبة إبراهيم باشا سر عسكر، أي قبل أن يصبح حاكماً لمصر في جمادى الأولى سنة ١٢٦٤هـ/ابريل سنة ١٨٤٨م، أما الرقم ١٠٨ أسفل العبارة السابقة فربما يشير إلى رقم الكتاب في مكتبة إبراهيم باشا. وقد خصص صفحة في بداية المخطوط لفهرست الكتاب، وينتهي المخطوط بالمقالة السابعة التي خصصها الرجبي "لإختراع محمد علي للعساكر الجهادية"، ولا يتضمن المخطوط أسماً لناسخ أو تاريخاً للنسخ، مما يدفعنا إلى الإعتقاد بأن نسخة سوهاج هي النسخة الأصلية، خاصة وأنها نسخة إبراهيم باشا التي أضيفت لمكتبته في حياته في الفترة التي كان فيها قائداً للجيوش المصرية، أي قبل سنة ١٨٤٨م.

أما تاريخ كتابة هذا المخطوط فقد ورد ضمناً في المقالة الثالثة في معرض حديث الرجبي عن سياسة محمد علي الزراعية، فقد ذكر العبارة التالية "فصارت البلاد من ست وعشرين إلى وقتنا هذا وهو عام ثمانية وثلاثين بعد المائتين وألف على غاية العمارة"[١]. ونرجح أن تاريخ سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٢م هو أيضاً تاريخ كتابة نسخة

---

[١] – المخطوط، ص١٣٣.

سوهاج، وحيث لم يدون بها إسماً لناسخ، فربما كانت من نسخ المؤلف نفسه، وهى النسخة التي إعتمدناها للنشر مع مقارنتها بنسخة دار الكتب رقم ٥٠٢ تاريخ.

ثانياً – نسخ دار الكتب

١ – النسخة رقم ٥٠٢ تاريخ

تقع هذه النسخة في ٢٠٤ صفحة، وصفحاتها مرقمة، وكل صفحة منها تحتوي على تسعة عشر سطراً، وكل سطر منها تتراوح كلماته ما بين ثماني وتسع كلمات، وقد دون أسفل العنوان "مشترى من حضرة حسين بيك ناظر مطبعة بولاق".

ولا تحتوي هذه النسخة على فهرست مثل نسخة سوهاج، كما أن بداية المخطوط لا تتضمن الزخارف والتذهيبات التي تزين نسخة سوهاج، وينتهي هذا المخطوط بعبارة تتضمن تاريخ النسخ، "تمت كتابته آخر يوم من شعبان سنة ١٢٩٣هـ ثلاثة وتسعين ومائتين بعد الألف". وقد أضيف إلى المخطوط بعد ذلك أربع صفحات تحت عنوان "فائدة" تتضمن نص رسالة تهديد من أمبراطور روسيا إلى السلطان عبد المجيد (١٩ ربيع ثاني سنة ١٢٥٥-١٧ ذي الحجة ١٢٧٧هـ/٢ يوليو ١٨٣٩-٢٦ يونيو ١٨٦١م)[١]، ورد السلطان عبد المجيد على تلك الرسالة. وقد كتبة عناوين المقالات والفصول بالمداد الأحمر، وتحمل هذه النسخة في هوامشها بعض جمل لا تخرج عن كونها إما عبارات سقطت من الناسخ وأضافها على الهامش، أو عبارة قصد منها التنبيه على خطأ وقع في نسخ صفحة في غير موضعها.

---

[١] – ابراهيم حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية، بيروت سنة ١٩٨٨، ص٢١٣-٢١٧.

٢ – النسخة رقم ٩٤٨١ تاريخ

تقع هذه النسخة في ٢٢١ صفحة، وهى منسوخة حديثاً من النسخة ٥٠٢ تاريخ، إذ دون في نهايتها "تم بحمد ا لله وعونه على يد المتوسل بصاحب البلاغ عبد العزيز الصباغ، نسخه على نفقة دار الكتب الملكية المصرية في يوم الأحد الموافق ٢٥ مارس سنة ١١/١٩٤٥ من ربيع الثاني ١٣١٤ تحت رقم ٥٨٥ تاريخ وهذا الكتاب في شأن الوزير محمد علي باشا وا لله تعالى أسأل أن ينتفع به كل من طالعه إنه سميع مجيب الدعاء أمين".

٣– النسخة رقم ١١٤٩ تاريخ تيمور

تقع هذه النسخة في ١٥٠ صفحة، وهى من مقتنيات المكتبة التيمورية، وهى كالنسخة السابقة نسخت حديثاً من نسخة دار الكتب رقم ٥٠٢ تاريخ.

وكلا النسختين السابقتين (٩٤٨١ تاريخ – ١١٤٩ تاريخ تيمور) نسخ حديثاً (١٩٤٥) من نسخة دار الكتب رقم ٥٠٢، وبهما نفس الإختلافات بين نسخة سوهاج ونسخة دار الكتب رقم ٥٠٢ تاريخ، كما توجد ثلاث نسخ أخرى تحت أرقام ٥٨٥ و٣٩٥١ و٩١٨٤ تاريخ، هى مجرد صور ضوئية مختلفة من النسخة رقم ٥٠٢ تاريخ. ولذلك فقد إعتمدنا فقط النسخة رقم ٥٠٢ لمقارنتها بنسخة سوهاج، التي تعتبر أقدم النسخ السابقة.

خطة التحقيق

١ – مراجعة نص نسخة سوهاج مع نسخة دار الكتب، مع إعتبار نسخة سوهاج هى الأصل ووضع أي إضافة وردت في نسخة دار الكتب بين حاصرتين، والإشارة إلى ذلك وإلى الإختلاف بين النسختين في موضعه.

٢ – مراجعة المعلومات الواردة في هذا المخطوط مع المصادر الأخرى العربية والأجنبية، وخاصة تاريخ الجبرتي، فكلاهما معاصر لنفس الفترة من حكم محمد علي،

وإن كان الرجبي قد كتب تاريخه هذا في سنة ١٢٣٨هـ بعد أن توقف الجبرتي عن الكتابة في تاريخه "عجائب الآثار" بنحو عامين فقط. وكذلك أيضاً تقارير المعاصرين لمحمد علي من قناصل الدول الأجنبية الذين تعتبر تقاريرهم وثائق رسمية يرسلونها إلى حكوماتهم، وهي تقارير سرية لا تخضع بأي حالة من الأحوال لميول أو إتجاهات الحاكم في البلد الذي يمثل القنصل دولته بها. وبعض هذه التقارير نشر في مراجع أجنبية، بل وترجم في بعض المصادر العربية أيضاً، ومنها تقرير المندوب الأمريكي وليم هودجسون سنة ١٨٣٤م[١]، وتقرير المندوب الإنجليزي جون بورنج سنة ١٨٣٧م[٢]، وبعض هذه التقارير لم ينشر بعد، ومنها تقرير القنصل الأمريكي جورج جليدون سنة ١٨٣٧م[٣].

---

[١] – قدم وليم هودجسون تقريرين عن مصر إلى وزارة الخارجية الأمريكية، أحدهما في سنة ١٨٣٤م والآخر سنة ١٨٣٥م. أنظر: محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة، مصر محمد علي، القاهرة سنة ١٩٤٨، ص٢٠٩.

[٢] – أنظر نص تقرير بورنج: محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص ص٣٧٧-٧٠٤.

[٣] – استخدمنا نسخة من تقرير جورج جليدون مصورة على ميكروفيلم تحتفظ بها جامعة CAL. STATE L. A. بكاليفورنيا، وهو تقرير على درجة من الأهمية، يقع في أكثر من خمسين صفحة، وقد كان مستر جليدون والد جورج جليدون تاجراً إنجليزياً قام بأعمال القنصل الأمريكي بمصر ومقره مدينة الإسكندرية وقت زيارة هودجسون لمصر سنوات ١٨٣٤ و١٨٣٥م، وكان ابنه جورج كاتب هذا التقرير يعمل وكيلاً لوالده القنصل بمدينة القاهرة.

ومن الطريف أن مستر جليدون تقابل مع المندوب الأمريكي وليم هودجسون الذي كان مكلفاً بزيارة مصر وإعداد تقرير عنها سنة ١٨٣٤م، وشكا له من ضعف راتبه، وطالب بمنحه الجنسية الأمريكية، إذ كان حتى ذلك الوقت ما يزال أحد الرعايا البريطانيين ويخضع للقانون الإنجليزي، ويُظهر تقرير جورج جليدون تفهماً كبيراً لإصلاحات محمد علي رغم قسوتها خاصة على الفلاحين، وذكر جليدون أنه يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار أن مصر دولة في حالة انتقال "Egypt is in a state of transition." وإنه في حالة محمد علي ومشروعاته الضخمة فإن الغاية تبرر الوسيلة "The end justifies the means."

٣ – ضبط أسماء الأعلام والمواقع والبلدان والتعريف بالألفاظ الإصطلاحية والوظائف في حواشي الكتاب.

٤ – ضبط التواريخ الهجرية ومقارنتها بالتواريخ الميلادية.

٥ – حرصنا على تقديم النص كما وضعه المؤلف، فقد دأب على بسط الكلمات المهموزة مثل "العجايب" "الرغايب" "استيلاوهم" "المطمينون"، كما دأب أيضاً على إسقاط الهمزات في نهاية الكلمات، مثل "العلما" "الامرا"، كما أسهب المؤلف في استخدام السجع والمحسنات اللفظية المختلفة.

المؤلف

هو خليل بن أحمد الرجبي الشافعي الشاذلي، لا نعرف تاريخ مولده، واختلفت الأراء في تاريخ وفاته، فيذكر البغدادي في إيضاح المكنون[١] وهدية العارفين[٢] أنه توفى سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م، بينما يذكر كحالة في "معجم المؤلفين" أنه كان حياً سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م، وأنه كان مؤرخاً متكلماً صوفياً أديباً، وأنه صنف بالإضافة إلى تاريخ الوزير محمد علي باشا مؤلفاً آخر في علم التوحيد هو "وسيلة المريد في علم التوحيد"[٣]، ونستطيع أن نضيف أن الرجبي كان أيضاً شاعراً، فقد ورد بهذا المخطوط وفي مواضع عدة أبيات من الشعر أشار الرجبي ضمناً إلى أنها من نظمه[٤].

أما عن الحالة الإقتصادية للشيخ الرجبي فنستطيع أن نقرر أنه كان ميسور الحال، فقد ذكر في هذا المخطوط أنه كان له إلتزامين لم يحدد جهة أي منهما. ونرجح

---

[١] – البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧، المجلد الثاني، ص٧٠٨.

[٢] – البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين – أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استانبول سنة ١٩٥١، ج١، ص٣٥٦.

[٣] – عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دمشق ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م، ج٤، ص١١١.

[٤] – المخطوط، ص٨٤،١٠٤،١٢٦.

أن الرجبي كان مدرساً للتوحيد بالجامع الأزهر، إذ أنه ألف مخطوطه هذا بناء على طلب من شيخ الإسلام محمد العروسي، الذي تولى مشيخة الجامع الأزهر من سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م حتى وفاته سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م[١]، وكان الشيخ العروسي على علاقة وطيدة بمحمد علي منذ بداية توليه حكم مصر، فقد كان العروسي ثالث ثلاثة سعوا في الصلح بين محمد علي وأمراء المماليك في الصعيد، هم الشيخ محمد العروسي وابن الشيخ الأمير والسيد محمد الدواخلي بأمر محمد علي[٢].

وقد أشار الجبرتي إلى تولي العروسي مشيخة الأزهر سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م من غير منازع وبإجماع أهل الوقت، غير أنه أضاف عبارة لا تخلو من الغمز، فذكر "أنه (محمد العروسي) لبس الخلع من بيوت الأعيان، مثل البكري والسادات وباقي أصحاب المظاهر ومن يحب التظاهر"[٣].

ويشير تكليف العروسي للشيخ خليل بن أحمد الرجبي بكتابة تاريخ للوزير محمد علي، إلى أن الشيخ محمد العروسي كان أكثر تفهماً من غيره لإصلاحات محمد علي، رغم ثقل وطأتها على المصريين آنذاك، وذلك رغم معارضة كبار رجال الدين لإصلاحات محمد علي وخاصة معارضتهم لنظام الجيش الجديد عماد تلك الإصلاحات، ومن هؤلاء الجبرتي الذي وصف عساكر هذا النظام بأنهم "ذوي الملابس المقمطة" وأنهم مثل "عساكر النصارى"[٤]، وردد العلماء أن النظام الجديد

---

[١] - الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، ت ١٢٤٩هـ/٢٤-١٨٢٥م: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، أربعة أجزاء، الطبعة الأولى، بولاق سنة ١٣٢٢هـ، ج٤، ص٢٩٤ ؛ أمين سامي: تقويم النيل وعصر محمد علي، الجزء الثاني، القاهرة سنة ١٩٢٨م، ص٢٤٩.

[٢] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٣ ؛ محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ١٨٠١-١٨١١، ثلاثة أجزاء، القاهرة سنة ١٩٥٨، ج٢، ص٦٢٥،٦٢٧،٦٢٩-٦٣٢.

[٣] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٩٤.

[٤] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٢٢ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص٢٦٦.

بدعة، وإستشهدوا بالحديث الشريف "كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار"[١]، وأطلق على محمد علي "باشا النصارى"، وكانت المقاومة السلبية من أهم الأخطار التي تتهدد مشروع محمد علي برمته[٢].

ولم تكن إنتقادات الجبرتي اللاذعة في تاريخه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" بغائبة عن محمد علي، فقد كان من عادته حب الإطلاع على ما يكتب في الصحف، ويذكر كلوت بيك أنه كان يشدد على المترجمين بالعناية في نقل ما تكتبه الصحف إليه، وأنه كثيراً ما يقرأها بنفسه، وإن كان قد تعلم القراءة بعد أن جاوز الخامسة والأربعين، ويضيف كلوت بيك أنه "لا يعبأ بما يذاع عنه من التراهات والأباطيل"[٣]، وبالرغم من أنه قد أمر بترجمة عدد كبير من المؤلفات التي قامت بطبعها "جمعية نشر الثقافة النافعة Society for the Diffusion of Useful Knowledge"[٤]، كما أمر بترجمة وطبع كتاب للجبرتي نفسه وهو "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس"، إلا أن مؤلف الجبرتي الآخر "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" وما حواه من إنتقادات شديدة لمحمد علي[٥] وإصلاحاته تصل إلى حد السخرية والتهكم في كثير من الأحيان، كان ذلك سبباً كافياً لحجب الكتاب ومنعه من النشر حتى أذن الخديوي توفيق بطبعه سنة ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م[٦]. ولا شك في أن محمد علي قد أحيط علماً بما دونه الجبرتي من إنتقادات لشخصه ولبطانته ولكثير من أعماله، ويبدو أن

---

[١] – محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص١٤٩.

[٢] – كلوت بيك: لمحة، ج٢٦٦ ؛ محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص١٦٢.

[٣] – كلوت بيك: لمحة، ج١، ص٧٩.

[٤] – تقرير بورنج، ضمن كتاب بناء دولة، ص٦٨٧.

[٥] – هنري دودويل: محمد علي مؤسس مصر الحديثة، ترجمة أحمد محمد عبد الخالق وعلي أحمد شكري، الطبعة الثانية، القاهرة (د.ت.)، ص٢١٨.

[٦] – محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر، القاهرة سنة ١٩٥٧م، ج١، ص٣١.

محمد علي قد حاول إستمالة الجبرتي إليه فمنح ابنه خليل -وربما الجبرتي نفسه في أواخر حياته- وظيفة ميقاتي للصلاة وهلالي رمضان وشوال في قصر شبرا[١]، غير أن ذلك لم يثن الجبرتي عن حياده ولم يصرفه عن نقد ما رآه من وجهة نظره مستحقاً للنقد، فطلب محمد علي وربما ابنه إبراهيم[٢] من شيخ الأزهر محمد العروسي تكليف أحد العلماء بكتابة تاريخ يؤيد فيه إصلاحات محمد علي، ويوضح إتفاق تلك الإصلاحات مع أحكام الشريعة الإسلامية، وبالفعل كلف الشيخ العروسي خليل بن أحمد الرجبي لكتابة هذا المخطوط، وشتان بين تاريخ الجبرتي وتاريخ الرجبي، غير أننا -وبغض النظر عن تمكن أيهما من حرفة كتابة التاريخ وأدواتها- نجد أنفسنا أمام رأيين متناقضين تماماً في محمد علي وإصلاحاته، كلاهما من علماء الأزهر، وكلاهما معاصر لمحمد علي.

بين الرجبي والجبرتي

بينما يذكر الجبرتي عن كتابه "عجائب الآثار" أنه " لم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم، مباين للأخلاق لميل نفساني أو غرض جسماني"[٣]، نجد الرجبي ينص صراحة على أنه قد صنف هذا الكتاب بناء على تكليف من شيخ الأزهر محمد العروسي، الذي طلب منه "تصنيف كتاب لطيف، وتلخيص بجموع شريف يتضمن أخبار حضرة الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي سيد وزراء الأقطار .. حضرة سيدنا الوزير محمد علي"، كما حدد له الشيخ العروسي الغرض من تأليف الكتاب "وأن يكون الكتاب مخبراً عن بعض آثاره مظهراً ما له من مظهر الهمم ورفعة مناره، وذلك على طريقة الإجمال، لأن

---

[١] - محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر، ص١٥.

[٢] - وجدت النسخة الأصلية من المخطوط وقد دون عليها مكتبة الحاج إبراهيم سر عسكر.

[٣] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٦.

تفصيل ذلك يعجز عنه فحول الرجال"[١]، وقد لبـى الرجبي أمـر شيخه شيخ الأزهـر ووعد بكتابة "مرقوم تبهر نفاسته لطائف الطباع" على حد قوله[٢].

وبينما يصف الرجبي محمد علي بأنه "سيد وزراء الأقطار والمشرف علـى جميـع أولي الوقار، صاحب الهمم الكسروية والأخلاق الجميلة البهية"، وأنـه "المحمـود صنعـه لدى كل إنسان، بـادي النتـائج ومظهـر المراحـم"، وهـو "الصـدر الـذي جمـع البـأس والندى، وطلع على الأقطار بدر هدى"[٣] إلى غير ذلك من عبارات الثناء والمديـح الـتي يفيض بها هذا المخطوط، نجد الجبرتي يصف محمـد علـي بأنـه "شـاب مغـرور جـاهل وظالم غشوم"[٤].

وبينما يتحدث الرجبي عن كـرم محمـد علـي و"وفـاؤه بـالوعد"، وإنـه "يعطـي الألف والألوف الكثيرة المتزايدة في الكـثرة الـتي لا تـدرك لوزيـر ولا لأمـير صغـير ولا كبير"، وأن كرمه "فاق به كعب بـن مامـه وحـاتم الطـائي ومعـز بـن زايـدة والرشـيد وجعفر"[٥]، وأن من أخلاقه أنه "يعطي العطاء الكثير الجزيل لمن صنع في خدمته الشـيء التافه القليل"[٦]. نجد الجبرتي يصفه بأن "من طبعه الحقد والحسـد والتطلـع لمـا في أيـدي الناس"[٧]، وأنه "غدار لا يفي بعهد ولا بوعد ولا يبر في يمين ولا يصدق في قول"[٨].

---

[١] – المخطوط، ص٦.

[٢] – المخطوط، ص٧.

[٣] – المخطوط، ص٧.

[٤] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٩٥.

[٥] – المخطوط، ص٣١-٣٢.

[٦] – المخطوط،ص٢٤.

[٧] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١١.

[٨] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٤٩.

وبينما يتحدث الرجبي عن حب محمد علي لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإرجاعه الحكم في الأمور جليلها وحقيرها إلى الشرع الشريف[١]، يذكر الجبرتي أنه في دولته تمت المنادة على الربا جهاراً في الأسواق من غير إحتشام ولا مبالاة، وأن ذلك من غرائب الحكام[٢].

ويصف الرجبي محمد علي بأن "من أخلاقه الجليلة التي تميز بها عن الأمراء والملوك والوزراء عدم محبته لسفك الدماء، فإنه لا يرغب في ذلك أصلاً بل يعفو ويصفح، ولا يقع منه ذلك إلا لمن كان مستحقاً لذلك المعنى"[٣].

أشار الرجبي كذلك إشارة مقتضبة إلى مذبحة القلعة، وإكتفى بالقول بأن ذلك "من المراتب المعرفة المشاهدة عند أهل مصر وقطرها التي لا حاجة إلى ذكرها للعلم بها والإحاطة من كل الناس بتفاصيلها"[٤]، ولا يظهر الرجبي أي تعاطف مع المماليك، ويذكر صراحة أنه لم يرى "فيهم صاحب تدبير ولا إنساناً له الناس بالكمال تشير، بل كانوا مغفلين ظالمين"[٥]. أما الجبرتي فقد أورد وصفاً مسهباً لمذبحة القلعة، وذكر أن هذه الحادثة قتل فيها أكثر من ألف إنسان، أمراء وأجناد وكشاف ومماليك، وإنهم كانوا يُلقون في حفر من الأرض فوق بعضهم البعض، وأن هذه الحادثة من أبشع الحوادث التي لم يتفق مثلها. ويضيف الجبرتي أن عسكر محمد علي "أسرفوا في قتل

---

[١] – المخطوط، ص٢٥،٢٢.

[٢] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٨٣.

[٣] – المخطوط، ص٢٨.

[٤] – المخطوط، ص٤٦.

[٥] – المخطوط، ص٤٧–٤٨. يرجع تحامل الرجبي على المماليك –الذي وصل إلى درجة سبهم ووصفهم بإحط الصفات في كثير من المواضع بالمخطوط– إلى تعرض الرجبي نفسه لظلم المماليك، فقد ذكر في صفحة ٤٨ من المخطوط "وكنت ممن ظلموه، حيث كانت لي حصة إلتزام في بلد كان بها كفايتي وكفاية أهلي، فإنتهبها بالظلم والقهر عثمان أغا شقيق لاجين بيك وجهة أخرى أخذها ذو الفقار أغاة الينكشارية".

المصريين (المماليك) وسلب ما عليهم من الثياب، ولم يرحموا أحداً وأظهروا كامن حقدهم"[١]. ويبدي الجبرتي تعاطفاً مع المماليك وحزناً على قتلهم، فقد ذكر أن الله ختم "للجميع بالخير، فإنه بلغني ممن عاينهم بالحبوس وفي حال القتل أنهم كانوا يقرءون القرآن وينطقون بالشهادتين والإستغفار، وبعضهم طلب ماء وتوضأ وصلى ركعتين قبل أن يُرمى عنقه، ومن لم يجد ماء تيمم"[٢].

ومن المواقف التي يتضح فيها تباين آراء كل من الرجبي والجبرتي في محمد علي الحملة الإنجليزية الفاشلة على مصر سنة ١٨٠٧م، إذ يتحدث الرجبي عن شجاعة محمد علي في التصدي للإنجليز الذين هزمهم محمد علي "وطردهم بقوته المشهورة، وردهم أذلاء بعد تمكنهم من ثغر رشيد"، وكيف إنه "عمهم قتلاً وأسراً في واقعة الحماد"[٣]. أما الجبرتي فقد ذكر أن محمد علي عندما بلغه نبأ نزول الإنجليز بالإسكندرية -وكان آنذاك يحارب المماليك بالصعيد- إرتعدت فرائصه و"إنحلت عزائمه" و"ثبت في يقينه إستيلاء الإنكليز على الديار المصرية" فعزم على الفرار إلى الشام[٤]. أما معركة الحماد فنجد الجبرتي ينسب الإنتصار فيها إلى العامة وأهل البلاد الذين تنادوا بالجهاد وهجموا على الإنجليز من كل ناحية، ويعلق الجبرتي على ذلك بقوله "وليت العامة شُكروا على ذلك أو نسب إليهم فعل، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره، وجوزيت العامة بضد الجزاء بعد ذلك"[٥].

ومن الموضوعات التي رأى فيها الرحبي رأياً مناقضاً تماماً للجبرتي الضرائب والمغارم العديدة التي فرضها محمد علي على طوائف الشعب المختلفة خاصة في الفترة

---

[١] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٢٨.

[٢] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣١.

[٣] - المخطوط، ص١٤٨.

[٤] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٥٤.

[٥] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٥٥.

الأولى من حكمه، فبينما يذكر الرجبي أن من الأخلاق التي إنفرد بها محمد علي "عدم تمكينه أحداً من الظلم للناس في مصر وسائر أقطارها، ولا يرضى لإحد من الحكام في مصر ولا في أقاليمها وبلادها وقراها أن يظلم أحداً من التجار ولا من المزارعين ولا من الفلاحين"، وإنه قد "حصل بذلك العمار التام، وإرتاح الخاص والعام، وبطل ما كان يقع في الزمن السابق من حكام مصر والأمراء المتقدمين (المماليك) الذين أخربوا البلاد وأضروا بالعباد"، "وإرتاحت مصر وأهلها وكثرت الأشياء من كل نوع"[١].

هكذا تحدث الرجبي عن راحة العباد وعمار البلاد، أما الجبرتي فنجده يتحدث عن "توالي مرور العساكر آناء الليل وأطراف النهار بطلب الكُلَف واللوازم وأشياء يَكلُّ القلم عن تسطيرها ويستحي الإنسان من ذكرها ولا يمكن الوقوف على بعض جزئياتها، حتى خربت القرى وإفتقر أهلها وجَلَوْا عنها، وأما غالب بلاد السواحل فإنها خربت وهرب أهلها وهدموا دورها ومساجدها وأخذوا أخشابها"[٢].

ويشير الجبرتي إلى أن سياسات محمد علي أدت إلى "غلاء الأسعار في كل شيء وخصوصاً الأقوات التي لا يستغنى عنها الغني والفقير في كل وقت، بسبب الإحداثات والمكوسات التي ترتبت على كل شيء[٣]. ويشير الجبرتي في موضع آخر إلى إبتداعات محمد علي وإجتهاده في تحصيل الأموال من كل وجه وأي طريق[٤].

والواقع أن البون شاسع بين الرجبي والجبرتي، فالجبرتي مؤرخ متمكن من أدواته، يرصد ويحلل وينتقد ما يراه موجباً للنقد ويؤيد ما يراه مستحقاً للتأييد من وجهة نظره، بينما يبدو الرجبي مؤيداً لمحمد علي على طول الخط، محاولاً إظهاره بمظهر الحاكم العادل المستنير الذي تنطبق كل أفعاله وأقواله مع الشرع والصالح العام.

---

[١] - المخطوط، ص٢٩-٣٠.

[٢] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٦٢.

[٣] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٥٦.

[٤] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٦٩-٢٧٣.

وعلى الرغم من أن الرجبي قد كُلف بكتابة هذا المخطوط وحددت لـه أهدافه سلفاً فجاء مليئاً بعبارات المديح والثناء، إلا أن بعض فصوله لا تخلو من المعلومات التي ينفرد بها، ومنها ذلك الفصل الخاص بالحركة الوهابية، وأيضاً الفصل الثالث الخاص بقضاء محمد علي على نفوذ العربان وقطاع الطرق وإقراره الأمن في الأقاليم، إذ بينما يرصد الجبرتي إفتقاد الأمن في مدينة القاهرة قبيل محمد علي وفي بداية حكمه، نجد الرجبي ينفرد بتخصيص فصل كامل لإفتقاد الأمن في نفس الفترة في ريف مصر وأقاليمها المختلفة. كذلك ينفرد الرجبي بتسجيله لكثير من الأحداث التي كان شاهداً عليها، ومنها نقل أجزاء المراكب من بولاق إلى السويس، أو حفر ترعة المحمودية، أو الطريق الصخري الموصل بين قلعة الجبل والقلعة التي أنشأها محمد علي أعلى جبل المقطم، وغير ذلك من الأحداث[١].

منهج الرجبي ومصادره

إتبع المؤلف المنهج الموضوعي، وهو منهج يتسق وفكرة تدوين كتاب يسجل فيه أعمال محمد علي، إذ لم يكن الرجبي مهتماً بتدوين الأحداث الهامة التي وقعت في عهد محمد علي قدر إهتمامه بتسجيل إصلاحات محمد علي، والتنبيه على مدى أهمية تلك الإصلاحات، ومن ثم لم تكن هناك ضرورة لإتباع المنهج الحولي وهو ما يقتضيه الترتيب الزمني للأحداث[٢].

[١] - المخطوط، ص١٥٢.

[٢] - عرف هذا النمط من الكتابات التاريخية في العصر الإسلامي، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد في عصري سلاطين المماليك في مصر عدة كتب منها على سبيل المثال:

- ابن عبد الظاهر، محيي الدين:الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض سنة ١٩٧٦.

- ابن عبد الظاهر، محيي الدين: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور "المنصور قلاوون" ٦٧٨-٦٨٩هـ، تحقيق مراد كامل، القاهرة سنة ١٩٦١.

أما مصادر الرجبي فلا نستطيع أن نتبين في أي جزء من المخطوط إعتماد الرجبي على مصادر مخطوطة معاصرة له أو سابقة عليه، وعلى الرغم من ذلك وعلى الرغم من أن الرجبي يكتب عن عشرين أو ثلاثين سنة سابقة عليه إلا أنه يستخدم المصطلحات الفنية الخاصة بالمماليك ووظائفهم مثل خشداش وتابع وصوباشي إستخداماً صحيحاً. غير أن إشارته إلى كل من أحمد بن طولون وأبي المسك كافور الإخشيد بلقب "سلطان" تدل على ضعف معلوماته عن تاريخ مصر المبكر.

أما المصادر الأساسية التي إعتمد عليها الرجبي في تدوين مصنفه هذا فلا تخرج عن كونها مصادر شفهية، وهى معلومات يستقيها من التجار أو الجند، أو معاينته الشخصية للأحداث، فقد كان الرجبي شاهداً على الفترة الأولى من عهد محمد علي، وهو ما يُكسب هذا المخطوط كثيراً من الأهمية على الرغم من أسلوبه الركيك ومماً لته لمحمد علي. ومن العبارات التي تدل على إعتماده على المشافهة تلك العبارة التي أوردها في حديثه عن لجوء بعض أمراء المماليك إلى ليبيا فراراً من محمد علي، فقد أشار إلى ذلك صراحة بقوله "كما أخبرني الثقة ممن كان هناك من التجار"[1]. ومن العبارات التي تدل أيضاً على إعتماده على المشافهة مصدراً لمعلوماته تلك العبارة التي أوردها في نهاية حديثه عن علاقة محمد بيك الألفي بالعربان، حيث ذكر "وما هو إلا ما ذكرته ورقمته،كما صرح به ثقاة النقلة منهم حين سألته"[2]، كما أورد عبارة مماثلة في

– الشجاعي، شمس الدين: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي وأولاده، تحقيق بربارة شيفر، القاهرة سنة ١٩٧٨م.

– العيني، بدر الدين: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي"، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة سنة ١٩٦٧.

[1] – المخطوط، ص٤٧.

[2] – المخطوط، ص١٨١.

حديثه عن إنتصار حسن بيك الشماشرجي على بدو سيوة سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م، حيث قال "كما أخبرني بذلك المخبر بسكندرية"[١].

إعتمد الرجبي أيضاً على مشاهداته الشخصية في تسجيله لكثير من الأحداث، ومن ذلك تلك العبارة التي سجل فيها رأيه عن المماليك "وبالجملة فقد شاهدتهم سابقاً (المماليك) وهم في دولتهم وعزهم وكبير صولتهم، وكثرة عسكرهم وأجنادهم، وهم في مصر وأقطارها السنين العديدة والمديدة، فما رأيت فيهم صاحب تدبير ولا إنساناً له الناس بالكمال تشير، بل كانوا مغفلين ظالمين، وكنت ممن ظلموه"[٢]. كذلك حديثه عن سد الإسكندرية "وكنت في ذلك الزمان ممن سافر لرؤيته مع رفقة من الإخوان، فشاهدته ومررت عليه فتأملته من جانبيه ومكثت سايراً راكباً نحو ساعتين ثم نزلت في آخره للراحة"[٣].

وذكر أيضاً في معرض حديثه عن حفر ترعة المحمودية "وكنت في ذلك الحين بإسكندرية أخرج للتفرج على هذه الكيفية، فشاهدت هِمماً تعجز عنها الأكاسرة وأفعالاً لا تدركها القياصرة"[٤]، ويؤكد مشاهدته بقوله "فإنه أمر لا يدرك معناه إلا من شاهده بنظره وليس الإخبار به كالعيان بل هو شيء من أثره"[٥].

المخطوط ومحتوياته

قسم الرجبي كتابه "تاريخ الوزير محمد علي باشا" إلى مقدمة وسبع مقالات، تناول في المقدمة كيف أن صلاح الدين والدنيا لا يدرك إلا بوجود العدل وظهوره،

---

[١] – المخطوط، ص١٨٢.
[٢] – المخطوط، ص٤٧-٤٨.
[٣] – المخطوط، ص١٥٢.
[٤] – المخطوط، ص١٥٥-١٥٦.
[٥] – المخطوط، ص١٥٧.

وأن العدل لا يُنصب ميزانه إلا على أيدي حاكم "قوي مطاع أمين"، وأن هذا الحاكم لا بد أن يجمع بين الهمة والشجاعة والذكاء والأخلاق، وأن تكون بطانته على شكله ورسمه، ويرى الرجبي أن محمد علي قد توافرت فيه كل تلك الصفات، ثم يتناول بعضاً من محاسن مصر وكيف آل حكمها إلى طوائف الغز (أمراء المماليك).

ويصف أحوال مصر قبيل الحملة الفرنسية وكيف إقتسم حكمها إبراهيم بيك ومراد بيك فعاثوا في الأرض فساداً وإفتقد الأمن في سائر أنحاء البلاد بعد أن إنقسم المماليك إلى طوائف وجماعات متناحرة، حتى أن أتباع كل من مراد بيك وإبراهيم بيك كانوا يخالفونهم في كثير من الأحكام، وأن كل أمير من أمراء المماليك أصبح هو الحاكم للخط الذي يقيم به ولا يقدر المحتسب أو حتى رئيس الشرطة على أداء مهمته في مثل تلك الأحياء، وإقتصر مرورهم وحكمهم على الشارع السلطاني وما شابهه من الشوارع الكبار، وترتب على ذلك أن افتقد الأمن وظهر الفساد حتى ملأ البر والبحر.

ويورد الرجبي معلومات مهمة عن تحالفات بين بعض الأمراء وقطاع الطرق من العربان و الفلاحين، كذلك عن الإبحار النهري وتعرض المراكب لأعمال القرصنة. وتذخر المقدمة بكثير من التفصيلات عن القرصنة النيلية، وهو ما يتفق مع ما ذكره الرحالة الألماني نيبور من أن زيارة القاهرة كانت في ذلك الوقت نوعاً من المغامرة المحفوفة بالأخطار.

كما يورد الرجبي كثيراً من التفصيلات عن نقص الأمن في العاصمة نفسها، ويتحدث عن هجمات متكررة لأهل المنسر من العربان على حارات القاهرة وفي ايديهم المشاعل المضيئة بالنار، ومن المعلومات المهمة التي ذكرها قوله أن أمراء مصر في ذلك الوقت كانوا على ثلاثة أقسام: أمراء مصريون (المماليك)، وأمراء فلاحون، وأمراء من العرب، ويشير إلى أن من الفلاحين والعربان من أصبحوا رؤساء عصابات يبلغ عدد كل منها ألف أو ألفين أو أكثر من ذلك، ويخلص من ذلك أن الفوضى

عمت بمصر فإرتفع الأمن وزاد الحزن والخوف وكثر الفسق، ويرى الرجبي أنـه نتيجـة لذلك "إضطرب أمر حكام الأقـاليم، و لم يـزل هـذا الأمـر علـى هـذه الصفـات حتـى تسبب عن ذلك مجيء الفرنسيس"، وأن الممـاليك لم يمكثـوا معهـم في الحـرب سـاعة واحدة.

ثم يصف الرجبي دخول الأتراك مصر بقيادة قبطان باشا بأنهم عساكر الإسـلام الذين أجلوا الفرنسيس وأدخلوا الأمن والطمأنينة وحصل بهم السرور للمسلمين، وأن بهم كمل نظام الموحدين وعمر القطر وصلحت البلاد، ويذكـر الرجـبي أن الإسـتقرار بعد خروج الفرنسيين لم يستمر كثيراً، إذ سرعان ما دخلتها طوائف الغز المماليك ثانية وأشاعوا الفوضى والإضطراب.

ويضيف الرجبي أن تلك الفوضى إستمرت حتى تولى وزارة مصر محمـد علـي، فأعاد عمران القطر بعد الإضمحلال، وصنع أشياء جليلة يعجز عنها كـل رئيـس مـن أمير ووزير على حد قوله. وبالرغم من أن الرجبي قد عاصر تلك الأحـداث، وبـالرغم من أنه أحد علماء الأزهر ومدرس التوحيد بـه إلا أنـه لم يتعـرض مـن قريـب أو بعيـد لدور العلماء في تعيين محمد علي، وإكتفى بقوله أن إبتداء شأنه كان يـوم الجمعـة ١٠ صفر سنة ١٢٢٠هـ/١٠ مـايو ١٨٠٥م بمنزل سـعيد أغـا وكيـل دار السـعادة، وهـو يختلف في ذلك عما أورده الجبرتي الذي ذكر أن دور سعيد أغا إقتصر على السعي بين محمد علي وبين العلماء الذين قادوا الشعب الذي كان يردد الهتافات مثل "يـا رب يـا متجلي إهلك العثمنلي" و"شرع الله بيننا وبـين هـذا الباشـا الظـالم"، ويـورد الجـبرتي كثيراً من التفصيلات عن تلك الحوادث التي أفضت إلى تعيين محمد علي حاكمـاً علـى مصر، منها حصار الشعب لخورشيد باشا بالقلعـة، وإجتمـاع المشـايخ والعامـة ببيـت القاضي، وقد حاول خورشيد باشا أن يدفع الجنود الدلاة-الذيـن كـان سـلفه خسـرو باشا قد إستقدمهم- للتعاون معه، وأرسل إليهم فرمانـاً يذكـر لهـم أنـه "يجـب عليهـم معاونتـه صيانـة لعـرض السـلطنة وإقامـة لناموسـها ونـاموس الديــن، وأن الفلاحــين

محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشرب"[١]. وقد ظل خورشيد باشا سجيناً بالقلعة حتى وصل الفرمان بعزله وتعيين محمد علي إبتداء من ٢٠ ربيع الأول سنة ١٢٢٠هـ/ ٩ يوليو ١٨٠٥م، "حيث رضي بذلك العلماء والرعية وأن أحمد باشا معزول عن مصر، وأن يتوجه إلى إسكندرية بالإعزاز والإكرام"[٢] ونرى الجبرتي أكثر تحرياً للدقة فقد ذكر أن العلماء توجهوا ومعهم سعيد أغا من بيت القاضي إلى منزل محمد علي بالأزبكية، حيث قالوا له لا نرضى إلا بك والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير. وكان رأي الجبرتي في سعي المشايخ والعامة في عزل الباشا وتعيين محمدعلي أنها "قضية مشكلة بين أوباش مختلفة وطباع معوجة منحرفة"[٣].

أما المقالة الأولى من هذا الكتاب فيتضح من عنوانها "في بعض صفات ومحاسن أخلاقه الجليلة الجميلة" أن الكاتب قد إكتفى لنفسه بموقف المادح لما رآه من محاسن الأخلاق، ونشير إلى إشادة الرجبي بكرم محمد علي وقوله أن "من أخلاقه أن يعطي العطاء الكثير لمن صنع في خدمته الشيء التافه القليل"[٤]، ويتحدث الرجبي عن تلقي العلماء مرتبات عينية ومادية من محمد علي، فلا عجب أن يطلب شيخ الأزهر من أحد علمائه كتابة تاريخ الوزير محمد علي، وأن يأتي ذلك التاريخ على هذا النحو من المبالغة في المديح. ويناقش الرجبي تدعيم محمد علي لكثير من المنشآت والأنشطة الدينية وعلى رأسها رعايته للمساجد والأضرحة ومكاتب الأيتام.

وعلى أية حال فقد تناول في هذا الفصل بالإضافة إلى عبارات المديح والإطراء العديدة عدداً من الموضوعات المهمة التي سجلها الرجبي، منها بداية نظام الشورى في مصر، حيث عمل محمد علي على أن يحل نظام الشورى محل البيروقراطية الإدارية،

---

[١] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٣٣.

[٢] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٣٦.

[٣] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٢٩-٣٣٠.

[٤] - المخطوط، ص٢٤.

وأن يقوم ذلك على إشراك رجال الحكومة في البحث والرأي، فقد ذكر الرجبي الذي دون مخطوطه في نهاية سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م أن من أخلاق محمد علي أنه كان في كل حين من الشهور يرسل للحكام ويأمرهم بالحضور بين يديه ويسألهم عن البلاد وأحوالها وعن المزارعين، ويشير عليهم بما فيه النفع للعامة والخاصة، ويرجعون ممتثلين لأوامره مبادرين إلى تنفيذ أغراضه[١]، وقد كان ذلك بداية تأسيس الدواوين وأهمها المجلس العالي أو الديوان الخديوي، إذ لم يمضي عام ونصف على ما ذكره الرجبي من إجتماع محمد علي بكبار موظفيه حتى أصدر أمراً بتأسيس الديوان الخديوي وذلك في ٥ ربيع الثاني سنة ١٢٤٠هـ/٢٧ نوفمبر ١٨٢٤م، وقد أطلق على هذا الديوان أسماء عديدة منها "مجلس القلعة" و"الجمعية العمومية" و"مجلس العموم" و"مجلس المشورة" أو "مجلس الشورى"، وكان محمد علي يعتبر هذا الديوان أو المجلس ديوانه المفضل، ويتفق هذا مع ما ذكره بورنج في تقريره على لسان محمد علي نفسه "إن بي حاجة إلى النصيحة الخالصة، ولهذا أتلفت حولي باحثاً عنها، وأمنيتي أن يكون لدي مجلس شورى من الرجال الأمناء"[٢]. وكان محمد علي قد سبق وأنشأ عدة دواوين لكل منها إختصاص بعينه، منها ديوان الكتخدا (وكيل الوالي) وديوان التفتيش، وديوان البيوعات وغير ذلك، ويعلق الرجبي على ذلك بقوله "إنه قد حصل بهذا إنسجام وإصلاح للناس وراحة كبيرة"[٣].

يتحدث الرجبي في هذا الفصل عن كيفية إختيار محمد علي لحكامه وكبار موظفيه، وتحريه عنهم قبل توليتهم المنصب وأثناء قيامهم به، وكيف إنه "لا يولي منصباً ولا حكماً لأحد في كل نوع من أنواع المصالح والخدم إلا بعد معرفة حاله وضبطه، وإنه يصلح لمثل هذا المنصب، وفي كل وقت يسأل عنه وعن أحواله وكيفية

[١] – المخطوط، ص٣٠-٣١.

[٢] – تقرير بورنج ضمن: محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص٦٩٠.

[٣] – المخطوط، ص٣١.

صنيعه"[١]، والواقع أن محمد علي كان يشكو دائماً من عدم وجود العدد الكافي من الأشخاص الذين يعتنقون آراءه ومراميه بحماسة وإخلاص[٢]، وقد ناشد محمد علي موظفيه في كتاب دوري أصدره سنة ١٨٤٣م العمل بكل طاقتهم، فقال "إن من حسن الطالع أن ننعم بأرض كأرضنا لا مثيل لها بين أراضي العالم، وعندي أن التقاعس عن بذل كل ما يمكن بذله من الجهود في سبيل مضاعفة يسرها ورخائها لدليل العقوق الذي لا يمكن أن يرضاه قلبي ويستحيل أن أقره، فلا محيص لي من أن أناشدكم في كل حين بأن تسهروا على أداء واجباتكم لكي تصل إلى الغاية التي جعلناها نصب أعيننا وحذار من التكاسل والإهمال"[٣]. كما يذكر كلوت بيك أن محمد علي كان أول من أرسى في مصر قواعد إدارة حكومة تعتبر وحدتها وقوتها من أهم الشروط الحيوية المحافظة على كيانها[٤]. ويذكر الرجبي في مخطوطه هذا أنه قد حصل بسبب ذلك إنسجام حال المصالح، وإنتظام أمر أربابها وحكامها، ويتحدث الرجبي في هذا الفصل عن إصلاح محمد علي لنظام القضاء، ويورد بعض المعلومات المهمة عن قضاء الإسكندرية وكيف أن ذلك القضاء كان يتم شراءه سنوياً من استانبول، فألغى محمد علي ذلك وأمر بأن يكون قاضيها من علمائها و"له ما يكفيه يعطيه حضرة المحافظ بالثغر"[٥].

حرص الرجبي كذلك في نفس الفصل على تأكيد حب محمد علي للسنة المطهرة وإرجاعه الحكم في الأمور كلها إلى الشرع الشريف، وهو يؤكد ما ذكرناه آنفاً من أن ذلك كان هو القصد من وراء تصنيف هذا الكتاب. وقد ذكر بورنج في

---

[١] – المخطوط، ص٣١.

[٢] – محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة، ص٦٩٠.

[٣] – دودويل: محمد علي، ص٢٢٤.

[٤] – كلوت بيك: لمحة، ج٤، ص١٨.

[٥] – المخطوط، ص٢٨.

هذا الصدد في تقريره أن تصريف الشئون القضائية في مصر أكثر سرعة وأقل تعرضاً للأهواء منه في أغلب البلاد الإسلامية[١].

يشير الرجبي أيضاً في هذا الفصل إلى تنظيمات المشايخ والنقباء ورعاية محمد علي لها، وهى النقابات التي ذكر عنها بورنج في تقريره أن القاهرة بها ما لا يقل عن ١٦٤ نقابة تتولى حماية ما تمثله من مختلف الحرف، وأن شيخ الحرفة كان يشتري مركزه من الحكومة وله على الجميع سلطة تامة، وأنه بفضل هذا النظام تسيطر الحكومة على جماعات كثيرة من الأفراد عن طريق الشيخ[٢].

أما الباب الثاني من هذا المخطوط فيتناول إنتصار محمد علي على المماليك وإخراجه لهم من مصر، ويبدي الرجبي تفهماً كبيراً لموقف محمد علي من المماليك ويصفهم بأنهم قوم "أغراهم الشيطان على الخيانة" وأن محمد علي عرف أنه لا خير فيهم[٣]، ويصف الرجبي شاهين بيك الألفي الذي تزعم المماليك بعد وفاة محمد بيك الألفي بسخافة العقل وإنه "رجل لامروءة له، بل هو حقير مهين"[٤]، ونجد الرجبي في أكثر من موضع من هذا المخطوط يكيل السباب للمماليك، ويهون الرجبي من مذبحة القلعة ويصفها وصفاً موجزاً، كما أن معلوماته عن مفاوضات محمد علي مع المماليك قبل مذبحة القلعة تعوذها الدقة، والتفاصيل التي يذخر بها تاريخ الجبرتي فبينما يذكر الرجبي أن حسن باشا طاهر أدار جولة من المفاوضات مع شاهين بيك وسليم بيك المحرجي[٥]، يذكر الجبرتي أن تلك المفاوضات كانت بين حسن باشا وإبراهيم بيك

[١] – أنظر نص تقرير بورنج: محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص٦٢٨.

[٢] – أنظر نص تقرير بورنج: محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص٦١٧.

[٣] – المخطوط، ص٣٥.

[٤] – المخطوط، ص٤٤.

[٥] – المخطوط، ص٣٩.

الكبير بعد أن إنضم إليه شاهين بيك الألفي[١]، كما يتحـدث الرجـبي أيضاً عـن قيـادة محمد علي للمعركة ضد المماليك بنفسه في ٥ جمادى الأولى سنة ١٢٢٥هـ/٨ يونيو ١٨١٠م، ويورد الجبرتي نفس المعركة بتفصيلات أكثر دقة، فيذكـر أن محمـد علـي لم يذهب بنفسه بل أرسل جيشاً بقيادة كبار ضباطه حسن باشا طاهر و عـابدين بيـك و محو بيك و دبوس أغلي و صالح قوج[٢].

ولا شك أن المرارة التي يتحدث بها الشيخ الرجـبي عـن المماليك كـان ورائهـا تجرعه شخصياً لظلم المماليك بإستيلاء بعضهم على إلتزامين له، فقـد ذكـر في صفحـة ٤٧ من المخطوط "فقـد شـاهدتهم سـابقاً وهـم في دولتهـم وعزهـم وكبـير صولتهـم وكثرة عساكرهم وأجنادهم وهم في مصر وأقطارهـا السـنين العديـدة والمديـدة، فمـا رأيت فيهم صاحب تدبير ولا إنساناً له الناس بالكمال تشير، بل كانوا مغفلين ظـالمين وكنت ممن ظلموه، حيث كانت لي حصة إلتزام في بلد كان بها كفايتي وكفاية أهلي، فإنتهبها بالظلم والقهر عثمان أغا شقيق لاجين بيك، وجهة أخرى أخذهـا ذو الفقـار أغاة الينكشارية". والواقع أن هذا الفصـل مـن المخطـوط شـديد الإيجـاز، يصـف فيـه المؤلـف المـاليك بـإحط الصفـات، بينمـا يصـف محمـد علـي بإنـه كالأسـد الضـاري والفارس الغضنفر والشجاع القسور.

أما الفصل الثاني من المقالة الثانية فقد إختص به المؤلف حروب محمد علـي مـع الوهابيين، ويصف إنتصاره عليهم وإستعادة محمـد علـي للحرمـين الشـريفين وتدمـيره للدرعية بأنها "حسنة له على جبين الدهر مسطرة، وحديقة زهر بشـميم عرفهـا أفئـدة المؤمنين ووجوههم مبتهجة معطرة باقية مخلدة بوجه الزمان غرة لاتزال "[٣].

---

[١] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٢-١١٥.

[٢] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٥،١١٦،١١٨،١١٩،١٢٠،١٢٣.

[٣] - المخطوط، ص١١٢.

والواقع أن هذا الفصل من أهم فصول المخطوط لما يحويه من معلومات ينفرد بها الرجبي، خاصة تلك التي يتحدث فيها عن بداية الحركة الوهابية وإنتصارهم على العربان وسيطرتهم على الدرعية وإمتداد نفوذهم حتى سيطروا على الطائف وأرض الحرمين الشريفين وأطراف اليمن[١].

وإذا قارنا بين موقف الرجبي من الوهابيين وموقف الجبرتي من نفس الحركة، نجد أن الشيخ الرجبي يشير إلى مشروعية حرب الوهابي لخروجه على ولي الأمر وهو السلطان العثماني"ظل الله على رعيته وخليفته في خلقه" وأن السلطان "أرسل من حضرته أمراً مقبول الطاعة مسموع المضمون لدى أهل السنة والجماعة" يتضمن أمر محمد علي "بإنقاذ بلاد الحرمين الشريفين مكة و المدينة " و"أن يصد الوهابي وجيوشه بالحرب ويرفع ضرره"[٢]، ويذكر الرجبي أن عبد الوهاب و عبد العزيز سارا في الناس سيرة حسنة حتى هلك، فقام بالأمر من بعد عبد الوهاب ابنه محمد وبعد عبد العزيز ابنه سعود، ويضيف الرجبي أن سعود إشتدت قوته وكثرة أمواله "فخرج عن قوانين أبيه وتخول في النعم ووقع منه الظلم والجور والتعدي على بلاد الحرمين"[٣]، وأن خرافات دعوة ابن عبد الوهاب وهذيان عقيدته ظاهرة البطلان جلية البهتان والخذلان، ويصف عسكر محمد علي بإنهم "عسكر السنيين"[٤]، وكأنها معركة بين أهل السنة والخارجين عليها.

ولنا أن نقارن بين آراء كل من الرجبي والجبرتي، فكلاهما من علماء الأزهر، وكلاهما عاصر نفس الأحداث، فبينما يذكر الرجبي أن طوائف الوهابية إستولوا على المدينة المنورة وفعلوا بها "من الشر والقبائح ما يزيد عن الحد حتى صعد منهم العدد

---

[١] - أنطر أيضاً: محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص٩٨٥.

[٢] - المخطوط، ص٦٠-٦١.

[٣] - المخطوط، ص٥٨.

[٤] - المخطوط، ص١٠٥.

الكثير والجم الغفير على سطح المسجد النبوي وأحاطوا بالقبة الشريفة وملأوا دوائرها جميعاً بالبول والغائط، وصار ذلك شعارهم قبحهم الله أجمعين"[١].

يذكر الجبرتي عن نفس الحادثة أن الوهابيين إستولوا على المدينة المنورة بعد حصارها نحو سنة ونصف من غير حرب، وأنهم "لم يحدثوا بها حدثاً غير منع المنكرات وشرب التنباك في الأسواق وهدم القباب ما عدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم"[٢]. ويتفق كل من الرجبي والجبرتي على شدة حصار الوهابيين للمدينة المنورة قبل الإستيلاء عليها، فيذكر الرجبي أنهم "فحاصروها حصاراً شديداً حتى عدمت الأقوات بها بالمرة، ثم أضاعوه من شدة الجوع والخوف"[٣]، ويذكر الجبرتي أنهم "تحلقوا حولها وقطعوا عنها الوارد حتى بلغ الإردب الحنطة بها مائة ريال فرانسة، فلما إشتد بهم الضيق سلموها"[٤].

وبينما يذكر الرجبي أن الوهابية عقيدتهم زائفة باطلة، وإنه لم يوجد من منذ خمسمائة سنة طائفة غيرت الشريعة مثلهم" وأن لهم رذائل لا ينفك الواحد منهم عنها[٥]، نجد الجبرتي يذكر أن ما ينسبه الناس إليه من الأقوال المخالفة لقواعد الشرع يتبرأ عنها[٦].

ويتحدث الرجبي عن إزدياد سطوة ونفوذ الوهابيين ونهبهم لذخائر الحجرة النبوية وإعتدائهم على المزارات المقدسة بالعراق ونهبهم لما بها من ذخائر من ذهب وفضة وجواهر نفيسة، ولا ينكر الجبرتي ذلك، فقد ذكر في حوادث ربيع الثاني سنة

---

[١] - المخطوط، ص٥٩.

[٢] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٤٦.

[٣] - المخطوط، ص٥٨.

[٤] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٤٦.

[٥] - المخطوط، ص١١٢.

[٦] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٦٠.

١٢٢٢هـ/يونيو ١٨٠٧م أن "الوهابي أخذ كل ما كان في الحجرة النبوية مـن الذخـائر والجواهر"[١]، ويذكر في حـوادث ذي الحجـة سـنة ١٢٢٣هـ/ينـاير ١٨٠٩م أن الوهـابي إستولى على ما كان بالحجرة الشريفة وإنه "عبى أربعـة سـحاحير مـن الجوهـر المحـلاة بالألماس والياقوت العظيمة القدر، ومن ذلك أربع شمعدانات من الزمرد وبدل الشـمعة قطعة من ألماس مستطيلة يضيء نورهـا في الظـلام، ونحـو مائـة سـيف قراباتهـا ملبسـة بالذهب الخالص ومنزَّل عليها ألماس والياقوت، ونصابها من الزمرد واليَشَم ونحو ذلـك وسلاحها من الحديد"، وبالرغم من أن الجبرتي يضيف أن كل سيف منها لا قيمة لـه، وأن عليها دمغات بأسم الملوك والخلفاء السالفين[٢]، إلا أنه يحاول تبرير إستيلاء الوهابي عليهـا قـائلاً أنهـا "أشـياء أرسـلها ووضعهـا خسـاف العقـول مـن الأغنيـاء والملــوك والسلاطين الأعاجم"[٣]، ويسوق الأدلة الشرعية من القرآن والسنة على عدم مشـروعية كنز مثل تلك النفائس وأن "محبة الرسول بتصديقه وإتبـاع شـريعته وسـنته لا بمخالفـة أوامره وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين"[٤].

ومن الجدير بـالذكر أن هـذه الذخـائر هـى الـتي إشـترط محمـد علـي في بدايـة مفاوضاته مع الوهابيين أن يقوم عبد الله بن سعود بتسليم ما إسـتولى عليـه وأن يدفـع ثمن ما إستهلك منها[٥].

وبينما نجد الرجبي يهاجم ابن عبد الوهاب ويتهمه بفساد العقيدة ومنع الحجاج من أداء شعائرهم، نجد الجبرتي يبدي تفهماً أكثر لدعوة الوهابي، ويذكـر أن إنقطـاع الحج الشامي والمصري سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٩م بسبب الوهابي ليس صحيحاً، وإنه "لم

---

[١] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٦٠.
[٢] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٨٦.
[٣] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٨٥.
[٤] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٨٦.
[٥] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٨٠.

يمنع أحداً يأتي إلى الحج على الطريقة المشروعة، وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك ومن البدع التي لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وحمل السلاح"، ويضيف الجبرتي أنه قد وصلت "طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا في هذا العام (١٢٢٣هـ/١٨٠٩م) وما قبله، ولم يتعرض لهم أحد بشيء"[١].

والواقع أن الهوة شاسعة بين آراء الجبرتي وآراء الرجبي في الحركة الوهابية، وبعيداً عن ذلك نجد في هذا الفصل من مخطوط الرجبي هذا معلومات شديدة التفصيل عن إستعدادات محمد علي لتلك الحرب، وخاصة فيما يتعلق بنقل أجزاء السفن من ترسانة بولاق إلى السويس، مما يدفع إلى الإعتقاد بأن الرجبي كان شاهد عيان لتلك الأحداث خاصة وإنه معاصر لها، كما أنه لم يذكر في أي جزء من مصنفه إعتماده على مصادر مكتوبة كما سبق أن ذكرنا.

ولا نستطيع أن نغفل ما أورده في هذا الفصل عن بزوغ الحركة الوهابية والمعركة التي دارت في الدرعية بين الأعراب والوهابية والتي إنتهت بسيطرة أتباع عبد الوهاب على الدرعية وإنطلاقهم منها للسيطرة على القبائل المجاورة، والواقع أن هذا الجزء من مصنف الرجبي يزخر بتفصيلات شيقة عن الدرعية وتحصيناتها والحيلة التي إتبعها عبد الوهاب وعبد العزيز وأنصارهما للقضاء على الأعراب وبداية ظهور شأنهما، ولم يذكر الرجبي المصدر الذي إستقى منه معلوماته تلك. أما تتبعه للمعارك الحربية التي دارت بين الوهابية وقوات محمد علي بقيادة ابنه طوسون في البداية ثم بقيادة محمد علي نفسه، ثم أخيراً بقيادة إبراهيم باشا، وهى المعارك التي إنتهت بالقضاء على الوهابيين وتسوية عاصمتهم الدرعية بالأرض، فهو تتبع مثير للدهشة لما يحويه من تفاصيل دقيقة للمعارك والخطط والحيل الحربية وأبطال تلك المعارك، وهى تفاصيل لا نجد مثيلاً لها في حديث الرجبي عن معارك محمد علي مع المماليك في مصرنفسها، ونرجح أن الرجبي قد إستقى معلوماته من بعض ضباط أو جنود محمد

[١] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٨٥.

علي ممن شاركوا في تلك المعارك[١]، فعلى سبيل المثال يتحدث الرجبي عن نجاح طلائع قوات إبراهيم باشا في التسلل ليلاً إلى داخل مدينة الدرعية وبدأهم المعارك من داخل الدرعية ذاتها، مما كان له عظيم الأثر في إنتصار إبراهيم باشا ونجاح قواته في الإستيلاء على المدينة فمحققهم بسيفه ومن درع درعتهم عراهم على حد قول الشيخ الرجبي نفسه[٢].

ولما وصلت البشارة إلى السلطان العثماني بإستعادة الحرمين الشريفين أرسل إلى مصر فرماناً سلطانياً "مضمونه الأمر للخطباء في المساجد يوم الجمعة على المنابر بأن يقولوا عند الدعاء للسلطان فيقولوا السلطان ابن السلطان بتكرير لفظ السلطان ثلاث مرات محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان المغازي خادم الحرمين الشريفين، لأنه إستحق أن ينعت بهذه النعوت لكون عساكره إفتتحت بلاد الحرمين وغزت الخوارج (الوهابيين) وإخرجتهم منها، لإن المفتي أفتاهم بأنهم كفار لتكفيرهم المسلمين، ويجعلونهم مشركين، ولخروجهم على السلطان وقتلهم الأنفس، وأن من قاتلهم يكون مغازياً ومجاهداً وشهيداً إذا قتل"[٣].

ويصور الرجبي حرب محمد علي ضد الوهابيين بأنها حرب بين أنصار السنة "عسكر السنيين" ضد الخارجين عليها من أتباع الوهابي وابن سعود[٤].

يلي ذلك فصل خاص أفرده الرجبي لرصد نجاح محمد علي في إستعادة الأمن المفقود في ربوع مصر، وجعل عنوانه "في قمع شوكة المفسدين من طوائف أجلاف الفلاحين والعربان بقطر مصر وإذلالهم"، فقد عانى محمد علي في أوائل حكمه أشد

---

[١] – عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، القاهرة سنة ١٩٥٠، ص٤٧-٨٨؛ عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، الطبعة الرابعة، القاهرة سنة ١٩٨٢، ص١٤٢-١٥٠.

[٢] – المخطوط، ص١١٢.

[٣] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٧٧-١٧٨.

[٤] – المخطوط، ص١٠٥.

المعاناة من الفتن والقلاقل والثورات وما أتبع ذلك من إفتقاد الأمن وصعوبة المحافظة على الأرواح والأعراض والأموال، فقد تولى محمد علي باشا الحكم ومصر في حالة أقرب إلى الحرب الأهلية، فالصعيد جله تحت سيطرة المماليك يناوشونه الحرب ويثيرون القلاقل ويمنعون الوارد من المحاصيل إلى العاصمة، وثغور مصر ما تزال تحت سيطرة الأتراك بينما العاصمة نفسها تسلط عليها العسكر و"زاد فحشهم وقبحهم وتسلطهم على إيذاء الناس، وكثروا بالبلد وإنحشروا من كل جهة وتسلطوا على إيذاء الناس قهراً"[١]، وخاصة الأرنؤط والدلاة ومن الأتراك الذين أرسلتهم الدولة العثمانية للمساعدة في طرد الفرنسيين من مصر، كلما تأخرت رواتبهم خرجوا إلى الأسواق ينهبون المتاجر ويفتكون بمن يتعرض لهم من الأهالي[٢]، ويذكر الجبرتي حادثة دخول عساكر الدلاة إلى بولاق، في صفر سنة ١٢٢٢هـ/ابريل ١٨٠٧م أنه "حصل منهم الإزعاج في أخذ الحمير والجمال قهراً من أصحابها، ونزلوا بخيولهم على ربب البرسيم والغلال الطائبة التي بناحية بولاق وجزيرة بدران وخلافها، فرعتها وأكلتها بهائمهم في يوم واحد، ثم إنتقلوا إلى ناحية منية السيرج وشبرا والزاوية الحمراء والمطرية والأميرية فأكلوا زروعات الجميع وخطفوا مواشيهم وفجروا بالنساء وإفتضوا الأبكار ولاطوا بالغلمان وأخذوهم وباعوهم فيما بينهم، حتى باعوا البعض بسوق مسكة وغيره، وهكذا تفعل المجاهدون. ولشدة قهر الخلائق منهم وقبح أفعالهم تمنوا مجيء الإفرنج من أي جنس كان وزوال هؤلاء الطوائف الخاسرة الذين ليس لهم ملة ولا شريعة ولا طريق يمشون عليها، فكانوا يصرخون بذلك بمسمع منهم، فيزداد حقدهم وعداوتهم، ويقولون: أهل هذه البلاد ليسوا مسلمين، لأنهم يكرهوننا ويحبون النصارى، ويتوعدونهم إذا خلصت لهم البلاد، ولا ينظرون لقبح أفعالهم"[٣]، ويضيف

---

[١] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٤٧.

[٢] – محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص١٩٢.

[٣] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٥١-٥٢.

الجبرتي عن ما يحدث من العساكر أنهم "أفحشوا في التعدي على الناس وغصب البيوت من أصحابها، فتأتي الطائفة منهم إلى الدار المسكونة ويدخلونها من غير إحتشام ولا إذن ويهجمون على سكن الحريم بحجة أنهم يتفرجون على أعالي الدار فتصرخ الناس ويجتمع أهل الخطة ويكلمونهم فلا يلتفتون إليهم، فيعالجونهم مرة بالملاطفة وأخرى بكثرة الجمع إن كان بهم قوة أو بمعونة ذي مقدرة، وإذا إنفصلوا فلا يخرجون من الدار إلا بمصلحة أو هدية لها قدر .. فإذا إنصرفوا وظن صاحب الدار أنهم إنجلوا عنه فيأتيه بعد يومين أو ثلاثة خلافهم، ويقع في ورطة أخرى مثل الأولى أو أخف أو أعظم منها". ويضيف الجبرتي أن "هذا يقع لأعيان الناس" ويأخذون أثاث المنزل وموجوداته قائلين أن "الذي كان معنا إستهلك منا في السفر والجهاد ودفع الكفار عنكم وأنتم مستريحون في بيوتكم وعند حريمكم"، ثم أن العسكر تعدوا بعد ذلك "إلى الحارات والنواحي التي لم يتقدم لهم السكنى بها قبل ذلك، مثل نواحي المشهد الحسيني وخلف الجامع المؤيدي والخرنفش والجمالية، حتى ضاقت المساكن بالناس لقلتها"[1].

ومن طريف ما أورده الجبرتي أيضاً حادثة إستيلاء العسكر على منزل لإحد علماء الأزهر، وقول العسكر له بعد تجمع علماء الأزهر لطردهم "أنتم لستم بمسلمين لأنكم كنتم تتمنون تملك النصارى (الإنجليز) لبلادكم، وتقولون إنهم خير منا، ونحن مسلمون ومجاهدون طردنا النصارى وأخرجناهم من البلاد، فنحن أحق بالدور منكم"[2].

بل أن منزل محمد علي نفسه بالأزبكية قد تعرض لإطلاق النار عليه من الأرنؤوط والدلاة، عند مطالبتهم في إحدى المرات بمرتباتهم وعلائفهم المتأخرة، كما

---

[1] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٦٦-٦٧ ؛ محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٨٦٠-٨٦١.

[2] الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٦٨.

أن محمد علي نفسه تعرض لمحاولة إغتيال على يدي إثنين من هؤلاء الجنود عند مروره بشارع سوق السلاح[١]. والواقع أن محمد علي أحسن إستغلال تلك الإضطرابات للعمل على ترسيخ أركان حكمه، فبذل كل جهده لوقف إعتداءات العساكر ورد المنهوبات، وعمل على تسكين خواطر الأهالي حتى ترك الناس يسخطون على العسكر ويترضون عنه، فإنجذبت إليه قلوب الرعية وأكابر الدولة[٢]. ويفيض تاريخ الجبرتي الشهير بأمثلة لا حصر لها لفوضى العسكر وإنفراط عقدهم وإعتداءاتهم المتكررة على الأهالي الذين طفح بهم الكيل فتصدوا للعسكر بأنفسهم وقتلوا منهم ما طالته أيديهم، وإنتهى الأمر بإلتفافهم حول محمد علي ووضعه على سدة الحكم في مصر. والواقع أن محمد علي عمل منذ اليوم الأول لتوليه حكم مصر على التخلص من مثيري الشغب من الجند خاصة الأرنؤوط والدلاة، فعمد إلى إرسالهم في حملاته العديدة ضد المماليك، ثم إستخدمهم في حروبه ضد الوهابيين، وأخيراً إضطر إلى قطع رواتب الطوائف الشديدة الشغب منهم وأصدر أوامره بنفيهم إلى بلادهم، ولم يكن ذلك بالأمر الهين أو اليسير على أكابرهم، فقد كانوا يتخبطون في بلادهم ويتكسبون بالصنائع الدنيئة، "ووصل كل صعلوك منهم" في مصر -على حد قول الجبرتي- "لما لا يخطر على باله أو يتوهمه أو يتخيله ولا في عالم الرؤيا"[٣]، وصار ما من أحد منهم إلا وله عدة بيوت وزوجات وإلتزام بلاد وسيادة لم يتخيلها، ولم تخطر بذهنه ولا بفكره ولا يسهل به الإنسلاخ عن مصر والخروج منها ولو خرجت روحه[٤].

وإذا كان الجبرتي قد أمدنا بتفاصيل مدهشة عن إضطرابات العسكر وتعديهم على الأهالي، وإفتقاد الأمن على الأرواح والأعراض والممتلكات في العاصمة نفسها

[١] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٧٠،٢٢٢.

[٢] – محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص١٩٥.

[٣] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٤٧.

[٤] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١.

قبيل تولي محمد علي وفي السنوات المبكرة من حكمه، فإن الرجبي في هذا الفصل من مؤلفه يمدنا بمعلومات لا تقل أهمية عن إفتقاد الأمن في الأقاليم، فيشير الرجبي إلى سيطرة عرب البحيرة على القرى، وكيف أن كل قرية كان لها أمير من هؤلاء العربان يسمونه "صديق" يفرض حمايته على القرية، ويورد الرجبي أسماء العديد من قطاع الطرق من هؤلاء العربان الذين فرضوا سطوتهم على تلك الأقاليم، ويحدد أماكن نفوذهم، بل ويصف كثيراً منهم وصفاً يدل على أنه إستمد معلوماته من أشخاص عرفوهم معرفة مباشرة، ويرصد الرجبي إختلال الأمن في الأقاليم ويحلل النتائج التي ترتبت على سيطرة العربان وقطاع الطرق، فيذكر أنه "يتفرع من ذلك إنقطاع الطرقات وإرهاب السفار في كل الجهات ويرتفع الأمن من الأوطان .. فإختل بهذا السبب القطر خللاً كبيراً وعم الإضرار ساير الناس كبيراً وصغيراً .. فقل إيراد الجبايات الخراجية وتعطل معظم الأموال الميرية"[١]، ويسجل الرجبي كيف نجح محمد علي في قمع هؤلاء الفجار "فأمنت المراكب في البحر وإرتاحت السايرون في البر، وخلت تلك الطرق من الأوباش، وحسن فيها السير لطلاب المعاش"[٢].

أما المقالة الثالثة من هذا المخطوط فقد خصصها الرجبي لسياسة محمد علي الزراعية، وجعل عنوانها "في ذكر تعمير حضرة أفندينا للقطر المصري وإحياء أرضه وبلاده بالزروع والثمار"، وقد كان الإهتمام بالزراعة من أهم عناصر التنمية الإقتصادية التي عمد إليها محمد علي، لانها كانت المصدر الرئيسي للحياة الاقتصادية في ذلك الوقت، فكانت مصدر التمويل لمشاريعه المختلفة، وإرتكزت سياسة محمد

---

[١] – المخطوط، ص١٢٢،١٢٣.

[٢] – المخطوط، ص١١٩.

علي الزراعية على ثلاث نقاط: هي إحتكار الأرض والإنتاج الزراعي، والإهتمام بمشاريع الري، والعمل على تنوع الإنتاج الزراعي[1].

وقد ذكر لنا الجبرتي والوثائق المعاصرة كيف سيطر محمد علي على الأراضي الزراعية، فألغى نظام الألتزام بالنسبة للأراضي الزراعية على مرحلتين، فقد أمر في سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٥م بأخذ حصص الالتزم من أيدي النساء، ثم أصدر أمراً في سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م يتضمن ضبط جميع الالتزام ورفع أيدي الملتزمين عن التصرف فيها، وكلف ابنه ابراهيم بمسح وقياس الأراضي بمصر سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م، وتكرر هذا الأمر عدة مرات في عهد محمد علي، وكانت هذه الخطوة إيذاناً بملكية محمد علي المباشرة للأراضي الزراعة والتحكم فيها وتنظيم زراعتها[2].

وقد عمل محمد علي على إدماج مصر في الإقتصاد الأوروبي كمورد للسلع الزراعية، فأدخل إلى البلاد زراعة القطن طويل التيلة بعد أن حوله من نبات للزينة في معظم الأحيان الى نبات محصولي، وأحضر بذور القطن من الهند سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م على يد شوميل، وهو المحصول الذي أصبح بعد ذلك أساس ثروة مصر الزراعية[3]، وتوسع محمد علي في زراعة القطن، وحث الفلاحين على زراعته وشرائه بأثمان مرتفعة في البداية، وبإجبارهم على زراعته بعد ذلك[4]. وقد أشار الرجبي في بداية

---

[1] - أحمد فارس عبد المنعم: السلطة السياسية والتنمية (منذ ١٨٠٥ وحتى الآن)، القاهرة سنة ١٩٩٣، ص١٠-١١.

[2] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٧، ص٣٩، ١٥٥، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٨-٢٨٢، ٤٨٢ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢١٣، ٢٣٦، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٩٠.

[3] - كلوت بك: لمحة، ج١، ص٨٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٤-١٧١، ١٧٤، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ج٤، ص١٨، ٢٢، ٢٥، ٧٥ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٨١.؛ عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص٤٩٧.

[4] - الان ريتشاردز: التطور الزراعي في مصر (١٨٠٠/١٩٨٠)، ترجمة أحمد فؤاد سيف النصر، القاهرة سنة ١٩٩١، ص٣٥-٣٦.

هذا الفصل إلى خصوبة الأراضي الزراعية في مصر، وكيف أن محمد علي قد تولى الحكم وزراعات مصر قد إضمحل أمرها بسبب ما كان بها من إفساد أمرائها والمقيمين بها من الأعراب وطوائف الفلاحين، فأمر بإعادة الجسور المحيطة بالبلاد والقرى، وإصلاح الترع وترميم السدود، وعين كثيراً من المهندسين لمباشرة أعمال الري وحفر الترع وعمل الجسور في مختلف الجهات[١]، وأشار الرجبي إلى إهتمام محمد علي بتعدد المحصولات، وإمداده الفلاحين بالبذور وأدوات الزراعة لتشجيعهم، وإهتمامه أيضاً بزراعات البستاتين وأشجار الفاكهة، وغرست الأشجار في كل مكان بمصر، وقدر عدد الأشجار التي غرست بالوجه البحري والقاهرة بنحو ١٦ مليون شجرة، تنوعت في أصنافها بين أشجار الغابات والفاكهة وغير ذلك، وجلبوا سلالات من مختلف بلاد العالم، كما عنوا بانشاء البساتين والحدائق والمزارع، ونشر زراعة القنب -التيل- لاستخدامه في صناعة الأقمشة، والأفيون والنيلة وجلب عدداً من الهنود والفرنسيين لتعليم الأهالي زراعتها[٢]. وإذا كانت معظم المصادر المعاصرة للرجبي ترى أن الفلاح لم يجن ثمار عمله بسبب سياسة الإحتكار والضرائب الباهظة التي كانت تلاحق الفلاح طوال العام[٣]، بالإضافة إلى حرمان القرى من الشباب القادرين على العمل لإجبارهم على الدخول في التجنيد[٤]، إلا أن الرجبي -نجده رغم كل ذلك- يذكر أنه "لما صنع حضرة أفندينا ما ذكرناه عمرت البلاد وصارت الفلاحون في عدد ومدد من الغلال، يدفعون الخراج ويأكلون ويشربون، وإستقام شأن القطر"[٥].

---

[١] - المخطوط، ص١٢٨-١٢٩.

[٢] - المخطوط، ص١٢٨-١٣٥.

[٣] - دودويل: محمد علي، ص٢٤١.

[٤] - كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص٢٦٤.

[٥] - المخطوط، ص١٣٢.

وفي المقالة الرابعة التي أفردها لذكر آثار محمد علي من الأبنية والعمارات بمصر وسائر جهاتها، تناول العديد من أعماله، فأورد تفاصيل لا بأس بها عن ذلك الطريق الصخري الذي أنشأه محمد علي ليوصل بين قلعة الجبل والقلعة النجمية التي أمر بإنشائها أعلى جبل المقطم، وتحدث الرجبي عن إنشاء محمد علي لسبيل ضخم بتلك القلعة الجديدة، وما أعد بالقلعة والسبيل من أجناد للحراسة وما شحن بها من ذخائر[1].

ويصف الرجبي بإعجاب كبير قصر وبستان شبرا، وما به نباتات وطيور وبرك صناعية وزوارق للتنزه. والواقع أن إهتمام محمد علي بفلاحة البساتين لم يكن مقصوراً على حدائقه الخاصة فقط بل إهتم بفلاحة البستاتين بشكل عام، وأرسل جماعة من البستانيين إلى جزائر الهند الشرقية لجلب نباتات جديدة إلى مصر، وكانت حدائقه بمثابة حقول تجارب لتلك النباتات، ولم يكن ابنه إبراهيم أقل منه إهتماماً بإنشاء الحدائق وفلاحة البساتين، فقد أنشأ حدائق وبساتين لتجارب المحاصيل بالقصر العالي وقصر المغارة بالمنيل[2].

و أشار الرجبي في هذا الفصل بإيجاز إلى القناطر الخيرية التي أمر محمد علي بإنشائها وأطلق عليها أسم "القناطر المجيدية الخيرية" نسبة الى السلطان عبد المجيد، وهي أحدى القناطر التي ساعدت محمد علي على إدخال تغيير جوهري على نظام الري في مصر لتحويله من ري الحياض إلى الري الدائم طوال العام، وقد بدأ العمل في تلك

---

[1] - المخطوط، ص١٣٩.

[2] - محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص٤٢٦-٤٢٧ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل عبد الفتاح: وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد علي حتى نهاية حكم اسماعيل، ١٨٠٥-١٨٧٩م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية آداب سوهاج، جامعة أسيوط، سنة ١٩٩٤م، ص١١٣-١١٤.

القناطر سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م، غير أنه لم يتم الإنتهاء منها إلا في عهد الخديو إسماعيل[١].

وتناول في المقالة الرابعة أيضاً إنشاء محمد علي للعديد من المصانع في الوجهين البحري والقبلي، وجلبه لرؤساء الصنائع وأرباب المعارف من أقطار مختلفة لتعليم المصريين أسرار ودقائق الصناعات الجديدة التي أدخلها[٢]. فقد إهتم محمد علي اهتماماً كبيراً بمختلف أنواع الصناعات التي تلبي حاجة البلاد وخاصة حاجة الجيش، وكان محمد علي أول من أدخل بمصر المصنع الحديث بمعنى الكلمة، وقد بلغ عدد العاملين في مصانع القاهرة وحدها ١٥٠٠٠ عامل، هذا على الرغم من أرتفاع تكلفة الانتاج وعدم انتاج مصر للآلات اللازمة، وعدم وجود الوقود الكافي الرخيص وعدم وجود الصناع المدربين على الصناعات الكبيرة، وقد تغلب على ذلك بتعيين الأجانب لتشغيل تلك المصانع وتدريب المصريين، كما أرسل البعثات العلمية الى أوروبا لتدريب أبناء مصر على الصناعات المختلفة، حيث أراد محمد علي أن يجعل من الصناعة مصدراً من مصادر الدخل العام لدولته كالزراعة، ولكنه أخفق في ذلك، لأنه اعتمد عليها في تزويد جيشه باحتياجاته من أسلحة وذخيرة وملابس وغير ذلك[٣]، وتقلصت معظم

---

[١] - الرافعي: عصر محمد علي ص٤٩٣ ؛ محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص ٤٧ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٥٨،٢٢١.

[٢] - المخطوط، ص١٤٤-١٤٦.

[٣] - كلوت بك: لمحة، ج٣، ص٢١٠، ٢٣٥، ج٤، ص٤٢-٤٥ ؛ الرافعي: عصر محمد علي، ص٣٢١، ٥٠٨ ؛ محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص٧، ٨، ٢٧، ٧٩، ٨٢-٨٤، ٢٢٨، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٩، ٧٠٥-٧٠٧، ٧٣٣-٧٤٠، ٧٥٩، ٧٧٧-٧٨٢ ؛ هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، القاهرة سنة ١٩٦٨، ص١٤٩-١٦٠، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٧-٢٩٠ ؛ عمر عبد العزيز: تاريخ مصر الحديث (١٥١٧-١٩١٩)، الاسكندرية سنة ١٩٩٣، ص٢٧٤ ؛ أحمد فارس عبد المنعم: السلطة السياسية والتنمية، ص١٢-١٣.

تلك الصناعات بل وأغلق الكثير منها بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، التي خفض بموجبها عدد الجيش المصري إلى ١٨٠٠٠ جندي فقط[١].

ومن الموضوعات، التي تناولها الرجبي في المقالة الرابعة أيضاً تجديد محمد علي لسور مدينة الإسكندرية وما يحيط بها من طوابي، وتحدث الرجبي عن تفقده شخصياً لسد الإسكندرية مع رفقة من أخوانه، وربما كان قد دعي إلى ذلك أثناء كتابته لهذا المخطوط[٢]. ونلاحظ هنا أن رأي الجبرتي في همة محمد علي لم يختلف كثيراً عن رأي الشيخ الرجبي، غير أن الجبرتي تمنى بعد ذلك أن يوفق ا لله محمد علي لشيء من العدالة حتى يصبح أعجوبة زمانه[٣].

وإشار الرجبي أيضاً إلى حفر ترعة المحمودية -نسبة الى السلطان محمود- سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٧م، التي أنشأها محمد علي لسرعة النقل بالسفن من والى الاسكندرية والاستفادة منها في الري، وانتهى حفرها سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م[٤]، وذكر أنها من أعظم المفاخر التي أنجزت في عصر محمد علي، ويورد الرجبي معلومات شيقة عن حفر هذه الترعة، فيذكر أسباب إنشاء هذه الترعة، وكيف أن التجار والسفار كانوا بعد وصولهم إلى ثغر الإسكندرية يتخذون طريقهم إلى رشيد -سواء الطريق البري أو البحري- ويعانون من مصاعب ملاحية عديدة في دخولهم البوغاز مما يؤدي إلى غرق كثير من السفن والركاب، وأنه مع تلك المشقة لم يكن هناك طريق إلى القاهرة سواه،

---

[١] - محمد فؤاد شكري: ناء دولة، ص٢٠٢-٢٠٣ ؛ محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠-١٨٩٩، القاهرة ١٩٦٣، ص١٦.

[٢] - المخطوط، ص١٤٨-١٥٢.

[٣] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٥٨.

[٤] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٧٦، ٢٧٧، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٦، ٣١١ ؛ عمر طوسون: تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية، الاسكندرية سنة ١٩٤٢، ص٥٩-٧٢، ٧٧-٩١، ٩٥-١٥٢.

أما التفاصيل التي ذكرها عن كيفية حفر تلك الترعة وأحوال العاملين بهـا، فقـد كـان الرجبي بنفسه شاهد عيان على ذلك، فقد ذكر في معرض حديثه عن حفر تلك الترعـة "وكنت في ذلك الحين بسكندرية أخرج للتفرج على هـذه الكيفيـة"[1]، وقـدر الرجـبي عدد العمال بنحو ٣٠٠ ألف عامل أو يزيد، وحولهم الأمراء وكشـاف الأقـاليم، وأن الرجال جـاءت مـن البلـدان ومعهـم الطبـول والزمـور وتصحبهـم الكوسـات، وكـل مجموعة منهم مختصة بالعمل في منطقة بعينها، ويورد الرجبي تفاصيل كثيرة عن طريقـة العمل في حفر الترعة المذكورة.

وبينما يتحدث الرجبي عن عظمة مشروع حفر ترعة المحمودية، وكيف أنها من مفاخر محمد علي، نجـد الجـبرتي يتحـدث عـن جمـع الفلاحـين وجرهـم مصفديـن في الأغلال لتسخيرهم في أعمال الحفر، وتعطـل الزراعـة وأحوالهـم السيئة ودفـن الموتـى منهم في حفر، وكيـف أن بعضهـم مـن المرضـى كـانوا يدفنـون وهـم أحيـاء "وفيهـم الروح" على حد قوله[2]. وأضاف الجبرتي أن أعمال الحفر إنتهت في أواخر ربيع الأول سنة ١٢٣٥هـ/يناير ١٨٢٠م ورجع المهندسون والفلاحـون إلى بلادهـم بعدمـا هلـك معظمهم[3]، غير أن الجبرتي –رغم كل ذلك– يتفق مع الرجبي على نجاح هذا المشروع وعموم فائدته على التجار والمسافرين، فذكر أنهم "إستراحوا من وعـر البغـاز والسـفر في المالح إلى الإسـكندرية، والنقـل والتجريـم وإنتظـار الريـح المناسـب لإقتحـام البغـاز والبحر الكبير"[4].

ويشير الرجبي في المقالة الرابعـة أيضـاً إلى التجديـدات الـتي أجراهـا محمـد علـي بكثير من المسـاجد والزوايـا، وإلى المرتبـات الـتي خصصهـا للقـائمين علـى الأضرحـة

---

[1] – المخطوط، ص١٥٥.

[2] الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٣٠٤.

[3] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٣٠٦-٣٠٧.

[4] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٣٠٧.

الكبرى مثل الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والإمام الشافعي، كما أشار أيضاً إلى ما جدده من أسبلة وما بها من كتاتيب لتعليم الأطفال، وتحدث عن توصيله للمياه من النيل إلى أرض القرافة خاصة بعد أن أنشأ بها مدفناً لأسرته خلف ضريح الإمام الشافعي[١]. وقد إتخذ محمد علي من تجديداته للمساجد والزوايا حجة للإستيلاء على أراضي وأعيان الأوقاف، بحجة أن أموال الأوقاف لا تصرف في الأغراض الموقوفة عليها[٢].

أما المقالة الخامسة فقد خصصها الرجبي لإصلاحات محمد علي الإدارية، وجعل عنوانها "إعادة دولة كتبة المسلمين"، فذكر أن الأقباط إنفردوا بخدمة الأمراء، و لم يبق بأيدي كتبة المسلمين سوى كتابة الحرمين الشريفين و كتابة الصرة مع أمير الحج، ويقسم الرجبي الكتابة بمصر إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول كتاب الأمراء المتكلمون على البلاد المتحكمون على المدن والقرى وهم الأقباط، والقسم الثاني كتاب الميري المسمى بالروزنامة وكبيرهم يعرف بالروزنامجي وهو من المسلمين، ومعه أتباع من طوائف الكتبة المسلمين، ويرى الرجبي أن الأقباط غلبت عليهم أيضاً، والقسم الثالث شهود البلاد وهم من فقراء المسلمين جعلتهم الأقباط مع الصيارف، ويذكر الرجبي أنهم كانوا يفرون من كتبة الأقباط فرار العصفور من الصقر، وذكر الرجبي أن محمد علي بدأ في تعيين المسلمين في تلك الوظائف، فرتب لكل خدمة رجالاً وعليهم رئيس، وأنهم شاركوا في كل الأعمال كتبة الأقباط[٣].

وقد أشار الجبرتي إلى رفع محمد علي لكثير من كتبة الأقباط من الخدمة ومصادرتهم في مواضع عديدة من تاريخه، وأن المصادرات كانت تشمل الكتبة من

---

[١] - المخطوط، ص١٤٧-١٤٩.

[٢] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٤٣-١٤٤، ٢٠٣-٢٠٤ ؛ محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص٣٠-٣١.

[٣] - المخطوط، ص١٦٤-١٦٧.

الأقباط والمسلمين على حد سواء لما أصابوه من ثروات، لأن "من طبعه الحقد والحسد والتطلع لما في أيدي الناس"[١]، وعلى سبيل المثال يذكر الجبرتي في حوادث ١٤ محرم سنة ١٢٢٥هـ/١٩ فبراير ١٨١٠م "أمر الباشا بالإحتياط على بيوت عظماء الأقباط"، وفي صفر/مارس من نفس العام "طلب الباشا ثلاثة أشخاص من كتبة الأقباط الذين كانوا متقيدين بقياس الأراضي بالمنوفية وضربهم وحبسهم لكونه بلغه عنهم أنهم أخذوا البراطيل والرشوات"، وفي حوادث ذي الحجة سنة ١٢٢٦هـ/ديسمبر ١٨١١م أمر برفع "المعلم منصور ومن معه من الكتبة من مباشرة ديوان ابنه إبراهيم بك الدفتردار وقيدوا بدلهم السيد غانم الرشيدي و محمد أفندي سليم ومن إنضم إليهم، وأظهر الباشا أنه يفعل ذلك لما علمه من خيانة الأقباط، والقصد الخفي خلاف ذلك، وهو الإستيلاء والإستحواز الكلي والجزئي وقطع منفعة الغير"، ويضيف الجبرتي أن من الناس من سمى هذا الديوان ديوان الفتنة[٢]، أما الرجبي فيذكر "أن هذه لحضرة الصدر من أكبر المفاخر يشهد بذلك كل مؤمن با لله واليوم الأخر"، وأنها سنة من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً"[٣].

وتتناول المقالة السادسة "إنشاء مراكب بحرية وآلات حربية، وما أنشأه من الترع والأنهار والبلاد والديار والأقطار"، ونجد في هذه المقالة معلومات جيدة عن النشاط البحري المبكر لمحمد علي، ويتحدث الرجبي عن إنشاء محمد علي لفرقاطة بالإسكندرية، مما يعني أن صناعة السفن بالإسكندرية بدأت قبل سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٢م (تاريخ كتابة المخطوط)، وهو تاريخ مبكر عما هو معروف من أن ترسانة الإسكندرية أنشئت سنة ١٢٤٥هـ/١٨٢٩م بإشراف الفرنسي سريزي، وهو يتفق أيضاً مع ما ذكره كلوت بيك من أنه لم يكن بالإسكندرية حتى ذلك التاريخ ترسانة

[١] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١١.

[٢] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٠٧، ١٠٩، ١٣٨.

[٣] – المخطوط، ص١٦٩.

لبناء السفن، وغاية الأمر أنه كان بسيف البحر مكان قريب تبنى فيه سفينة من طراز الكورفيت وأخرى من طراز البريك وثالثة ذات حجم عظيم حولت فيما بعد إلى فرقاطة[١]، وربما كان كلوت بيك يشير إلى نفس الفرقاطة التي ذكر الرجبي أنه بعد إنشائها بالإسكندرية أرسلها محمد علي إلى إنجلترا فصفحت بالنحاس، ونستطيع من المصادر الأخرى أن نؤكد على معلومات الرجبي ونضيف إليها، فقد أنشأ محمد علي الفرقاطة المذكورة بالإسكندرية وأرسلها إلى لندن في ابريل سنة ١٨١٠م وعادت إلى الإسكندرية في يناير سنة ١٨١٢م، وقد سلحت بثلاثين مدفعاً وأطلق عليها أسم إفريقيا[٢].

ويقدر الرجبي عدد السفن الحربية في ذلك الوقت بنحو مائة سفينة من الأنواع المختلفة كاملة العدة والآلة[٣]. والواقع أن إهتمام محمد علي بالبحرية كان عظيماً لإدراكه لأهميتها وخطر شأنها، سواء في التصدي للآستانة أو حروبه في قبرص و كريت وحروب اليونان وحرب الشام بعد ذلك[٤].

ويشير الرجبي في المقالة السادسة أيضاً إلى إهتمام محمد علي بإصلاح نظام الري، وقيامه بتطهير وصيانة الترع القديمة وحفر بعض الترع الجديدة، وتشييده للعديد

---

١ - كلوت بيك: لمحة، ج٢، ص٢٣٧.

٢ - Georges Durand-Viel, Les Campagnes Navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim, Paris, 1937, Vol. I, 96-102.

٣ - المخطوط، ص١٧٤.

٤ - أنظر عن البحرية المصرية في عصر محمد علي: كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص٢٣٦-٢٦٣ ؛ محمد محمود السروجي وأخرون: البحرية المصرية في العصر الحديث، ضمن تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية سنة ١٩٧٤، ص٦١٥-٦٦٧.

من القناطر والجسور، وأثر ذلك في وزيادة الرقعة الزراعية وتعدد المحاصيل على مدار العام[١].

أما المقالة السابعة والأخيرة من هذا المخطوط فقد خصصها الرجبي للدفاع عن النظام الجديد الذي أدخله محمد علي لبناء جيش على النظم الحربية الحديثة، وجعل عنوانه "في الشأن الأكبر والتدبير الباهي الأبهر في ذكر إختراع حضرة أفندينا للعساكر الجهادية وما في ذلك من جليل الحزم وعظيم المزية"، ومن المعروف أن محمد علي عندما فشل في تجربة تجنيد السودانيين في الجيش إتجه إلى تجنيد المصريين، و لم يكن ذلك أمراً هيناً، فلم يكن المصريون منخرطون في الجندية منذ آلاف السنين، فقاوموا ذلك مقاومة شديدة ولجأوا إلى الفرار من التنجيد الأجباري وتشويه أجسامهم بأساليب مختلفة، مثل قطع أصابع القدم أو اليد اليمنى أو فقأ العين اليمنى، بل ولجأت بعض الأمهات إلى تشويه أجساد أطفالهن لحمايتهم من الإنخراط في سلك الجندية مستقبلاً[٢]، ووقف كثير من رجال الدين موقف العداء من إصلاحات محمد علي في هذا المجال، وأصدروا الفتاوى بأن النظام الجديد بدعة، وأن كل بدعة ضلالة[٣]، مما يضفي صبغة شرعية على مقاومة التجنيد ويهدد كل مشروعات محمد علي الإصلاحية التي كان عمادها الجيش، ولجأ محمد علي إلى أسلوب الترهيب والترغيب لحث أبناء مصر على الإنخراط في سلك الجيش[٤]، فأمر بإتخاذ العديد من التدابير لإقناع الناس بشرعية النظام

---

[١] – أنظر عن سياسة محمد علي الزراعية وإصلاحه لنظام الري: هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر.

[٢] – محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص٤٧٥.

[٣] – محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص١٤٩.

[٤] – محمد محمود السروجي: الجيش المصري في القرن التاسع عشر، القاهرة سنة ١٩٦٧، ص٦٠ ؛ عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في عهد محمد علي، القاهرة سنة ١٩٣٩، ص٢٠-٢١.

الجديد، ومنها أنه أمر بقراءة الفاتحة قبل الشروع في أعمال التدريب[١]، ويأتي مخطوط الرجبي هذا في إطار تأييد ذلك النظام الجديد، إذ يشير الرجبي في بداية المقال إلى أن عسكر النظام الجديد رسموا باسم "العساكر الجهادية"، فحبذا الاسم ونعمت الشهرة مشيراً إلى أنهم أعدوا للجهاد في سبيل الله. ويذكر الرجبي في هذا المقال إلى أن الملة المحمدية لها قوانين وشروط ولها أركان معلومة، وأن أحد أركانها الجهاد في الكفار وفي معشر الطغاة من البغاة والفجار ونحو فرق الخوارج الضالين وجميع المفسدين، ثم يورد الرجبي الآيات التي تحث على الجهاد في سبيل الله، والآيات التي نزلت في حق الفاسقين من البغاة والفجار المفسدين، ثم يورد بعد ذلك بعض ما جاء في السنة الشريفة من أحاديث تحض على الجهاد، وأشار إلى تكليف محمد علي لكتخداه محمد بيك لاظ أوغلي للإشراف على النظام الجديد بأسوان، ثم إلى إشراف إبراهيم باشا على العسكر الجهادية بعد ذلك.

ويورد الرجبي خمسة أدلة شرعية على وجوب إتخاذ العساكر الجهادية، مدعمة بآيات من القرآن وأدلة من السنة وغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وينتهي إلى أن إتخاذ العساكر الجهادية أمر شرعي وفريضة أوضح من الشمس، ويرد في خاتمة هذا الفصل على ما أثير في ذلك الوقت من عدم مشروعية توقيع العقاب البدني على الجنود، فيذكر أنه إذا خيف أن يلحق بالعساكر الضرر والخلل إذا أهملوا في شيء مخصوص لو لم يزجروا بسببه ويعزروا من أجله فللحاكم حينئذ تنظيم وترتيب أمور من التعازير، أي من العقاب البدني، وكتابتها متى ترتب على ذلك الصلاح وتوقف عليه طريق النجاح، وله أن ينوع الأقوال في ذلك بما يراه مصلحة وإعانة على ضبطهم وإنسجامهم وتأديباً وزجراً لمن خالف من كبيرهم وصغيرهم[٢].

---

[١] – علي شلبي: المصريون والجندية في القرن التاسع عشر، القاهرة سنة ١٩٨٨، ص٣٧.

[٢] – المخطوط، ص٢١٧.

والواقع أن محمد علي إتخذ من القانون العسكري الفرنسي المعروف بقانون نابليون دستوراً للجيش المصري عرف باسم "سياسة نامة"، وذلك إعتباراً سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م[١].

ويبدو الرجبي في نهاية مؤلفه هذا فقيهاً مستنيراً، فيذكر صراحة أن هناك أموراً وأنواعاً من جزئيات الوقائع غير مصرح بخصوصها في كتب الفروع الشرعية، مثل تأخر جندي بلا عزر، أو إهماله في شيء من لوازم التعليم، أو مخالفته لفريقه في إقامة أو سفر أو حرب أو سلم وغير ذلك، وأنه إذا أهمل ذلك إنتشر الخلل وعم الفشل، ويرى الرجبي أن للأمير أن يوقع عليهم من التعازير أي من العقاب البدني لكل ذنب نوعاً خاصاً من العقاب. ويبدو أن الرجبي قد حضر أحد التمرينات العسكرية فسجل ذلك في نهاية هذه المقالة، كما تحدث أيضاً عن نظام تغذية الجنود وعلاجهم.

---

[١] - محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص١٤-١٧، ١٨٣، ١٨٤ ؛ عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص٥٩-٦٢ ؛ علي شلبي: التجنيد والجندية، ص١٨، ٢٢-٤٠.

تاريخ الوزير محمد على باشا

(ص٤)بسم الله الرحمن الرحيم[١] وبه ثقتي[٢]

سبحانك اللهم مبدع العجايب، ومنشئ الغرايب باصناف الرغايب، تعاليت متقناً صنع مسخرات أمرك، ومبرزاً بقدرتك ما اردته حتى انقادت الآثار لعليّ قهرك، وتقدست بجمالك متعززاً بجلالك، وتفردت بإسداء كل جميل أنبأ عن مظاهر كمالك، فتجلت وحدتك على منصة صفحات وجود العالمين، وبهَرَتْ براهينُها الباب العارِفينَ من مُقَرْبي دين الملأين، فعرفك بالربوبية كل من (ص٥) فاز، وسلك بعنايتك الى سبيل النجاة أشرف مجتاز، فلك الحمد على هذه النعم التي ألحقت العاجز بالحازم، ورقت بقدم الألمعيّ الخاضع فوق عنق الغبيّ المتعاظم، وصلاة وسلاماً على أشرف مبعوث بالدين والعدل، وأكرم مختار حففته بالكمال والفضل، سيدنا محمد المحمود خلقه العظيم، المذكور بالحسنى على لسان كل نبي كريم، وعلى آله وأصحابه، وأتباعه وأحبابه، صلاة وسلاماً دايمين متلازمين متواصلين واصلين الى يوم الدين.

---

[١] – وجد في نسخة [دار الكتب] في بداية الصفحة فوق هذا السطر بسملتين باللون الأحمر داخل إطار مستطيل.

[٢] – هذه العبارة غير موجودة في نسخة [دار الكتب].

أما بعد فقد خاطبني شيخ الاسلام قدوة الأنام الحبر الهمام السيد الامام، مولانا وسيدنا شيخ الطايفة، أفاض الله على حضرته من الكمال لَطَايِفَهْ، مولانا الشيخ محمد العروسي[1] أدام الله بقاه أمين، حيث قال لي من اللازم الجازم، اللاحق بالذكي الحازم، تصنيف كتاب لطيف، وتلخيص مجموع شريف (ص٦) يتضمن أخبار حضرة الصدر العلي، ذي العز والفخر الجلي، سيد وزراء الأقطار، والمشرّف على جميع أولي الوقار، صاحب الهمم الكسروية، والأخلاق الجميلة البهية، وزيرنا المشار اليه بالبنان واللسان، المحمود صنعه لدى كل إنسان، بادئ النتايج ومظهر المراحم، المشهورة هممه في المنح كما انه المؤيد في الملاحم، مهلبيّ الصنع أحْنفيّ الأخلاق، اياسيّ الروية عُمرَيّ الارفاق، صَاحب القدر العلي، حضرة سيدنا الوزير محمد علي، وأن يكون ذلك الكتاب مخبراً عن بعض آثاره، مظهراً ما له من مظهر الهمم ورفعة مناره، وذلك على طريقة الإجمال، لأن تفصيل ذلك يعجز عنه فحول الرجال، فقلت له أي سيدي أريد الكشف عن ذلك المصنف، والإفصاح عمن يلخص هذا إذ يؤلف، فقال أنت أنت المخاطب بهذه المطالب، وأنا الآمر لك بهذا الصنيع والمُطالب، فقلت سمعاً للأمر (ص٧) المطاع، وابّهاجاً بمرقوم تبهر نفاسته لطايف

---

[1] – **الشيخ محمد العروسي**: هو شمس الدين محمد بن أحمد العروسي، نسبة إلى منية عروس من قرى مركز أشمون حريس بالمنوفية، تعين للتدريس بالأزهر بعد موت أبيه في ٢١ شعبان سنة ١٢٠٨هـ/٢٤ مارس ١٧٩٤م، وأرسله محمد علي مع بعض المشايخ في ذي الحجة سنة ١٢٢٢هـ/ مارس ١٨٠٧م للسعي في الصلح بينه وبين أمراء المماليك في الصعيد، وإمتنع عن مشيخة الأزهر عقب وفاة الشيخ الشرقاوي في ٢ شوال سنة ١٢٢٧هـ/٩ أكتوبر ١٨١٢م، ثم تولى مشيخة الأزهر مثل أبيه أيضاً بعد وفاة الشيخ محمد الشنواني في ٢٤ محرم سنة ١٢٣٣هـ/٤ ديسمبر ١٨١٧م حتى توفي في ٩ صفر سنة ١٢٤٥هـ/١٠ أغسطس ١٨٢٩م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص٢٥٤، ج٤، ص٢٣، ١٦٤، ٢٩٤ ؛ علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة وبلادها القديمة والشهيرة، عشرين جزء، بولاق سنة ١٣٠٦هـ، ج١٦، ص٧٠-٧١، أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٤٩ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٦٢٥، ٦٢٧، ٦٢٩-٦٣٢.

الطباع، حيث تضمن أخبار فريد الوقت علاءً وسؤدداً، وواحده اشتمالاً على العز أبداً، الصدر الذي جمع البأس والندى، وطلع على الأقطار بدر هدى، الجليل الذي تنتضيه حساماً، واللطيف، الذي تجتليه بساماً، ذو فكرة خلصت خلوص التبر، ونفس منزهة، عن الخيلاء والكبر، فهو الذي تحتاجه الدول إحتياج الرياض للنسيم، وتفتقر اليه افتقار المصراع الى القسيم، له همم تقاصر عن بعضها سابور، وشهامة عجز عن اظهارها ابن ذي يزن وتيمور، مع عزّ تنوسي عنده أنوشروان ذو الإيوان، وقوة عزم خجل منها بهرام وأنى يصل الشهاب الى رتبة البَهرَمان، متى أقدم أحجم عنترة العبسي، وان إفتخر أقصر عرابة الأوسي، كيف لا وقد قرت عيون الأنام بما حاطهم به من ظلال الأمان، وحفهم بسرور الطمأنينة (ص٨) في الأوطان بكل مكان، ثغور بره بواسم، وجميع أوقاته مواسم، لم تزل حضرته مطمحاً للهمم، ومسرحاً لآمال الأمم، تسفح في ناديه ديم الكرم، ويفصح عن آياديه لسانا السيف والقلم، نافذ الكلمة حيثما قالها، أعظم حافظ للممالك وأوقى لها، وما هو في أرباب الصدارة الأنير فلكها، ولا شخصه بينهم الا كدايرة دولة حافة بملكها، أبقاه الله علماً للمسرات، ومنبعاً للمراحم والمبرات، وأدامه مغبوطاً ومحسوداً، وأمده بالعناية مشكوراً ومحموداً، آمين.

عن معانيه في معاليه حدث، موجزاً مطنباً بقول صريح تره حايزاً بلطف السجايا، من فنون الثناء كل صحيح، وقد عنّ لي أن أذكر اسمي عقب نعوته الجليلة، عسى أن يكون لتأكيد العطف منه ألطف وسيلة، ويحف هذا الكتاب اللطيف إقباله بالقبول، إذ هو مصنف لجمع نفائس أخباره يصقل مرآة العقول، (ص٩) وأنا العبد الضعيف المفتقر لربه العلي، خليل ابن أحمد الرجبي الشافعي الشاذلي، وقد جعلت هذا **الكتاب** مضبوطاً بمقدمة، وسبع مقالات وخاتمة، **المقدمة** في كيفية مصر وما كانت عليه قبل الفرنسيس، وفي ذكر حكامها وشأنهم بها وأيهم كان هو الريس،

المقالة الأولى في ذكر بعض أخلاق الصدر العلي ذي العز والمجد والفضل الجلـي، حضرة سيدنا العزيز الوزير محمد علي، **المقالة الثانية** في اخراجه للمفسدين وإزالة شوكة الضالين، وإخماد جموع الفاسقين من الأمـراء والفلاحين، والأعـراب أجمعين، **المقالة الثالثة** في ذكر تعميره لقطر مصر وإحيـاء أرضـه وبـلاده بـالزرع والثمـار، **المقالة الرابعة** في ذكر بعض آثـاره مـن الأبنيـة والعمـارات بمدينـة مصـر وبلادهـا وقراها، **المقالة الخامسة** في ذكرإحياء دولة الكتبة المسلمين[1] **المقالة السادسة** في ذكر بعض أحوال تنبئ عن عظيم همته، وكبـير قوتـه، مـن إنشـاء مراكـب بحريـة، وآلات حربية، ومـا أنشـأه وإخترعـه مـن الـترع (ص١٠) والأنهـار، والبـلاد والديـار والأقطار، **المقالة السابعة** في المهم الأكبر، والتدبير الأزهر الأشهر، وهـو إختراعـه للعساكر الجهادية [وما في ذلك من جليل الحزم وعظيم المزيـة وعليـه سـبحانه وتعـالى توكلي في المبدأ والختام، فإنه لا حول ولا قوة إلا بـه، فمنـه الإعانـة وعلـي التمـام، لا رب غيره ولا خير إلا خيره، وهو حسبي ونعم الوكيل][2].

مقدمة

قد أطبق جمهور العالم، وأجمع خواص العقلاء من لدن آدم، من أربـاب الشـرائع والدين، والحكماء أجمعين، إلهيّين وإشراقيّين ومشائين، وكل من بـدا لـه ذرة

---

[1] – مكتوب في نسخة [دار الكتب] فوق هذه الكلمة بخط أصغر كلمة "المؤمنين".

[2] – ما بـين الحـاصرتين مكتـوب في نسـخة [سـوهاج] فقـط، والمكتـوب في نسـخة [دار الكتـب] "**الخاتمة** في ذكر جواب سؤال عن القوانين المرسومة لهم هل ذلك مطابق للشرع أم لا[؟]، ومـا في ذلك من جليل الحزم وعظيم المزية، وعليه سبحانه وتعالى توكلي في المبدء والختام، فإنه لا حـول ولا قوة إلا به فمنه الإعانة على التمام، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره، وهو حسبي ونعم الوكيل".

نورٌ[1] من هذا الجزء الإختياري في العالمين، على أنّ صلاح الدين والدنيا، ومدار درك الشرف والعليا، لا يدرك وجدانه، ولا يظهر عنوانه إلا بوجود العدل وظهوره، وكمال إشراق شمس نوره، وأن هذا لا يلوح لبصير، ولا يدرك لخبير، ولا يبدو قوام شعاره، ولا يستبين ضوء نهاره، إلا من ذي مظهر متين، قويّ مطاع أمين، يتحتم أن يكون (ص١١) ذا همة عليه، وشجاعة عَلِوَيه، ورآسة عباسية، ومعرفة قرشية، وفراسة إياسية، وفكرة فارسية كسرويّة، وأخلاق لطف أحنفية، فصاحب هذه الأوصاف لا يكون منه إلا الخير، ولا يمكث في زمنه شيء من شؤن الضيم والضير، ولا سيما إذا كانت بطانته على شكله وكيفيته، وتخلقت بمحاسن رسومه وصورته، فإن الأمر يكمل تمامه، ويصح نظامه، ومن المعلوم عند الخاص والعام في جميع الأزمنة والأعوام، وإشتهر في سائر الأقطار، وظهر ظهور الشمس رابعة النهار، أن مصر كنانة الله في أرضه كما جاء الأثر بذلك، وعرف عند كل العالم لطف قطرها وما تشعب منه من تلك المسالك، فهي على الحقيقة محط رحال الظرف، ومركز دايرة الأنس واللطف، وشهرة قدرها تُغني عن الذكر، ومشاهدة مروجها أعظم موجب لسرور الفكر، و لله القائل[2]

وطني مصر وفيها وطري ولعيني مشتهاها مشتهاها
(ص١٢)ولنفسي غيرهًا أن سكنت يا خليليَّ سلاها ما سلاَها

وقال الآخر

إن مصرا لجنة الأرض طرا قول حق وليسَ فيه إلتباس
وإذا قستم عليها[3] سواها كان بيني وبينك المقياس

---

[1] - مكتوب في نسخة [دار الكتب]في هامش الصفحة "ذرّة منح".

[2] - مكتوب في نسخة [دار الكتب] بخط مخالف لخط المخطوط كلمة "ابن الفارض".

[3] - مكتوب في نسخة [دار الكتب] مكتوب "قستها بشيء".

وقد ملئت الكتب بفضَائلها، وذكر ما إحتوت عليه من جمائلها وحمائلها، وحسن مآثرها وشمائلها وذكر نيلها المبارك، وما له وفيه من الخير المتدارك، وذكر ملوكها وأمرائها سالفاً ولاحقاً زمن الجاهلية والاسلام، بما لا يخفى على الخاص والعام، ومن كان بها من أساطين العلما، وجهابذة الحكما، حسبما بين وسطر في كتب الأخبار، وبالجملة فليس تحت قبة الخضرا، ولا على ظاهر وجه الغبرا، قطر يضاهيها، ولا بلد يباهيها، يعرف ذلك كل منصف محقق، ومتبع للحق ومدقق، ولازالت على هذه الصور الجليلة، والأحوال المستقيمة الجميلة، مصونة محفوظة، وبعين الإعتبار والهيبة ملحوظة، بسبب عظم أمرائها، وإنتظام أمور علمائها، (ص١٣) واستقامة رعاياها، حتى أراد الله وملكتها طوايف الغُزّ المتأخرين، وبقايا ذلك السلف من المتنّطعين، فكانت اذ ذاك دولتين مرادية وإبراهيمية، فإشتغلوا بالظلم والفجور، وتشاغلوا بالرفاهية عن عواقب تلك الأمور، فاضطربت الأحوال، وتوالت الأثقال، وتضاربت الأفعال، وانتقضت الرسوم الأول، وبطل نظام قانون الدول، فكان إبراهيم بيك الكبير[١] شيخ البلد[٢]، يعني أنه أكبر الأمراء وأجل الحكام لإنه كالوكيل عن الدولة

[١] - **إبراهيم بيك الكبير:** مملوك محمد بيك أبو الذهب، ذو تاريخ حافل في مصر العثمانية، أصبح أميراً سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨-١٧٦٩م لما يقرب من ٤٨ سنة، عين أمير حاج سنة ١١٨٦هـ/ ١٧٧٣م، ثم عين دفترداراً سنة ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م، ثم تولى بعد ذلك مناصب عدة بعد موت أستاذه سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م: شيخ البلد، وقائمقام مصر نحو عشرة مرات، وقد أدت المشاحنات التي نشبت بينه وبين مراد بيك إلى قدوم حسن باشا القبطان بجيش في رمضان سنة ١٢٠٠هـ/ أغسطس ١٧٨٦م، فتشفع عند الباشا ليتوسط لهم عند حسن باشا وأرسلوا وفداً إلى حسن باشا قابله في رشيد ولكنهم لم يثنوه عن عزمه في القضاء على إبراهيم بيك ومراد بيك، وتودد إبراهيم بيك للمشايخ حتى يضمن ولاء أفراد الشعب، وكان غير راغب في خروج مراد بيك لمقاتلة حسن باشا، وكان رأيه الإنتظار إلى حين وصول حسن باشا إلى القاهرة فيخلوها إن لم يقدروا على صده أو الصلح معه ويعودوا مرة أخرى بعد خروجه من مصر، وعند علمه بهزيمة مراد بيك أراد أن يستولي على قلعة القاهرة ولكنه لم يتمكن من ذلك، فخرج من القاهرة إلى الصعيد، وبعد عدة

معارك مع قوات حسن باشا صدر في ذي الحجة سنة ١٢٠١هـ/سبتمبر ١٧٨٧م مرسوم بالعفو عنه على أن يقيم بقنا. وقد سيطر إبراهيم بيك وخشداشه مراد بيك على مجريات الأمور في مصر حتى قدوم الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م، ومقاومته لها مع مراد بيك، ولجأ إلى الشام مع الباشا العثماني، ولجأ مراد بيك إلى الصعيد، ثم رجع إلى مصر مع الجيش العثماني في رجب سنة ١٢١٤هـ/ديسمبر ١٧٩٩م وهزم في موقعة عين شمس على يد الجنرال كليبر، ثم عاد مرة أخرى في سنة ١٢١٥هـ/١٨٠١م مع الجيش العثماني الإنجليزي لطرد الحملة الفرنسية. وفي فترة الفوضى التي أعقبت إنسحاب الحملة الفرنسية سنة ١٢١٥هـ/١٨٠١م -وهي نفس السنة التي توفى فيها مراد بيك بالطاعون- بدأت الصراعات بين أمراء المماليك بينهم وبين بعضهم البعض، وبينهم وبين الدولة العثمانية التي أرادت التخلص منهم أو إخراجهم من مصر إلى ولايات عثمانية أخرى، فخرج مع باقي الأمراء إلى الصعيد في ٢٠ رمضان سنة ١٢١٦هـ/٢٤ يناير ١٨٠٢م، وإتصل بالإنجليز لحل تلك الأزمة، كما إتصل بالفرنسيين عن طريق يعقوب القبطي الذي غادر مصر إلى فرنسا عند خروج الحملة الفرنسية من مصر، ثم تحالف مع محمد علي باشا لمقاومة القوات العثمانية، حيث عاد أمراء المماليك وتولى إبراهيم بيك قائمقام بعد مقتل طاهر باشا في صفر سنة ١٢١٨هـ/يونيو ١٨٠٣م -ولكن هذا التحالف كان يشوبه عدم الثقة بين الطرفين مما أدى إلى فشله- وإتصل بالفرنسيين لمساندته، كما تدخل الإنجليز وحصل على عفو من الباب العالي وعين رسمياً شيخاً للبلد في منتصف جماد آخر ١٢١٨هـ/٢ أكتوبر ١٨٠٣م، وخرج من القاهرة إلى الصعيد في ذي القعدة ١٢١٨هـ/فبراير ١٨٠٤م عند فتنة مطالبة العساكر بعلوفتهم التي دبرها محمد علي، وتولى خورشيد باشا على مصر ثم تولى محمد علي باشا على مصر، وإنتهى الأمر بهروب إبراهيم بيك وما تبقى من أمراء المماليك من المعارك مع محمد علي ومذبحة المماليك سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م إلى دنقلة بالسودان، حيث توفى هناك في أواخر سنة ١٢٣١هـ/١٨١٥م تقريباً، فقد وصلت الأخبار بوفاته في ١ ربيع أول سنة ١٢٣١هـ/٣١ يناير ١٨١٦م، وقد أعيد جثمانه إلى القاهرة حيث إستأذنت زوجته في إحضار جثته لتدفن في مصر، فجاءت في منتصف رمضان ١٢٣٢هـ/أول أغسطس ١٨١٧م ودفن بجوار ابنه مرزوق بيك بالقرافة الصغرى. أنظر: الرشيدي، الشيخ أحمد ت سنة ١١٧٨هـ/١٧٦٤م: حُسن الصفا والإبتهاج بذكر من ولى إمارة الحاج، تحقيق ليلى عبد اللطيف أحمد، القاهرة سنة ١٩٨٠م، ص٢٢١ ؛ الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، ت ١٢٤٩هـ/١٨٢٤-١٨٢٥م: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق حسن محمد جوهر

وعمر الدسوقي، القاهرة سنة ١٩٦٩، ص٢٥-٤٧، ٣٣٣ ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٣٣٥، ٤١٣، ٤١٣، ٤١٧، ج٢، ص٢، ٩، ١٠، ١١، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٥٩، ٧٣، ٧٤، ٧٩-٨٠، ٩٢-٩٣، ١٠٥، ١٠٧-١١٥، ١١٧، ١٢٠، ١٤٦، ١٥٥-١٥٦، ١٦٢، ١٦٣-١٦٤، ١٩١، ١٩٣، ١٩٥، ٢٢٦، ٢٣٩، ٢٥٨، ٢٦٧، ٢٨٢، ٢٨٥، ج٣، ص٣، ٦، ٧، ٨-١٠، ٨٢-٩٥، ١٦٧، ١٧٦-١٨٦، ج٤، ص٢٤٧، ٢٤٩، ٢٦٣-٢٦٤، ٢٧٩ ؛ نيقولا الترك:.مذكرات، ترجمة جاستون فييت، حوليات مصر (١٧٩٨-١٨٠٤)، القاهرة، سنة ١٩٥٠، ص١٢٩، ١٣٢-١٣٣، ١٣٥، ١٣٩، ١٥٧، ١٥٨، ١٨٤-١٨٧، ١٨٨-١٨٩ ؛ كلوت بك: لمحة، ج١، ص٥٧ ؛ محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، القاهرة د.ت، ص٣٥-٤٢، ١٣٢-١٤٠ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٥٣-٥٤، ٦٠-٦١، ٦٥، ١١٣-١١٤، ١٣١، ١٣٥، ١٣٦، ١٥٤-١٥٥، ١٦٧، ١٧٦، ١٨٩-٢٤٥، ج٣، ص١٣٢٩، ١٣٣١.

[٢] – **شيخ البلد:** إنتزع المماليك السيطرة على الإدارة في مصر العثمانية من أيدي الموظفين العثمانيين والحامية العثمانية منذ بداية القرن الثامن عشر، حيث كانت الرئاسة (الإدارة) لكتخدا الإنكشارية، ثم أصبحت للبيك أو البكوات ذوي النفوذ في القاهرة، وأطلق على حاكم القاهرة من المماليك ألقاب عديدة، ثم أصبح مصطلح "شيخ البلد" هو اللقب الشائع منذ سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠م تقريباً، وأصبحت المصادر تشير إلى ذلك بقولهم "وألت الرئاسة إلى .."، وأطلق على قائد المماليك ألقاب عدة، مثل "عزيز مصر"، "كبير القوم"، "الرئيس". أنظر: أحمد شلبي بن عبد الغني، ت ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م: أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة ١٩٧٨، ص٣-٢٠ ؛ عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦-١٧٩٨م، دمشق سنة ١٩٦٨، ص٢٣٩-٢٩٥، ٣٩٦-٤١٧ ؛

Peter Holt, “The Pattern of Egyptian Political History from 1517-1798.” in P.M. Holt, ed., Political and Social Change in Modern Egypt, London: Oxford University Press, 1968, 79-90.

العثمانية، ويقوم مقام الوزير الباشا المعين لمصر إذا غاب أو مات أو سافر قبل مجيء غيره[١]، فيركب إبراهيم بيك في طقم الباشا ويجلس في القلعة، وتارة في داره[٢] ويختم التقاسيط السلطانية[٣] و الإفراجات[٤] ونحو ذلك، ويكون نافذ الحكم في مصر

---

[١] - **قائم مقام:** يتولى القائمقام كل سلطات الحاكم في أثناء غيابه أو عزله، وبحلول القرن الثامن عشر أصبح عزل الحاكم وتعيين أحد المماليك **قائمقاماً** حيلة جاهزة يكسب بها المماليك سيطرتهم شكلاً شرعياً، كما كان الملتزمون أيضاً يعينون أشخاصاً في وظيفة "قائمقام" يمثلونهم في إلتزامهم. أنظر عن مصطلح "قائمقام":

Encyclopaedia of Islam; and Stanford J. Shaw, The Financial and Admi_ nistrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798, Princeton: Princeton University Press, 1962, 53, 56-57, 135.

[٢] - **دار إبراهيم بيك:**.كانت هذه الدار بمنطقة بركة الفيل، ودخلت مع سراي ابنه مرزوق بيك التي كانت تجاورها في سراي الحلمية التي بناها عباس حلمي بن طوسون بن محمد علي سنة ١٢٦٧هـ/١٨٥١م الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص١٠ ؛ عبد الحميد بيك نافع: ذيل المقريزي مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر، رقم ٦٧٠٣، ورقة ٥٢، ٥٩، ٦٠ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١، ص٨٤، ج٢، ص٣٨-٤٣، ١٢٦، ج٤، ص٦٠.

[٣] - **التقاسيط السلطانية:** هى ضريبة الأراضي في العصر العثماني، كان يقوم بجمعها وكلاء الملتزمين، إذ بعد دفع مبلغ معين للإدارة يصل في العادة إلى ستة أو سبعة أضعاف دخل الإلتزام الذي يرغب في الحصول عليه، يقوم الملتزم بإستلام صك رسمي موقع عليه من السلطات المختصة يؤكد حقوقه في الإلتزام الذي إشتراه. وهذا الصك الرسمي أو الوثيقة كانت تسمى "تقسيط ديواني" عبارة عن قطعة من الورق قياسها ٣٤×٢٢,٥ سم تقريباً، مكتوبة بخط السياقت، ويدون بها الإسم وحجم وموقع الإلتزام والضرائب المقررة ومواقيت دفعها، وحقوق الملتزم وغير ذلك. أنظر:

Abd al-Wahhab Bakr, "Administrative and Judicial Rules Relating to Land and Property in Ottoman Egypt in the Eighteenth Century," Majallat Kulliyat al-Adab, Zagazig University, Vol. II, 1988, 1-20; Shaw, Organization, 53.

[٤] - **الإفراجات:** هى تلك الحجج والسندات التي تعطى لأصحاب حق الإنتفاع بأراضي الرزق كلما حدث تغيير في إستحقاق هذه الرزق بالوراثة أو غيرها، وذلك لإثبات حقهم في إستمرار

وأقطارها، وبالجملة فقد كان هو ألطف من جميعهم، وله أخلاق حسنة وفيه تحمل للعلما وسماع لكلامهم، وكان له من مماليكه صناجق كل واحد منهم يسمى فلان بيك، يعني أنه بِطرّخَيْنِ، وكانت مماليكه وأتباعه على (ص١٤) شكله حالهم منسجم وظلمهم أقل من غيرهم، وكان يناظر إبراهيم بيك مراد بيك[1] خَشْدَاشِيه[2] كلاهما

الإنتفاع بها. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الريف المصري في القرن الثامن عشر، القاهرة سنة ١٩٧٤، ص٢٥٦.

[1] – **مراد بيك**: مملوك محمد بيك أبو الذهب، وخشداش إبراهيم بيك الكبير،إ إشتُراه محمد بيك أبو الذهب في سنة ١١٨٢هـ/١٧٦٨-١٧٦٩م، ثم سرعان ما أعتق وأُمر وأصبح ذو قوة ونفوذ في مشيخة سيده محمد بيك أبو الذهب، وتزوج من فاطمة زوجة صالح بيك الكبير بعد قتله وسكن داره بخط الكبش، ثم تزوج الست نفيسة زوجة علي بيك بعد قتله، وسافر إلى الشام مع محمد بيك أبو الذهب لمحاربة ظاهر عمر، وعقب وفاة أبو الذهب سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥م بعكا تحالف مع إبراهيم بيك للسيطرة على الأمور في مصر كلها، تولى أمرة الحاج سنة ١١٩٣هـ/١٧٧٩م، وترك زمام الأمور لإبراهيم بيك وإنصرف لملزاته متنقلاً بين قصوره بالروضة وجزيرة الذهب وترسا وبستان المجنون والعادلية، مع الإشتراك في مقاسمة الأموال وشئون الحكم، وكان مراد كريماً مع أمرائه وأتباعه فإنضم إليه أمراء علي بيك الكبير وغيرهم ممن مات أسيادهم، وتولى قائمقام في ١٥ ذي الحجة ١١٩٨هـ/٣٠ أكتوبر ١٧٨٤م، وقد أدى عنف مراد بيك ومماليكه وطغيانهم على الأهالي، ومشاحنتهم مع باقي الأمراء المماليك إلى قدوم حملة عثمانية بقيادةحسن باشا القبطان في رمضان ١٢٠٠هـ/يوليو ١٧٨٦م وخرج مراد بيك بجيش ليصد حسن باشا عند فوة، ولكنه إنهزم لإختلاف أمرائه مع بعضهم ولم يستطيعوا الوصول إلى فوة لوعورة الطريق وكثرة المتاريس، فإنسحب حيش مراد بيك، وحاول التحصن عند بولاق، ثم خرج مراد بيك إلى الصعيد مع إبراهيم بيك وأتباعهم، وأرسل خلفهم حسن باشا قوات بحرية تقابلت معهم عند أسيوط ولكنهم لم يتمكنوا من الأمراء، ودارت بين الجانبين عدة معارك عند أسيوط وطهطا، وإنسحب الجيش العثماني إلى القاهرة دون طائل بل وتقدم المماليك إلى بني سويف وأرسلوا في طلب الصلح، فإشترط حسن باشا أن يتولى مراد بيك وإبراهيم بيك مناصب يتعيشون منها في أي بلد غير مصر، وتقدم المماليك إلى الجيزة ثم إنسحبوا وإستقروا جنوباً عند طهطا، ثم توجه إليهم حيش أخر بقيادة

عابدي باشا فوقعت معركة بينهم في ٢٨ ربيع آخر ١٢٠١هـ/١٧ فبراير ١٧٨٧م وردوا المماليك إلى الجنوب، ثم صدر في ذي الحجة/سبتمبر من نفس العام مرسوم بالعفو عنه على أن يقيم بإسنا، ثم زحف شمالاً إلى المنيا وبني سويف وطلبوا إجراء مفاوضات للصلح، وإتفق محمد باشا عزت وعثمان بيك طبل مع المماليك، ورجع مراد بيك إلى القاهرة في أواخر ذي القعدة ١٢٠٥هـ/يوليو ١٧٩١م، فأخذ مسكن إسماعيل بيك بالأزبكية وإستقر بقصره بالجيزة بعد تجديده وتوسيعه، وأنشأ بالجيزة ترسخانة عظيمة جمع بها صناع الآلات الحربية والمدافع، وأنشأ مصنعاً للبارود، وأحضر صناع مراكب وبحارة (قليونجية) أجانب صنعوا له مراكب حربية، أخذها الفرنسيون بعد ذلك، وتقاسم مراد بيك الدواوين مع إبراهيم بيك، وأنشأ ديوان البدعة برشيد خاصاً بالغلال التي تحمل للأجانب، وكان هذا من أسباب مجيء الفرنسيين، وفعل كذلك بالإسكندرية على يد تابعه محمد كريم مما زاد العداوة مع الأجانب وخاصة الفرنسيين، وكان بينه وبين الفرنسيين إتفاقية تجارية منذ عام ١١٩٩هـ/١٧٨٥م للمحافظة على تجارتهم، وكان من أهم أعماله الخيرية تجديد جامع عمر بن العاص في رمضان سنة ١٢١٢هـ/ مارس ١٧٩٨م، ثم جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر، فخرج مراد بيك بمماليكه ومراكبه لمقابلتهم عند رشيد ولكن الفرنسيين تقدموا عن طريق دمنهور ورشيد وتقابلوا معاً وإنهزم مراد وإحترقت مراكبه وآلاته، ورجع مراد إلى مصر حيث هزمه الفرنسيون هو وإبراهيم بيك بالجيزة، ثم لجأ إلى الصعيد ولم يتمكن الفرنسيين من السيطرة عليه، وإنتهى الأمر بمقابلة مراد في قصره بجزيرة الذهب للجنرال كليبر، وعقد إتفاقية صداقة، على أن يكون مراد بيك حاكماً للصعيد نيابة عن الفرنسيين، وأن يسلموه البلاد إذا جلوا عنها. توفى مراد بيك بالطاعون في سوهاج في ٤ ذو الحجة ١٢١٥هـ/ ٧ إبريل ١٨٠١م، حيث دفن بمسجد العارف هناك. وقد صنف معاصره الشيخ إسماعيل الخشاب تاريخاً مختصراً لمراد بيك. وهو خلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد، حققه وترجمه وعلق عليه حمزة عبد العزيز ودانيال كريسيليوس، القاهرة سنة ١٩٩٢م ؛ الرشيدي: حُسن الصفا، ص٢٢٣، ٢٢٤ ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٤١٣، ٤١٤، ج٢، ص٢-١١، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤-٢٥، ٥١، ٥٢، ٥٨، ٥٩، ٦١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٩-٨٣، ٩٢، ١٠٢-١٠٣، ١٠٥، ١٠٧-١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢٠-١٢٢، ١٢٤-١٢٥، ١٣٠-١٣٣، ١٣٦-١٣٩، ١٤٦، ١٥٦-١٥٧، ١٧٢-١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٢، ١٩٢-١٩٥، ٢٢٦، ٢٣٩، ٢٥٧، ٢٥٩، ج٣، ص١٥٦، ١٦٧-١٧١ ؛ نيقولا الترك: مذكرات، ص٣١-٣٣، ٩٢-٩٣، ١٠٠، ١١٥ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج١، ص٥٢ ؛

مملوك محمد بيك الشهير بأبي الذهب[1]، وكان لمراد بيك من مماليكه صناجق[2] [أيضاً وكشاف[3] ومعهم صناجق][4] من مماليك أبي الذهب، ورتبتهم مع رتبة مماليك ابراهيم

شكري: الحملة الفرنسية، ص٧، ٣٥-٤٢، ٢٠٧-٢١١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٧٣-٢٧٨ ؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، جزأن، القاهرة ١٩٤٦م، ج١، ص٢٦، ٣١ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٣٥٩-٣٦٠.

[2] - **خشداشية:** هى العلاقات الوثيقة التي ساعدت على تقوية وشائج البيت المملوكي، تكشف عنها المصطلحات الجديدة التي توضح العلاقات داخل ذلك البيت، حيث يشير المماليك إلى سيدهم بألقاب "المولى" و"السيد" و"الأستاذ"، أو المصطلح المملوكي التقليدي "المقدم"، كما إستخدموا أيضاً مصطلح "الوالد"، كما كان السيد يشير إلى مماليكه الذين إشتراهم كأولاده. وكان مماليك السيد الواحد يشيرون إلى بعضهم البعض بإستخدام المصطلح الفارسي "الخشداش"، أو المصطلح العربي "إخوان". أنظر:

David Ayalon, “Studies in al-Jabarti I, Notes on the Transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans,” Journal of the Economic and Social History of the Orient III (1960), 275-277, 285-288;

أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، القاهرة ١٩٧٩، ص٨٧-٨٨.

[1] - **محمد بيك الشهير بأبي الذهب:** مملوك علي بيك الكبير، إشتراه سنة ١١٧٥هـ/١٧٦١-١٧٦٢م، قلده السنجقية سنة ١١٧٨هـ/١٧٦٤-١٧٦٥م، وسمي أبو الذهب لإنه عند لبسه الخلعة فرق البقشيش ذهباً، قاد جيش سيده في حملات ناجحة على صعيد مصر والحجاز وسوريا ما بين سنة ١١٨٣هـ/١٧٦٩م و ١١٨٥هـ/١٧٧١م. وعندما نفي سيده من مصر إلى فلسطين سنة ١١٨٦هـ/١٧٧٢م تبنى محمد بيك أبو الذهب خطط سيده لبناء دولة للمماليك في مصر متضمنة الحجاز وفلسطين، وإستقرت البلاد بعد إخضاعه للعرب وقطاع الطرق، وعينت الدولة الباشا العثماني لمصر من جديد، بنى مدرسة له أمام الجامع الأزهر -أثر رقم ٩٨- في الفترة من سنة ١١٨٧هـ/١٧٧٣م إلى سنة ١١٨٨هـ/١٧٧٤م على طراز جامع سنان باشا ببولاق -أثر رقم٣٤٩- وألحق بها مكاناً للمتصوفة الأتراك -تكية- وسبيل وحوض لسقي الدواب، وعين بها للتدريس الشيخ أحمد الدردير مفتي المالكية والشيخ عبد الرحمن العريشي مفتي الحنفية والشيخ حسن الكفراوي مفتي الشافعية، والشيخ أحمد الراشدي خطيباً، ومعظم مشايخ الأزهر في ذلك الوقت، وألحق بها مكتبة كبيرة، ورتب بها الطلاب، وأوقف عليها الحوانيت التي بناها أسفلها وغير ذلك

من الأوقاف، غير أن الصرف على تلك المؤسسة توقف بعد وفاته لتوزيع أوقافه بين أتباعه. وتوفي أبو الذهب عقب مرض مفاجيء بالحمى في أثناء حملة فلسطين في ٨ ربيع ثان ١١٨٩هـ/٨ يونيو ١٧٧٢م بعد إستيلائه على يافا وعكا، وأحضر قادته جثته إلى القاهرة في ٢٤ ربيع ثان/٢٤ يونيو ودفن في مدفن أعد له في ذلك اليوم بمدرسته في الإيوان الشرقي. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٣٠٥-٣٠٦، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٣٥-٣٣٦، ٣٥١، ٣٦٤-٣٦٧، ٣٧١، ٣٧٦-٣٧٧، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٥، ٤١٣-٤١٤، ٤١٧-٤٢٠ ؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد، ج١، ص٣٥١-٣٥٦ ؛ دانيال كريسيليوس: جذور مصر الحديثة، ترجمة عبد الوهاب بكر، القاهرة سنة ١٩٨٥م ؛

Daniel Crecelius, "The Waqfiyya of Muhammad Bey Abu al-Dhahab, "Journal of the American Research Center in Egypt XV (1978), 83-105; XVI (1979), 125-146 ; "The Waqf of Muhammad Bey Abu al-Dhahab in Historical Perspective," International Journal of Middle East Studies 23 (February, 1991), 89-102.

[٢] - صناجق: هي جمع صنجق، وهو قائد منطقة عسكرية عثمانية، كان يطلق عليه لقب "صنجق بيك" للصنجق (العلم) الذي كان يحمله معه لتعيين مرتبته، وفي مصر كان قواد مثل تلك المناطق يطلق عليهم ببساطة "صناجق" أو ما يوازيها في اللغة العربية "أمير اللواء الشريف السلطاني". وعلى عكس الأقاليم العثمانية الأخرى لم تقسم مصر إلى صناجق أو ألوية، وكان مصطلح "صنجق" أو "لواء" في مصر العثمانية يعني فقط رتبة عسكرية، وعقب فتح مصر سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م على يد سليم الأول (٩١٨-٩٢٧هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) إتخذ ٢٤ صنجق بيك لمساعدة الحاكم. وقد كان واحداً وعشرين من هؤلاء البكوات الصناجق يشغلون مناصب مثل "الدفتردار" و"أمير الحاج" و"أمير الصرة" ..إلخ، ولهم الحق أن تدق لهم الطبول في مواكبهم، ولذلك السبب عرفوا أيضاً كصناجق طبلخاناة، وبحلول القرن ١١هـ/١٧م أصبح أمراء المماليك في مصر يعينون في مرتبة "صنجق بيك"، وآل الأمر إلى خروج العثمانيين أنفسهم من تلك الرتبة، وإنتهى الأمر إلى أن أصبحت الصنجقية مركزاً للقوة العسكرية في مصر، وأصبح لبكوات المماليك السيطرة والهيمنة على الإدارة العثمانية والمؤسسة العسكرية. أنظر: حسين أفندي الروزنامجي: ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية، تحقيق محمد شفيق غربال، بعنوان "مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨-١٨٠٠م"، حوليات كلية الآداب، جامعة فؤاد (القاهرة)، مجلد ٤ جزء ١، سنة ١٩٣٦م، ص١٤ ؛

بيك ومراد بيك وبعضهم تابع لهذا والآخر تـابع لهـذا، وكـانوا جميعـاً علـى غايـة مـن الرفاهية والنظام في المأكل والمشرب والملبس إلا أنهم كالبهايم سوا بسوا، وكـان كـل واحد منهم لا ينقاد لإحد أبـداً بحيـث أن أتبـاع إبراهيـم بيـك يخالفونـه في كثـير مـن أحكامه ويعارضونه في ذلك، وكذلك أتباع مراد بيك[٤] ولكن شأن أتباع إبراهيم بيـك في المخالفة أقل من غيرهم، وكانت مصر في ذلك الوقت كالمرأة الجميلـة الحسـنا الـتي لها أزواج لا يحصون كثرة، وكانت كل حارة وسوق في حكم الذي كان يسكن فيه، فكل من كان ساكناً في خط من خطط مصر فهو حاكم ذلك المحـل، بحيـث لا يقـدر المحتسب[١] يحكم فيه (ص١٥) ولا يتكلم على من يبيع الخبز ولا الزيـت ولا اللحـم ولا

Stanford J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Cambridge: Harvard University Press, 1966, 82; P.M. Holt, "The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century," Bulletin of the School of Oriental and African Studies XXIV (1961), 219-225;

وأنظر أيضاً: عبد الرحيم عبد الرحمن: الإدارة في البـلاد العربيـة في العصـر العثمـاني، بحلـة الـدارة، العدد الأول – السنة التاسعة، الرياض سنة ١٩٨٣، ص١٠٩-١١٠.

[٣] – **كشاف:** مفردها "كاشف"، وتجمع "كُشاف"، أمير مملوكي ذو رتبة أقل مباشرة مـن "صنجـق بيك"، وقد كان هؤلاء المماليك حكاماً للأقاليم الصغيرة ومديرين للعديد من القرى في مصـر، الـتي كانت تمنح للحكام كقرى خاصة بهم. أنظر:

Shaw, Organization, 3, 32, 60 ; French Revolution, 78-79.

[٤] – ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [دار الكتب] في هامش الصفحة الأيمن.

[١] – **المحتسب:**.يرجع نظام الحسبة إلى العصور الإسلامية المبكرة، وقد إستمر هـذا النظـام في مصـر طوال العصر العثماني، وكان يطلق على القائم بتلـك الوظيفـة "المحتسـب" أو "أمـين الإحتسـاب"، وكـان المحتسـب يقـوم بجـولات في أسـواق القـاهرة لمراقبـة الأوزان والمقـاييس والأسـعار، وضبـط المخالفين للأسعار التي يحددها سلفاً، كما كان يقوم أيضاً بضبـط المخـالفين لـلآداب العامـة، ومـن سلطاته توقيع عقوبات بدنية أو ماليـة أو غلـق الحوانيـت المخالفـة ومصـادرة البضـائع، كمـا كـان المحتسب أيضاً يتولى إلتزام مقاطعة جمرك الإحتساب في القاهرة ويسدد عنهـا ضريبـة خـراج لخزينـة الدولة ويحتفظ بباقي الإيرادات التي يحصلها لنفسه، كما كان المحتسب يقوم بفرض مبالغ سـنوية أو

الخضار أصلاً ولا يتمكن أحد من أطرافه أن يسئل أحداً من أوليك الناس بل كان أمرهم في الحكم والبلص والظلم لذلك الأمير وأتباعه، وكذلك كان أغاة الينكشارية[1] والوالي سوباشا[2] لا يتكلمون على تلك الخطط ولا يدخلونها إلا مروراً، وكان لهم

شهرية أو يومية على أرباب الحرف والباعة والزياتون والجزارون والخضرية والخبازون ونحوهم، وفي سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م رُفعت عنهم تلك المبالغ التي كانت تُودى للمحتسب وعوض عنها بخمسة أكياس كان يستوفيها في كل شهر من الخزينة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٦٩ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٢، ص٢٥، ٢٦ ؛ ليلى عبد اللطيف أحمد: الإدارة في مصر في العصر العثماني، القاهرة سنة ١٩٧٨م، ص٢٣٥-٢٣٨.

[1] - **أغا الانكشارية:** هو قائد تلك الفرقة وصاحب الصدارة على قواد بقية الفرق، وهو قائد جيش مصر ورئيس قوات حفظ الأمن في القاهرة وضواحيها، وفي القرن ١٢هـ/١٨م انتقلت السلطة الحقيقية في أوجاق الانكشارية الى يد الكتخدا، وظل الأغا يحتفظ بسلطات البوليس الهامة التي كانت من اختصاصه من أوائل العصر العثماني، ولكنه كان يفوض تلك المسئولية إلى الوالي أو الصوباشي، وكانت الادارة العثمانية تمنح أغا الانكشارية نوعاً من التفويض العام بالسلطة في وقت الأزمات مما أدى الى اتساع سلطته اتساعاً كبيراً. أنظر:

Shaw, Organization, numerous references ;

وأنظر أيضاً: ليلى عبد اللطيف: الادارة، ص٣٠١ ؛ أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ١٩٧٤م، ص٣١-٣٤.

[2] - **سوباشا:** هو رئيس شرطة القاهرة، كان يطلق عليه في ذلك العصر "والي" و"صوباشي"، أو "زعيم مصر"، أما الرئاسة العامة لشرطة القاهرة فقد كان يتولها أغا الإنكشارية الذي كان يقوم بجولات مستمرة في شوارع القاهرة في كوكبة من جنوده للمحافظة على الأمن والنظام العام، بالإضافة إلى العديد من النشاط التي كانت موزعة في سائر أنحاء المدينة وتعرف بالقلقات، ويرأس كل قلق منها ضابط برتبة "بلوك باشي" ويخدم بها جنود يعرفون بالنوباتجية. وفي زمن الحملة الفرنسية قسمت القاهرة إلى ثمانية أثمان لسهولة الضبط والربط بها، وكان في الأثمان المذكورة ثمانية وأربعون قره قولاً (قلق) لإقامة العسكر المحافظين بها. وقد ظل قسم الشرطة حتى وقت قريب يعرف بأسم الثمن. علي مبارك: الخطط، ج١، ص٨٦ ؛ وأنظر أيضاً:

Shaw, Organization, numerous references ;

الشارع السلطاني[١] وما شابهه من بقية الشوارع الكبار[٢] يحكمون فقط، وكذلك أطراف حارات مصر التي يسكنها بحسب عادتهم الفقرا والخدم وأهل صناعة السقاية والجزارة ونحو ذلك من الصنايع النازلة، فكانوا يحكمون بها وحكمهم كان على الضعفا من الناس والفقرا والرعاع، وأما الأقويا فلا حكم عليهم، وكان لكل أمير

وأنظر أيضاً: ليلى عبد اللطيف: الإدارة، ص٢٣٨.

[١] - **الشارع السلطاني**: هو الشارع الرئيسي لمدينة القاهرة الذي تسير به مواكب السلاطين في العصر المملوكي والباشاوات في العصر العثماني، وهو الشارع الممتد من باب النصر (أثر رقم ٧) فيساراً عند وكالة ذو الفقار بيك (أثر رقم ١٩).ومدرسة جمال الدين الأستادار (أثر رقم ٣٥)، فشارع التنبكشية إلى سبيل عبد الرحمن كتخدا (أثر رقم ٢١)، فشارع المعز لدين الله الفاطمي حتى باب زويلة (أثر رقم ٣٠٧)، فيساراً إلى شارع الدرب الأحمر، وعند تقاطع شارع التبانة مع شارع سويقة العزي -سوق السلاح الحالي- كان السلاطين يسيرون إلى القلعة عن طريق شارع التبانة فشارع المحجر أحياناً، أو بشارع سويقة العزي فسوق السلاح فميدان القلعة فشارع المحجر فالقلعة أحياناً أخرى، كما كان يطلق نفس الأسم على شارع الصليبة لمرور السلطان به قاصداً مقياس النيل والجيزة، وشارع أمير الجيوش بباب الشعرية لمرور السلاطين منه عند عودتهم من شمال القاهرة. وكان يطلق أيضاً على الشارع الأعظم أو قصبة القاهرة، التي حددها المقريزي في الجزء الممتد من باب زويلة جنوباً إلى باب الفتوح شمالاً، كما إمتدت هذه القصبة منذ العصر الفاطمي حتى المشهد النفيسي، لتربط القاهرة بالفسطاط. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م: المواعظ والاعتبار بذكر لخطط والآثار، المعروف بالخطط، جزءان، بولاق سنة ١٨٥٤م، ج١، ص٣٧٤-٣٧٨ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: بعض الملاحظات على العلاقة بين مرور المواكب ووضع المباني الآثارية في شوارع القاهرة، حوليات إسلامية، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مج ٢٥، سنة ١٩٩٠م، ص٣-١٠.

[٢] - **الشوارع الكبار**: هى الشوارع التي تستعمل للدخول والخروج من المدينة، وقد عدد الجبرتي الطرق والأبواب التي يُدخل منها إلى القاهرة، مثل باب الحديد وباب النصر وباب الفتوح وباب الشعرية وباب العدوي وطرق الأزبكية وباب القرافة والبرقية وطرق مصر القديمة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٦٦.

حمايات[1] في البر والبحر والسواحل بمصر وبكل البلاد، فكل بلد من البلاد الكبيرة والمدن في حكم أمير والأحوال كلها مختلفة، فلا يقدر هذا الأمير أن يكلم من في حماية ذلك الأمير، والآخر هكذا والباقي كذلك على هذا الشكل، فإضطرب الأمر من تخالف (ص١٦) الكلمة في الحكم، وظهر الفساد حتى ملأ البر والبحر، وإمتلأت الأقطار بالظلم والجور، فذهب الأمن وصارت الطرق مخيفة حتى صار النهب والقتل وأخذ الأموال في ساير الطرق[2]، وكانت الفلاحون والعرب مشاركين في ذلك للأمرا بمصر كل أمير له أصحاب وأتباع وأصحاب من الفلاحين، وأصحاب ورفقا كذلك من العرب، فكانت السفار جميعهم من التجار وغيرهم لا يقدرون على السفر في البر ولا في البحر إلا بالغفر وبذل الأموال للفلاحين والعرب، ولا يتأتى السير في البحر إلا مع غاية التحصن والسلاح في الليل والنهار، وكانت المراكب غير مأمونة إلا نحو عشرين مركباً من الرواحل الكبار فهم الذين كانوا يأخذون بضايع التجار وأموالهم من مصر إلى رشيد ومن رشيد إلى مصر، وكان في كل مركب منهم مدفع ومدفعان، ونحو إثنى عشر أو خمسة عشر مكحلة من مكاحل البارود، وكان لريس المركب شهامة وطايفته معلومون، فإذا مروا على جهة مخوفة يسيرون في البر الذي تجاهها،

---

١ - **حمايات**:.مصطلح "مال حماية" هى ضريبة الحماية التي كان يجمعها الإنكشارية والعزب من الحرفيين والتجار، ثم سرعان ما إمتد نظام الحماية هذا ليشمل الأسواق والموانيء والعديد من الأنشطة الأخرى كوسائل لزيادة الدخل الغير شرعي لأعضاء الفرق العسكرية. أنظر: ليلى عبد اللطيف: الادارة في مصر، ص١٩٠-١٩٤ ؛

Shaw, Organization, 138; André Raymond, Artisans et Commerçants au Caire au XXVIII[e] siècle, Damascus, 1974, Vol. II, 688-692;

أحمد السعيد سليمان: تأصيل، ص٧٨-٨٠.

٢ - أورد الجبرتي نفس الرأي في المماليك، كما لم يختلف الفرنسيون عنهما في أول منشور أذاعه نابليون بونابرت على الشعب المصري. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٤، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠ ؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص٩٤ ؛ محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٢.

(ص١٧) وتـارة تسـير المركـب في وسـط البحـر إذا كـان متسعاً، فـإذا طلـع عليهـم الفلاحون أو العرب ونادوا عليهـم أن يـأتوا للـبر الـذي هـم وقـوف[1] بـه لا يجيبونهـم فيضرب الفلاحون الرصاص من مكاحلهم على المركب ومن فيهـا ويصيحـون عليهـم وينتشرون في البر كالجراد ويكثرون من الصياح وضرب البارود بالرصَاص، فيضربـون عليهم من المركب المدفع والبارود فيرجعون هـاربين وهـم يشـتموا ويصيحـوا، وتـارة يشتد الحال ويكثر الرجيف على أهل المركب ويكـون البـارود الـذي يـأتيهم مـن الـبر كثير، وتارة يموت أناس وينجرح أناس من هـؤلاء ومـن هـؤلاء فيـؤل الأمـر إلى بـذل دراهم فيدفعونها لهم ويتركوهم يمضوا في طريقهم، وتـارة يكـون البحـر نـازلاً هابطـاً كعادته في عقـب الشـتاء فيتكـاثر الفلاحـون أو العـرب ويـنزلون بـالخيل في البحـر في جهات معلومة ويأخذون المركب بما فيه مـن أمـوال ومتـاجر ويقتلـون مـن فيهـا، ولا يسأل أحد من الأمراء عن ذلك[2]، بل للأمير قسم فيه ونصيب مقدر (ص١٨) يـأخذه، وكذلك كان البر في كل جهة منه طوائف من الفلاحـين يسـمى الرجـل نفسـه شـيخ العرب الفلاني وله رجال ينهبون في الطـرق، وكـثر ذلـك وعـم أقطـار مصـر كلهـا، فحصل الخلل الكبير وإضطرب أمر القطر إضطرابـاً عظيمـاً حتـى وصلـت العـرب إلى اليزبكيـة وإلى الحسـينية ووقـع القتـل والسـلب خـارج بـاب الشـعرية وعنــد المذبـح

---

١ – في نسخة [دار الكتب] "واقفون".

٢ – بالرغم من أن كل قرية تقع على النيل في مصر كان بهـا خفـراء مسئولون عـن الإبـلاغ عـن قوارب اللصوص، وذلك حماية للإبحار النهري، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لحماية المراكب من خطر الإعتداء على الأنفس والممتلكات، فقد كانت لمثل هولاء اللصوص حيلهم في سرقة المراكب النيلية. أنظر: نيبور، كارستين: رحلة إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢م، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة سنة ١٩٧٧، ص١٢٥-١٣٧.

السلطاني[١] وتحت القلعة من جهة الجبل وخارج باب القرافة[٢] وباب الغريب عند الأزهر[٣]، وكثر ذلك جداً، وكان الذي يتوجه إلى بولاق يسأل أيّ الطرق أحسن في هذه الجمعة، فيقال طريق باب اللوق[٤]، وأحذر أن تتوجه من طريق القنطرة عند المغربي[٥] فإن التعدي هناك، وكذا يقال في طريق مصر العتيقة، وساير[٦] الجهات، وإزداد الأمر في ذلك حتى كانت الحارات بإطارف مصر كالأزهر ونواحيه ودواير خط الحسين والحسينية والباطلية والعطوف ودرب النوبي وغيرهم من سائر نواحي أطراف مصر يأتيهم بالليل ناس من الفلاحين والعرب يقال لهم المنسر وبأيديهم تارة شعل مضيئة بالنار فيصعدون إلى الحارات (ص١٩) وينهبون البيوت ويقتلون

---

١ - **المذبح السلطاني:** كان يقع في منطقة الحسينية، عند ميدان الجيش الآن. أنظر: البكري، محمد بن أبي السرور، ت سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م: قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٥٧جغرافيا، ورقة رقم ١١٤ (أ) ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٤١، ج٤، ص٢٧٠ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١، ص١٠٣، ج٢، ص٤.

٢ - **باب القرافة:** يقع عند نهاية سور مجرى العيون من جهة القلعة، عرف أيضاً بباب الخولي لقربه من زاوية الخولي، كما عرف أيضاً بباب قايتباي لتجديده له. السكري، علي بن جوهر: الكوكب السيار إلى قبور الأبرار، تحقيق محمد عبد الستار عثمان، سوهاج سنة ١٩٩٢، ص٤٣-٤٤.

٣ - **باب الغريب:** هو باب البرقية الذي بني في العصر الفاطمي في السور الشرقي لمدينة القاهرة، وموقعه عند جامع الغريب الذي بناه عبد الرحمن كتخدا (أثر رقم ٤٤٨) بجوار هذا الباب. الجبرتي: عجائب، ج٣، ص٩٣، ج٤، ص٣٤٦.

٤ - **طريق باب اللوق:** كان هذا الطريق يمتد من قنطرة باب الخرق فشارع حسن الأكبر الحالي فباب اللوق حتى شاطيء النيل. المقريزي: الخطط، ج٢، ص١٤٧ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٣، ص٦١.

٥ - **قنطرة المغربي:** كانت في منطقة الأزبكية جهة شارع عدلي.الآن حيث مقام الشيخ المغربي. الجبرتي:عجائب، ج٣، ص٣٣، ج٤، ص٣٤٦ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٣، ص١١٨ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٢٤٠.

٦ - في نسخة [دار الكتب] "وكذا في ساير".

ويجرَحُون، وكانت أهل المحَلاَّت على الدوام مستحضرْين ومستعدين بالبارود والسلاح ويسهرون بالدور خوفاً من طرق المنسر، وبالجملة فقد كان ذلك أمراً صعباً مهولاً، والأمرا نيام في بيوتهم يسمعون ذلك ولا تأخذهم حمية في الدفع عن الرعيَّة، وزاد الأمر في مثل هذه الأشياء حتى صَار الناسُ بحيث لا يقدرون على المشي ليلاً في طرق مصر إلا أن يكون ثلاثة أو أربعة أو خمسة رجَال ومعهم النور مع الإحتراسِ على أنفسِهم بالمسَاوق ونحو الشماريخ المعروفة، وسبَبَ ذلك أنه ظهر بالطرق بالليل رجال يقال لهم البطحجّية ومعهُم أشياء يضربُون بَها كل من كان ماراً منفرداً، وتارة يضربون الإثنين ويأخذون من الناس ثيابهم وما مَعهُم من الدراهم، حتى عمت البَلْوى بذَلك وكثرت هذه المعاني بمصِرَ، فإرتفع الأمن وزاد الخوف وكثر الفِسقُ، وكانت إذ ذَاك الأمرا على ثلاثة أقسَام: أمراء مِصْريون، وأمرا فلاحَون، وأمرا من العرب، فكان الكلب من الفلاحَين يجمع له مائة رجل أو مأتين، وبعضهم يجمع الألف وبَعضُهُم (ص٢٠) تكون جماعته ألفين وبعضهم أكثر من ذلك، ويسمي الكلب نفسه شيخ العرب فلان، وكل واحد منهم مصاحب لأمير من أمرا مصر ليشاركه فيما يأخذه من أموال الناس، فكانت العلماء تذهب وتتكلم مع مثل إبراهيم بيك شيخ البلد ويحذرونه عواقب ذلك ويخاطبونه في قمع هؤلاء الأوباش ورفع ضررهم عن الناس وعن البلاد، ويقولون له أن القطر صار خراباً بسبب ذلك، فيأمر بعض صناجقه بالخروج إليهم فيخرج مع عسكره ويرسل لهم ينبههم ويقول لهم أرحلوا عن أرضكم ومحلكم، فيرحلون بأموالهم ويتوجهون إلى أيّ جهة من أيّ بلد شاؤا، فيمكثون بها حتى يأتي ذلك الأمير ويرجع بعد ذلك إلى مِصْرَ ويقول أنهم هربوا وأنه لحق منهم عشرة فقتلهم بالكذب، ثم يرجعون إلى محلهم ويعودون إلى فسادهم، وأن لم يكن بين الأمير وبينهم صحبة يرسل لهم الأمير الذي يكون مرافقاً لهم ويعرفهم عن الحقيقة، فَتَارَة يرحلون ويهربون، وتارة لا يبالون بذلك الأمير بل يرسلون له أرجع فإن لم يرجع حاربوه، وتارة يهزموه (ص٢١) ويقتلون من أتباعه ومماليكه ويرجع مهزوماً منكساً رأسه.

وإضطرب أمر حكام الأقاليم و لم يزل هذا الأمر على هذه الصفات حتى تسبب عن ذلك مجيء الفرنسيس ودخولهم إسْكندرِيّة ثم سيرهم حتى ملكوا مِصْرَ وولت جميع الأمرا منهزمين و لم يمكثوا معهم في الحرب سَاعَة واحدة، وهذا من سوء قضا الله عليهم وتنكيله بهم جزاء على ما قدموه من صنيعهم وخرجوا عن القطر بالكلِّية إلى الشام سوى مراد بيك وبعض صناجقه فأنه مكث في الصعيد، وإستولت الكُفارُ على أرض مصر ثلاث سنوات حتى جاء حضرة الوزيْر يوسف باشا[1] في المرة الثانية

[1] - **يوسف باشا**: شغل يوسف ضيا (المعدني أو المعدن)باشا منصب صدر أعظم سنوات ١٢١٤-١٢١٦هـ/١٧٩٩-١٨٠٠م، وقد حضر إلى مصر سنة ١٢١٤هـ/١٧٩٩م على رأس جيش لإجلاء الفرنسيين، وعقد صلح مع الجنرال كليبر عرف بإتفاقية العريش، ولكنه لم يتم بسبب تدخل إنجلترا، وإنتهى الأمر بهزيمة يوسف باشا في موقعة عين شمس و إضطراره إلى الإنسحاب عقب إنهيار الإتفاقية المذكورة، ثم عاد إليها في ربيع الأول سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م على رأس القوات العثمانية القادمة للتعاون مع الإنجليز للعمل على طرد الفرنسيين من مصر، ومكث بمصر إلى ٥ شوال سنة ١٢١٦هـ/٨ فبراير ١٨٠٢م لتنظيم شئونها وإرجاعها ولاية عثمانية كما كانت، وإنشاء أربعة باشويات تحل محل أمراء المماليك، وإبعاد أمراء المماليك خارجها -إلى رودس أو كريت أو سالونيك أو أزمير- ومنحهم وظائف ليتعيشوا منها، وإعتقال أمراء المماليك الذين كانوا بالقاهرة -إبراهيم بيك الكبير وابنه مرزوق بيك وتسعة بكوات آخرين- في ١٢ جماد آخر ١٢١٦هـ/٢٠ أكتوبر ١٨٠١م لإرسالهم إلى استنبول، ولكن تدخل الإنجليز الذين كانوا متعاطفين مع المماليك - لإعتقادهم في قدراتهم العسكرية التي ستحمي مصر من أي غزو أجنبي جديد لضعف وإنحلال الجيش العثماني- حال دون ذلك، ومكث بمصر حتى غرة شوال سنة ١٢١٧هـ/٢٥ يناير ١٨٠٣م لتنظيم إدارتها ليرجع بها مرة أخرى ولاية عثمانية، وعين محمد خسرو باشا والياً على مصر. عين والياً للحبشة وجدة وقائداً أعلى لجيوش العراق والشام وعكا ومصر للقضاء على الوهابيين سنة ١٢٢٤هـ/١٨٠٩م، ولكن سرعان ما ألغي هذا التعيين. أنظر: الجبرتي: مظهر التقديس، ص١٨٦-٢٣٠، ٣٠٩، ٣٣٣ ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣،ص٨٢-٨٩، ٩٠، ١٠٤، ١٨٦ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص٦٠، ٦٤، ٧٦-٨٧، ١١٣، ١١٤-١٢٢ ؛

G. Douin and C. Fawtier-Jones, L'Angleterre et l'Egypte, Vol. I, La politique mameluke, 1801-1803, Cairo: 1929, numerous citations ;

من طَريق الشام بالـبر، وجـاء كذلـك حضـرة قـابدان باشـا حسَـين باشـا[١] رحمـه الله فخرجت الفرنسيس ودخل الوزير القابدان باشا وعسَاكر الإسـلام[٢]، وحصـل الفـرح

وأنظر أيضاً: شكري: الحملـة الفرنسـية، ص١٥٧-١٧٠، ٢٠٦، ٣٢٣، ٣٨٦-٣٨٧ ؛ شـكري: مصـر في مطلـع القـرن ١٩، ج١، ص٢-٣، ١٠، ١٢-١٨، ٧٨-٧٩، ٨٤، ٩٨-١٠٠، ١٠٧-١٠٨، ١٢٣، ٢١٠، ج٣، ص٩٩٧-١٠٠٥.

١ - **حسين باشا القابودان:** قبودان حسين باشا أخ غير شـقيق للسـلطان العثمـاني سـليم الثـاني، أصبح قبطان باشا إعتباراً من شـهر مـارس ١٢٠٧هـ/١٧٩٢م، إلى تـاريخ وفاتـه في رمضـان سـنة ١٢١٨هـ/ديسمبر ١٨٠٣م، إلتحق بالقوات العثمانية في مصر برئاسة يوسـف باشـا في ذي الحجـة سنة ١٢١٥هـ/إبريل ١٨٠١م، وقـد كـان خصمـاً عنيـداً للأمـراء المـماليك، وكـان مـزوداً بـأوامر بالقضاء عليهم بعد إجلاء الفرنسيين عن مصر، فقام بإعداد مؤامرة لقتل أمراء المماليك الذين كـانوا بالإسكندرية في ذلك الوقت في ١٤ جماد آخر ١٢١٦هـ/٢٢ أكتوبر ١٨٠١م، حيث قتـل عثمـان بيك الطنبورجي وعثمان بيك الأشقر ومراد بيك الصغير وإبراهيم بيك السناري وصالح أغا ومحمـد بيك وفر عثمان بيك البرديسي. مات بإسطنبول في شعبان ١٢١٨هـ/ديسمبر ١٨٠٤م ودفن بجامع سيدي أيوب الأنصاري، وإبتهج المماليك لذلك وضربوا المدافع من القلعة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثـار، ج٣، ص١٥٤، ١٨١، ١٨٨، ١٩٣، ١٩٧، ٢٠٠-٢٠١، ٢٢٦، ٢٥٩، ٢٧٠، ٢٧٦، ج٤، ص٣١ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص١١٣، ١١٥-١٢٠، ١٦٤-١٦٥ ؛ محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، القاهرة سنة ١٩٨٦، ص٤٢ ؛ شكري: مصر في مطلع القـرن ١٩، ج١، ص٣، ٦، ١٢-١٥، ٩٦، ١٠٨.

٢ - كان هذا بمساعدة إنجلترا بعد معاهدة التحالف التي عقدت بين الدولة العثمانية وإنجلترا في ٢٧ رجب سنة ١٢١٣هـ/٥ يناير ١٧٩٩م، فأرسلت إنجلترا جيشـاً بقيـادة السـير رالـف أبركرومبي - الذي قتل في معركة كانوب في ٦ ذي القعدة١٢١٥هـ/٢١ مارس ١٨٠١م- ثم السير جون هيلـي هتشنسون -الذي غادر مصر في ١٣ جماد أول ١٢١٦هـ/٢١ سبتمبر ١٨٠١م لمرضه- ثـم اللـورد كافان، وكان معهم قوة مكونة مـن سبعة آلاف مـن قـوات الهنـد بقيـادة الجـنرال بـيرد في الجـيزة والسويس، وألفين وخمسمائة بالإسكندرية ودميـاط، وقـد مكـث الإنجليـز في مصـر حتـى ٢١ ذي القعدة ١٢١٧هـ/١٦ مارس ١٨٠٣م، بعد فشلهم في حل الخلافات بين الدولـة العثمانيـة والأمـراء المماليك، وبعد طلب فرنسا لذلك في صلـح إميـان في ٢٣ ذي القعـدة سـنة ١٢١٦هـ/٢٧ مـارس

والسرور للمسلمين وأزال الله عَنهُم تلك المحنة، وفرج عنهم تلك المصيبة العظمى، فكمل نظَامُ الموحدين وعمر القطر وصلحت البلاد وكثرت المتاجر وحَصَل للناس الكسبُ العَظيم والأمْنُ الجسيم وتوجه حضرة (ص٢٢) القابدان والوزير كل منهما إلى إسلامبول، وتولى وزارة مصر حضرة محمد باشا خسرو[1] حفظه الله وبقيت مصر

١٨٠٢م، فقد كانت الحملة الفرنسية تهدف إلى قطع طرق الإنجليز إلى الهند وتأسيس مستعمرة فرنسية في مصر، وقد تحطمت هذه الأحلام في العام الأول من مجيء الحملة عندما نجح الإنجليز في تحطيم الأسطول الفرنسي في موقعة أبو قير البحرية سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م وعزلت قوات الحملة عن العالم الخارجي، وإنتهت الحملة بإنسحاب الفرنسيين سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م بعد وصول قوات من الإنجليز بقيادةالجنرال أبر كرمبي والعثمانيين بقيادة يوسف باشا الصدر الأعظم وحسين باشا القابودان. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص١٧٦، ١٧٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ٢٣٤ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص١١٣-١١٤، ١٢٥ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج١، ص٤٩ ؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص٣٢٣، ٣٢٧-٣٣٣، ٣٨٦-٣٨٧، ٣٩٣، ٣٩٨، ٤٠٢-٤٥٩ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٦، ٩، ١٢، ١٦، ١٨، ٢٧، ٥١، ٧١، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٩، ١٠٠، ١٠٨، ١٢٧-١٢٩، ١٣٤-١٤٢.

[1] - **خسرو باشا**: كان محمد خسرو باشا كتخدا حسين باشا القبودان، صدر فرمان تعيينه في جماد أول سنة ١٢١٦هـ/سبتمبر ١٨٠١م، ووصل إلى مصر في رمضان ١٢١٦هـ/يناير ١٨٠٢م لممارسة عمله كحاكم لمصر، ومنفذاً لخطط الدولة المشددة في القضاء على المماليك نهائياً وعدم التفاوض معهم، وأفشل المحاولات الإنجليزية في التدخل لحل مشكلة المماليك مع الدولة العثمانية طوال سنة ١٢١٦-١٢١٧هـ/١٨٠٢م، وكذلك أيضاً تدخلات الفرنسيين، كما أوكل إليه مهمة إذلال كبار المشايخ -البكري والسادات على وجه الخصوص- ومصادرتهم، ولكنه فشل في ذلك لجهله بفنون الحرب والسياسة وشئون الإدارة على السواء، وهزمت جيوشه عدة مرات رغم التعزيزات العسكرية التي أرسلتها الدولة، مما جعله يتصل بقائد القوات الإنجليزية بالإسكندرية ليتدخل في الصلح مع المماليك في ٩ شعبان ١٢١٧هـ/١٠ ديسمبر ١٨٠٢م على أن ينفى زعمائهم إلى خارج مصر، لكن المماليك عادوا إلى الصعيد -حسب نصح الإنجليز في ذي القعدة ١٢١٧هـ/مارس١٨٠٣م، وهرب خسرو باشا من القاهرة بعد معركة مع العساكر الأرنؤود في ٩

سارة قارة، وحصل بمحمد باشا هيبـة في قلـوب الفلاحـين والعـرب، وأمنـت الطـرق وإستقامت الأحوال قريباً من سنة الأشياء، ثم إختل ذلك الأمر ودخلت طوايـف الغـز المماليك إبراهيم بيك والبرديسي[١] وجماعتهم ومكثوا مع العسكر السّلطاني سـنة ثمانيـة

محرم سنة ١٢١٨هـ/٢ مايو ١٨٠٣م إلى المنصورة ثم إلى دمياط، حيـث قبـض عليه الجيـش الـذي قاده حسن باشا طاهر وعثمان بيك البرديسي ومحمد علي وأرسلوه إلى القاهرة، فكانت مدة ولايتـه سـنة وثلاثـة أشـهر وأحـدى وعشـرين يـوم، وقـد خلفـه طـاهر باشـا قـائد الأرنـوط في ١٤ محـرم ١٢١٨هـ/٦ مايو ١٨٠٣م، حيث إجتمع القاضي والمشايخ وقرروا تعيين طاهر باشا قائمقـام حتـى يأتي فرمان ولايته، ثم جاء في شهر صفر خطاب من الدولة بنقله خسرو باشا إلى سالونيك، ولكنه كان محبوساً بالقلعة إلى أن أطلقه محمد علي بعد خـروج المـماليك مـن القـاهرة إلى الصعيـد في أول ذي الحجة سنة ١٢١٨هـ/١٣ مارس ١٨٠٤م ليكون باشا على مصر لمدة يومين فقط، فقد إعترض على تعيينه عابدين بيك وحسن بيك إخـوة طـاهر باشـا وزعمـاء الأرنـؤد، فسـفروه مـن مصـر إلى إستانبول عن طريق رشيد. أنظر: الجبرتي: عجـائب الآثـار، ج٣، ص١٩٧، ٢٤٠-٢٤٣، ٢٤٤-٢٤٥، ٢٥٤، ٢٨٧ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص١٢٢-١٢٨ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج١، ص٥٦-٥٧ ؛ شكري: مصـر في مطلـع القـرن ١٩، ج١، ص٣، ١٧-٢٥، ٣٧، ٤٢، ٤٧، ٥١، ٥٢، ١٢٤، ١٢٨، ١٣٠-١٣٢، ١٣٤-١٣٥، ١٤٠-١٤١، ١٦٠، ١٧٩، ١٨٠-١٨٢، ١٨٨، ١٩٢-١٩٦، ٢٤٦-٢٤٨، ٢٦٤-٢٦٦.

[١] - **عثمان بيك البرديسي**: من مماليك مراد بيك، سمي بالبرديسي لتوليه كشوفية برديس بالصعيد، تقلد الإمارة سنة ١٢١٠هـ/١٧٩٥م، وكان رسول مراد بيك إلى الفرنسيين وضمن وفده للتفاوض معهم، سواء مع الجنرال كليبر أو الجنرال مينو، ورأس المرادية بعد وفاة مراد بيك وسفر محمـد بيـك الألفي إلى إنجلترا، وظل البرديسي على إتصال دائم بالفرنسيين بل والإنجليز، ونجى مـن محاولـة قتـل المماليك في البحر أمام الإسكندرية عند تقريـر الدولـة التخلص مـن المـماليك بعـد خـروج الحملـة الفرنسية، تحالف مع محمد علي بعد مقتل طاهر باشا ودخل القاهرة مع إبراهيم بيـك الكبـير وعُـين شيخاً للبلد، وحارب محمد خسرو باشا في دمياط وأسره، كما سيطر مـع محمـد علي على رشـيد وطرد قوات علي باشا الجزايرلي، ولم يتحد مع محمد بيك الألفي بل حـاول قتلـه، ووعـده الإنجليـز بإرسال نجدة لتخليصه من الأرنؤد، فتفرقت جماعة المماليك مما سهل على محمـد علـي -بإبعـاذ مـن

عشر[1]، ثم قام عليهم حضرة مولانا وسيدنا مُحمَّـد علي دام إجلالـه وكـان في ذلـك الوقت كبير العساكر جميعـاً، فـأخرج كـامل الصنـاجق وأتبـاعهم قهـراً عنهـم وعنـوة بالسَّـيف، فقتلـت منهـم أنـاس وهـرب البـاقون خـارج مصـر وإجتمعـوا وسـاروا إلى الصَّعيد، ثم جاء حضرة خرشد sic بَاشَا[2] رحمه الله وتولى مصر، ثم خـرج منهـا مـن

الفرنسيين- الإيقاع بهم وطردهم من القاهرة مرة أخرى، وخرج بعساكره إلى البساتين والجيزة حيث تحارب مع قوات خورشيد باشا ومحمد علي، ثم ذهب إلى الصعيد مع إبراهيم بيك ووسطوا عثمان بيك حسن في الصلح مع محمد بيك الألفي ولكنه لم يتم أي صلح بينهما لحقد البرديسي عليه، ولم يمكن الألفي من جمع كلمة المماليك حينما إتفق الألفي -بمساعدة الإنجليز- مع الصدر الأعظم على عزل محمد علي عن مصر في ربيع ثان ١٢٢١هـ/يونيو ١٨٠٦م وتعيين موسى باشا وإرجاع المماليك إلى سابق عهدهم في الحكم. مات بمنفلوط فى ٧ رمضان ١٢٢١هـ/١٨ نوفمبر ١٨٠٦م ودفن بها. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٤، ج٤، ص٢٠، ٤٢-٤٣ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص٩٢-٩٣، ٩٨، ١٠٠-١٠١، ١١٥-١١٧، ١٢٩، ١٣٢-١٣٣، ١٣٤، ١٣٦-١٣٩، ١٥٠، ١٥٧، ١٥٨-١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٤-١٦٥، ١٦٩، ١٧٥، ١٧٧، ١٨٣، ١٨٤-١٨٥، ١٨٨-١٨٩، ١٩١، ١٩٤-١٩٥، ١٩٧-١٩٨، ٢٠٢-٢٠٣، ٢٠٩ ؛ كلوت بك: لمحة، ج١، ص٥٦، ٥٨، ج٢، ص٦٣، ٦٤ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٠١-٢٠٣ ؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص٢٠٧-٢٦١، ٢٧٣-٢٧٨، ٤١١-٤١٥ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص١٤، ٤٧، ٥٢، ٥٤، ٥٥-٥٦، ٥٧، ٥٩-٦٠، ٦١-٦٥، ٦٩، ٧٢، ٧٣، ١٣١، ١٦٠، ١٦٤، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٩، ١٩١-٢٤٥، ٢٥٧، ٢٧٤-٢٨٥، ٢٩٢-٢٩٧، ج٢، ص٣٣٧، ٣٣٨، ٣٩١-٣٩٣، ٣٩٦-٤٩٦.

[1] - ١٢١٨هـ/١٨٠٣-١٨٠٤م.

[2] - **خورشيد باشا:** هو خورشيد أحمد باشا، كان باشا الإسكندرية في الفترة من ذي القعدة سنة ١٢١٧هـ/مارس ١٨٠٣م قبل أن يعين حاكماً لمصر كلها في ٢٨ ذي القعدة سنة ١٢١٨هـ/١٠ مارس ١٨٠٤م، ولذلك فإن مدته تتداخل مع مدة محمد خسرو باشا -الذي كان محبوساً في قلعة القاهرة في ذلك الوقت- كما تداخلت أيضاً مع مدة علي باشا الجزايرلي الذي صدر أمر توليته في

٢٨ صفر سنة ١٢١٨هـ/١٩ يونيه ١٨٠٣م وقتله المماليك عند القرين بين بلبيس والصالحية لسوء تاريخه معهم وخيانته لهم وإصراره على تنفيذ مخططات الدولة العثمانية بطرد المماليك من القاهرة إلى الصعيد- في شوال ١٢١٨هـ/ يناير ١٨٠٤م، وكان في مشروعات الحكومة العثمانية بإضافة ولاية مصر إلى أحمد باشا الجزار والي عكا لتأسيس حكومة قوية بها ولدفع أي عدوان أجنبي، ولكن خورشيد -بالإتفاق مع محمد علي- أشاع أنه صدر فرمان بتعيينه على مصر وإنتقل خورشيد إلى القاهرة وتسلم منصبه دون علم الدولة، ووصل فرمان تثبيته والياً على مصر في ١٩ محرم ١٢١٩هـ/ ١ مايو ١٨٠٤م رضوخاً للأمر الواقع، وقد تنبأ الإنجليز بفشله في حكم البلاد منذ البداية لقلة كفائته وعدم سيطرته على الجند وحتمية تصادمه مع محمد علي، بالإضافة إلى خطر المماليك -الذين سيطروا على معظم أقاليم مصر بل وحاصروا القاهرة- ومتابعة مطاردتهم، ومشاكل مرتبات الجنود الأرنؤود، وهذا ما حدث بالفعل، وإستدعى خورشيد قوات من الدلاة - فرسان- لمساندته في القتال ضد المماليك، والموازنة مع الأرنؤود مثيري الشغب ضده، وتحصن بالقلعة خوفاً من الأرنؤود، ووصل الدلاة في ٢٩ ذي القعدة ١٢١٩هـ/٢٩ فبراير ١٨٠٥م وعسكروا في منطقة مصر القديمة وطرا، ولكن الدلاة إتفقوا مع محمد علي ودخلوا معه إلى القاهرة وكانوا نقمة على خورشيد باشا بما فعلوه مع الأهالي، وقد سعى محمد علي بالفعل للسيطرة على البلاد وسعى لدى الدولة العثمانية للحصول على فرمان بتوليته على مصر، ولكن خورشيد كان يسعى في الوقت نفسه لتعيين محمد علي لإحدى باشاويات الدولة الآخرى وقد نجح بالفعل في إصدار فرمان بتولية محمد علي على جدة، وطالب محمد علي بمرتبات جنوده وعجز خورشيد عن ذلك مما أثار الجند والشعب معاً على خورشيد، وقد عزل العلماء خورشيد في ١٣ صفر ١٢٢٠هـ/١٣ مايو ١٨٠٥م، وعرضوا حكم مصر على محمد علي باشا، وأفتوا بعصيان خورشيد باشا وجماعته وجواز قتالهم، وقد قاوم خورشيد باشا ذلك العزل من قلعة القاهرة، وإتصل بمحمد بيك الألفي الذي كان بالجيزة وباقي أمراء المماليك بالصعيد لنجدته، وحضر عثمان بيك البرديسي وإبراهيم بيك وعثمان بيك حسن إلى جنوب القاهرة في ١٨ربيع ثان/١٦ يوليو من نفس العام ولكن بعد فوات الأوان، وإنتهى الأمر بخروجه إلى الإسكندرية بعد وصول فرمان تولية محمد علي، وهو بذلك أخر والي عثماني يأخذ أوامره من استانبول مباشرة. وقد أرسلته الدولة العثمانية في حملة ضد الفرس، كما عمل أيضاً صدر أعظم في الفترة من سنة ١٢٢٧-١٢٣٢هـ/١٨١٢-١٨١٥م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢١١، ٢٢٠، ٢٥٤، ٢٦٦، ٢٧٦، ٢٨٥، ٢٨٧،

سوء رأيه وشؤم تدبيره، فتولى وزارة مصر حينئذ حضرة الصدر العلي مَحمَّد عَلي، فهو الذي أعاد عمران القطر بعد الخراب[١]، وأعاد رميم خيره منشوراً بعد الإضمحلال والذهاب، فلما إستقل بهذا القطر صنع أشياء جليلة من محكم التدبير، وظهر مظهراً (ص٢٣) يعجز عنه كل رئيس من أمير ووزير، وكان ابتدا شأنه في يوم الجمعة عاشر شهر صفر سنة ١٢٢٠[٢] بمنزل سِعيد أغَا وكيل دار السعادة[٣]، بحضرة خرشد sic باشا

٢٩٣، ٣٢٩-٣٣٦، ج٤، ص٣٢ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص٢٠٤-٢٠٧ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج١، ص٥٧، ٥٩، ٦٠-٦١ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٢٢، ٥٥-٥٦، ٦٥، ٦٧، ١٢٧، ١٣١، ١٦٧، ١٦٩-١٧١، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٩، ١٨١، ٢٤٧، ٢٤٨، ١٩٤-٢٢٥، ٢٤٥-٣٣٥ ؛

Douin and Fawtier-Jones, L'Angleterre et l'Egypte, Vol. I, 406.

[١] - بدأ محمد خسرو باشا منذ ربيع ثان سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م في بناء ما هدمه الفرنسيون عند دخولهم القاهرة بعد هزيمة الجيش العثماني بالأضافة إلى ما لاقته البلاد من تخريب أثناء العصر العثماني من جراء فتن المماليك، كما طلب من القائد الإنجليزي قبل إنسحاب قواته من مصر سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٣م إبقاء ضابطاً من سلاح المهندسين للإشراف على أعمال تحصينات القاهرة ورشيد، كما صدر في مدة علي باشا الجزايرلي تنبيه في أواخر رجب ١٢١٨هـ/نوفمبر ١٨٠٤م إلى جميع الأهالي بتركيب الأبواب التي خلعها الفرنسيون على العطف والأزقة والشوارع. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص١٩٩، ٢٠٧، ٢٢٤، ٢٢٥-٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٣٨-٢٣٩، ٢٦٦-٢٦٧ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص١٢٢-١٢٣، ١٦٠ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج١، ص٥٢ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص١٨١ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص١٤٢ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٢٩.

[٢] - تولى محمد علي على مصر في ١٣ صفر سنة ١٢٢٠هـ/١٣ مايو سنة ١٨٠٥م برأي المشايخ والقاضي والعامة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٢٩-٣٣٠ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٩-٢٥، ١٧٤-٣٣٥.

[٣] - ذكر الجبرتي أن المشايخ إجتمعوا في بيت القاضي وليس في منزل سعيد أغا وكيل دار السعادة لتولية محمد علي وخلع خورشيد باشا، ثم ذهبوا -بما فيهم سعيد أغا- إلى بيت محمد علي

وغيره، وجا له الأمر العَالي بالتوليَة بعد ذلك[1]، وها أنـا أذكـر إجمـال شـأنه في ذلـك، ومنبه[2] على بيان ما بدا على يديه في أقاليم القطر وما وراء تلك المسالك.

بالأزبكية ليخبروه بما حدث. الجبرتي: عجائب الآثـار، ج٣، ص٣٢٩ ؛ شـكري: مصـر في مطلـع القرن ١٩، ج١، ص٣١٤، ٣١٧.

[1] – جاء الأمر العالي بالتولية في ١٣ ربيع ثان ١٢٢٠هـ/١١ يوليو ١٨٠٥م، إعتبـاراً مـن ٢٠ ربيـع أول/١٨ يونيـو. الجـبرتي: عجـائب الآثـار، ج٣، ص٣٣٦ ؛ أمـين سـامي: تقويـم النيـل، ج٢، ص١٩٥؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٣٢٣-٣٢٤.

[2] – في نسخة [دار الكتب] "وأنبه".

المقالة الأولى

في بعض صفاته ومحاسن أخلاقه الجليلة الجميلة

فمنها أنه مع عظيم جلالته وكبير هيبته وشدة قوته، لطيف الألفاظ، فما كأنها إلا محاسن ألحاظ، بحيث أنه لا يخاطب الكبير والصغير ولا الجليل ولا الحقير، إلا بألطف عبارة[١] وحسن إنسجام[٢]، مع تنزه خطابه عن الصعوبة على الدوام، جميع من كلمه من الخواص والعوام، وبهذا السبب تنجذب له النفوس بالمحبة، ولا يدخرون في خدمته من الإجتهاد وزن حبة، وهذا خلق شريف، ومعنى ملكي جميل ظريف، وبمثل هذا تتفاضل الأشخاص، وتتميزالعوام الدون من أرباب العلى الخواص، (ص٢٤) ومن أخلاقه العظيمة كثرة عفوه عن المذنبين، وتجاوزه عن إساءة[٣] المسيئين، ولو أردت عدد الأشخاص ممن حصل له ذلك لأجهدت الأنفاس، وملأت القرطاس، ولا سيما من كانوا متصفين بعداوته، ومتوسمين[٤] بمخالفته، فإنهم لما إلتجأوا إليه سامحهم من زلاتهم، وستر عنهم عورات جناياتهم، وأعطاهم الأموال الجزيلة، وفرض لهم العلوفات

---

[١] - وردت هذه الكلمة في نسخة [دار الكتب] "العبارة ".

[٢] - وردت هذه الكلمة في نسخة [دار الكتب] "الإنسجام".

[٣] - وردت هذه الكلمة في نسخة [دار الكتب] "إساآت".

[٤] - وردت هذه الكلمة في نسخة [دار الكتب] "متسمين".

الجليلة، وملكهم المنازل ورتب لهم لكل شخص خرجاً يكفيه[1] حتى صاروا له من أعظم المحبين، وفي تمني بقاء دولته من الراغبين، وعادوا شبه خدامه ومماليكه، وهكذا الكريم فإن الكرم يستديم عز مليكه.

[1] - **شاهين بيك الألفي:** من مماليك محمد بيك الألفي، هزم عدة تجاريد من الدولة للقضاء على الدولة في مدة خورشيد باشا محمد علي باشا وذلك في حياة أستاذه محمد بيك الألفي، ولما مات الألفي في ١٩ ذي القعدة ١٢٢١هـ/٢٨ يناير ١٨٠٧م أوصى قبل موته برئاسة شاهين على أتباعه، فأرسل محمد علي إليه رسالة يدعوه فيها للصلح ولكنه رفض لعدم تضمين الصلح لإبراهيم بيك وعثمان بيك حسن وباقي المماليك بالصعيد، فتوجه محمد علي خلف شاهين بيك ومماليكه الذين إتجهوا إلى الصعيد ووصل محمد علي إلى أسيوط وسيطر عليها، كما أرسل وفداً من المشايخ بعد وصول الحملة الإنجليزية نجحوا في عقد صلح مع المماليك لمنعهم من الإتصال بالإنجليز، وأرسل شاهين بيك في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٢٢هـ/٢٢ يوليو ١٨٠٧م علي كاشف الألفي إلى محمد علي ليعتذر له عن تأخره في المجيء لمحاربة الإنجليز -حسب شروط صلح أسيوط- وإنه على صلحه معه ومستعد للحضور والإقامة بالجيزة، ولكن الألفية لم يأتلفوا مع باقي المماليك هناك لإختلاف طباعهم عنهم، فإعتزل الألفية عن باقي الفرق، ودخل شاهين بيك في صلح أسيوط مع محمد علي، وذهب أمين بيك وأحمد بيك الألفيين إلى الإسكندرية لمحاربة الإنجليز بعد أن أيقنوا ضعف الإنجليز بعد هزيمتهم في موقعة الحماد، ووصل شاهين بيك إلى الجيزة في ٢٨ رمضان ١٢٢٢هـ/٢٩ نوفمبر ١٨٠٧م وأعطاه محمد علي قصر الجيزة وما حوله وما به من سلاح وذخيرة وأصلحه له، وأنعم عليه بكشوفية الفيوم وقرى من إقليم البهنسا وكشوفية الجيزة والبحيرة. وإن كان الرجبي لم يذكر هنا أسماء الصناجق الذين حضروا مع شاهين بيك إلا أن الجبرتي ذكرهم وهم: أحمد بيك ونعمان بيك وحسين بيك ومراد بيك.الذين حضروا إلى القاهرة في ١٣ شوال سنة ١٢٢٢هـ/١٢ ديسمبر ١٨٠٧م، وأعطا محمد علي لنعمان بيك بيت المشهدي بدرب الدليل بمنطقة الدرب الأحمر ليسكنه، وزوجه أيضاً من إحدى جواريه في ربيع الثاني سنة ١٢٢٣هـ/يونيه ١٨٠٨م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٥١، ٢٦٨، ج٤، ص١٦، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٣٣، ٣٨، ٣٩-٤٠، ٤١، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧-٤٨، ٤٩-٥٠، ٥٩، ٦٠، ٦١، ٧١، ٧٢-٧٤، ٧٩، ١١٦-١١٧،

ومن أخلاقه أنه يعطي العطاء الكثير الجزيل لمن صنع في خدمته الشيء التافه القليل، وهذا واقع منه كثيراً بحيث ربما لا يحصى ولا يدرك حصره بالإستقصا، يعرف هذا أهل مصر جميعهم رفيعهم ووضيعهم.

ومن أخلاقه الشريفة الحسنة جعله مرتبات عديدة (ص٢٥) كثيرة لأناس بالخمول والضعف شهيرة، يجعل للواحد منهم في كل شهر مرتباً من الدراهم والدنانير والقمح والأرز والسمن والسكر وغير ذلك مما هو معروف شهير، ولاسيما ما فرضه لخاصة العلماء ومعاشر السادة الفضلاء من المرتب السنوي من الدراهم والدنانير والكسوة الجليلة كما هو مشاهد معروف.

ومن أخلاقه الشريفة العظيمة حبه لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره للعلماء في كل من[1] الحوادث بالمبادرة لقراءة صحيح الإمام البخاري وحضه إياهم على ملازمة ذلك بالجامع الأزهر في قبلته القديمة، فإنه إشتهر إجابة الدعاء عندها[2]، وقل أن تخلو من ولي كبير من خاصة أهل الله يكون حذايها على الدوام، فيجتمع العلما والسادة الفضلا من الجمع الكثير والجم الغفير مع[3] أعيان طلبة العلم وطوائف

١٢٧، ١٣١ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢١١ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٦٢٤-٦٢٥، ٦٥٤، ٧٢٦، ج٣، ص٨٩٥، ١٢٥٣، ١٢٨٤.

[1] - مكتوب في الهامش تصحيح نصه "منهم صحح".

[2] - **القبلة القديمة**: هى قبلة الجامع الأزهر الفاطمي الذي أنشأه جوهر الصقلي سنة ٣٦١هـ/٩٧٠م، ثم عندما وسع الأمير عبد الرحمن كتخدا الجامع من خلف القبلة سنة ١١٦٧هـ/١٧٥٣م، فأصبحت القبلة الأصلية للجامع هى القبلة القديمة. وكان من المعتاد قراءة البخاري للدعاء عند هذه القبلة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص١٧٧، ١٧٨، ج٤، ص٢٨٢، ٢٨٩ ؛
Doris Behrens-Abouseif, Islamic Architecture in Cairo, An Introduction, Cairo, 1989, 58-62.

[3] - وردت في نسخة [دار الكتب] "من".

المدرسين في المذاهب، ويلازمون قراءة الصحيح أياماً متوالية حسب أمره الكريم قياماً بواجب إمتثال ذلك، إذ هو سبب في الخير الجسيم.

ومن أخلاقه الجليلة فرضه للفقرا جميعاً من العرب والأتراك وغيرهم من المساكين بمصر في كل جمعة وشهر (ص٢٦) دراهم ودنانير جزيلة يأخذها مشايخهم ونقباؤهم ويفرقونها عليهم أجمعين بحسب حالهم وإختلاف مراتبهم في الضعف والمسكنة[١]، فيأخذ كل شخص منهم قسمه ونصيبه فينفقه على نفسه وأهله، وهذه حالة عظيمة وخلق شريف ما سمعنا بمثله سابقاً أصلاً إلا ما كان من أمر السلطان أحمد بن طولون والسلطان أبي المسك كافور الإخشيدي والسلطان صلاح الدين يوسف عليهم الرحمة والرضوان، ومن عند صلاح الدين يوسف إلى هذا الوقت ما سمعنا بذلك لإحد من الملوك ولا من الأمرا والوزرا المصريين أبداً على أن حالهم في عطاياهم بالنسبة لأحوال حضرة أفندينا صاحب السعد والإقبال كالقطرة من البحر، فإن عطاياه لو جمعت وعدت وأحصيت لكانت أمراً مدهشاً، فسبحان من وفقه لذلك الخلق الجليل الجسيم، ذلك فضل ا لله يؤتيه من يشاء وا لله ذو الفضل العظيم.

ومن أخلاقه الجميلة ترتيبه في كل عام للأيتام الذين يقرؤن القرآن في المكاتب وللأولاد الصغار من أولاد الفقراء وذراري الضعفاء الدراهم والدنانير، يفرقها عليهم جميعاً فيحصل (ص٢٧) لهم الفرح الزايد ويعمهم السرور المتزايد، وكذلك يصنع مع فقهايهم وعرفائهم، فجزاه ا لله أفضل الجزاء، وأثابه أوفى نصيب من العز والتأييد، فإنه خلق جليل حسن قل من يتفطن لمثله.

---

[١] - **تنظيمات المشايخ والنقباء:** أنظر عن تنظيمات المشايخ والنقباء وأنواع الحرف المختلفة:
Gabriel Baer, Egyptian Guilds in Modern Times, Jerusalem, 1964; André Raymond, Artisans et Commerçants au Caire, Vol. II 503-726, 551-560.

ومن أخلاقه الغريبة الحسنة الجميلة العظيمة أنه أبقاه الله متى بلغه ووصل إلى علمه شيء فيه بعض أضرار[١] على أحد من الرعية كايناً من كان، لا بد له جزماً من إزالته والتأمل[٢] فيما يصلحه ولا يرضي بإبقا ذلك قولاً واحداً، وهذا كما إتفق أن قضاة إسكندرية الذين يتولون بها الأحكام الشرعية كانوا يضرون أهل الثغر ضرراً بيناً، ويأخذون منهم أموالاً كثيرة بغير موجب ولا سبب يقضي بذلك بل بأدنى سبب واه، ويجعلون ذلك عوايدهم وقوانينهم التي لا تنقضي، حتى أن حضرته أيده الله بلغه ذلك من بعض أعيان أهل الثغر، فتفطن وفهم أن بعض الناس المسرفين على أنفسهم من أهل القطر أو من غيرهم يشترون ذلك القضا كل سنة من محمية إسلامبول، فيولوهم[٣] ذلك مع عدم المعرفة بهم فيحصل منهم ذلك الضرر، فلما بلغه ذلك الأمر صار في كل سنة (ص٢٨) يدفع المرتب على ذلك من الدراهم والدنانير لمن هو في إسلامبول، وجعل الأمر في ذلك لأكبر علما الثغر يجيء برجل من المشهورين بالمعرفة والعفة ويجعله في مكان القاضي بالمحكمة وعنده جماعة الكتبة للوثائق والحجج، فيقضي بين الناس بغير مقابل ولا يدفع الرجل منهم في المحكمة درهماً واحداً إلا كتابة الورقة الوثيقة أو الحجة كقرش أو قرشين مثلاً، والقاضي له ما يكفيه يعطيه[٤] حضرة المحافظ بالثغر، فحصل بسبب ذلك النفع الكبير وإرتفع عن أهل الثغر الإيذا الشهير، وصاروا

---

[١] - وردت في نسخة [دار الكتب] "الضرار".

[٢] - في نسخة [دار الكتب] مكتوب في الهامش الأسفل للصفحة ٢٢ "فيما" وتحتها "التعقيبة بعد الورقة.."، وفي الهامش الأعلى للصفحة ٢٣ "طلب تعقيبة هذه الصفحة بعد هذه الورقة بورقة".

[٣] - وردت في نسخة [دار الكتب] "فيولونهم".

[٤] - في نسخة [دار الكتب] نسي هنا الكاتب أن يتابع ترقيم الصفحات التي أصلحها في الصفحة السابقة، على إنه أشار في الهامش الأسفل من الصفحة إلى تعقيب أخر "أرجع لهذه التعقيبة بورقة واحدة" ليشير إلى نسيان أخر.

في راحة عظيمة وحالة حميدة كريمة، فأبقى الله أفندينا وأمده بعنايتـه أينما كـان بجـاه سيد ولد عدنان.وهكذا شأنه في كل أمر بلغه مثل ذلك أيده الله.

ومن أخلاقه الجليلة الجميلة التي تميز بها عن كثـير مـن الأمـرا والملـوك والـوزرا عدم محبته لسفك الدماء، فإنه لا يرغب في ذلك أصلاً، بـل يعفـو ويصفـح[1]، ولا يقـع منه ذلك إلا لمن كان مستحقاً لذلك المعنى[2]، فإنه بعد التثبت عليـه ومعرفـة إستحقاقه للقتل وتحتم ذلك على ذلك الشخص يأمر به حينئـذ فيكـون في هـذا الفعـل (ص٢٩) صلاح كبير، وما رأيناه ولا سمعنا عنه أنه فعل مثل هذا أبداً إلا من وجب عليـه وتحتـم هذا الأمر، هذا مع كبير همته وعظيم صولته التي يخافها الأسـود وتنجلي بهـا النـوب السود، فسبحان من خصه بهذا الخلق العظيم.

ومن أخلاقه الشريفة التي إنفرد بها عدم تمكينه أحداً من الظلـم للنـاس في مصـر وسائر أقطارها، ولا يرضى لإحد من الحكام في مصر ولا في أقاليمها وبلادهـا وقراهـا

---

[1] - خرج على محمد علي بعض قادة الأرنؤط مثل ياسين بيـك ورجـب أغـا، ودارت بينـه وبينهـم عدة معارك أسفرت عن القبض عليهم، وقد أراد محمد علـي في البدايـة قتلهـم، ولكنـه تراجـع بعـد تشفع القادة مثل صالح أغا قوش، فأمر بنفي رجب أغا في ٢٢ رمضان سنة ١٢٢٢هـ/٢٣ نوفمـبر ١٨٠٧م، وأمر بنفي ياسين بيك إلى قبرص في ١٨ ذي الحجة ١٢٢٢هـ/١٦ فبراير ١٨٠٨م، كمـا أمر بعزل محو بيك الكبير من كشـوفية البحيرة في ٢٤ ذي القعـدة ١٢٢٣هـ/ ١١ ينـاير ١٨٠٩م ونفاه إلى أبي قير، وطرد عمر بيك الأرنؤدي من مصرفي صفر ١٢٢٤هـ/ مـارس-ابريـل ١٨٠٩م. الجبرتي: عجائب الآثـار، ج٤، ص٨، ١٨، ٤٥، ٥١-٥٢، ٥٦، ٥٨-٥٩، ٧١-٧٢، ٧٤-٧٦، ٨٣، ٩١، ٩٣ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢١٥ ؛ شكري: مصـر في مطلـع القـرن ١٩، ج٢، ص٣٩١، ٦٢١، ٣٦٦، ٣٨٠-٣٨١، ج٣، ص١٠٥١، ١٠٦٤-١٠٦٦.

[2] - بعد هزيمة قوات طوسون باشا في موقعة "الصفراء" سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م عـاد بعـض القـواد الألبان إلى القاهرة وتآمروا على قتل محمد علي باشا، ولكنـه علـم بمؤامراتهـم وطردهـم مـن مصـر، وقتـل أحمـد أغـا لاظ حـاكم قنـا وقـوص الـذي كـان متـآمراً مـع الفـارين للحضـور إلى القــاهرة لمساعدتهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧-١٤٨، ١٧٢.

أن يظلم أحداً من التجار ولا من المزارعين[١] ولا من أحد الفلاحين، بحيث أنه إذا بلغه أن أحداً وقع منه ذلك عزله حالاً وعاقبه بما يراه لإمثاله، حتى أنه إتفق له كثيراً إرسال أناس يسألون سكان البلاد وأجناس الناس من الفلاحين هل ظلمكم الحاكم عليكم في شيء، وهل أخذ منكم مظلمة أو برطيلاً، أو أحد أتباعه، فيحصل بسبب ذلك للحاكم[٢] الخوف الشديد ويمتنعون من الظلم، فلا يأخذون شيأ ولا يضرون أحداً، وجعل لكل حاكم ما يكفيه في كل شهر، فحصل بذلك العمار التام، وإرتاح الخاص والعام، وبطل ما كان يقع في الزمن السابق من حكام مصر والأمرا المتقدمين (ص٣٠) الذين أخربوا البلاد وأضروا بالعباد، حتى صارت الحكام الآن من أحسن الناس أخلاقاً وألطفهم سياسة، فالله يبقي حضرته ويوفقه آمين، [إنه مجيب الدعاء][٣].

ومن أخلاقه اللطيفة أنه لا يولي منصباً ولا حكماً لأحد في كل نوع من أنواع المصالح والخدم إلا بعد معرفة حاله وضبطه، وإنه يصلح لمثل هذا المنصب، وفي كل وقت يسأل عنه وعن أحواله وكيفية صنيعه، وقد حصل بسبب ذلك إنسجام حال المصالح وإنتظام أمر أربابها وحكامها، وتسبب عن ذلك الراحة للرعية، بأخذ مرتبات أجرة خدمتهم بما فيه الكفاية له ولعياله من غير إسراف ولا إجحاف[٤].

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] ما بين النجمتين وضعه مكان ص٢٥ من المخطوط.

[٢] - في نسخة [دار الكتب] مكتوب في الهامش الأيسر "بيان: للحكام".

[٣] - ما بين الحاصرتين مكتوب بخط أصغر من الخط المعتاد في هذه الصفحة في نسخة [دار الكتب] فقط.

[٤] - من المتعارف عليه أن محمد علي كان يولي أقاربه ومن جاء من بلدته المناصب الهامة والأقاليم، حيث توافد على مصر عدداً كبيراً من أقاربه وأهل بلاده للإلتحاق بخدمته فولاهم شتى المناصب، وعلى سبيل المثال الإسكندرية عند إستلامها عقب خروج الحملة الإنجليزية، عين محمد بيك دبوس أغلي كتخدا بيك حاكماً عليها في رجب ١٢٢٢هـ/سبتمبر ١٨٠٧م، وعين بعده خليل بيك ابن أخته في سنة ١٢٢٦هـ/١٨١٠م، كما كان محرم بيك زوج ابنة محمد علي حاكماً للجيزة في صفر ١٢٢٦هـ/فبراير ١٨١١م ثم للإسكندرية، وأحضر مصطفى بيك ابن أخته من الشرقية وعينه كبيراً

وإرتاحت مصر وأهلها وكثرت الأشيا من كل نوع، بحيث صار أهـل مصـر لا يحتاجون إلى قطر من ساير الأقطار، ولا إلى شيء يـأتيهم مـن ذلـك القطـر، وصـارت الأقطار هى التي تحتاج الآن إلى مصر، وهذا كله من عظيم همته وكبير تدبـيره، سـدد ا الله أموره وأعانه ووفقه وأيده بفضله آمين.

ومن أخلاقه الجليلـة أنـه في كـل حـين مـن الشـهور يرسـل للحكـام ويـأمرهم بالحضور بين يديه ويسألهم عن البلاد وأحوالها (ص٣١) وعن المزارعين، ويشير عليهم بما فيه النفـع للعامـة والخاصـة ويرجعـون ممتثلـين لأوامـره مبـادرين إلى تنفيـذ أغراضـه وتشهيل ما يلزم من جباية الأموال بالرفق، حتى أن الحكام الآن صاروا معدوديـن مـن عقلا العالم ومن أرباب التدبير والمعرفة وحسن حالهم جداً ولزموا ما هم فيه، فلا يرى كبير في مصلحة من المصـالح ولا [حـاكم مـن الحكـام][1] إلا وهـو علـى غايـة الضبـط وكمال العقل، ودوام الإلتفات لتدبير خدمتـه وإصـلاح شـأنه في إتقـان مصلحتـه، لا ينفك عن ذلك في جميع[2] حالاته فحصل بهذا[3] إنسجام وإصلاح للناس وراحة كبيرة.

للدلاة وأرسله إلى الصعيد على رأس حيش في ١٨ صفر ١٢٢٦هـ/١٤ مـارس ١٨١١م، الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص١٣٢، ج٤، ص٦٦، ٧٩، ١٣١، ١٣٢، ٢١١، ٢١٤ ؛ شـكري: مصـر في مطلـع القـرن ١٩، ج٢، ص٣٥٦، ٥٨٥-٥٨٦، ٧٢٥-٧٥٦، ٧٧٩-٨٧٥، ج٣، ص٩٤٩، ١٣٣٠.

[1] – مـا بـين الحـاصرتين هكـذا في نسـخة [سـوهاج]، وفي نسـخة [دار الكتـب] "ولا حكـم مـن الأحكام".

[2] – في نسخة [دار الكتب] مكتوب في الهامش الأسفل لصفحة ٢٤ "التعقيبة بعد الورقـة المقابلـة"، وفي صفحة ٢٥ أصلح الكاتب هنا رقم الصفحـة وجعلـه ٢٣ وكتـاب في الهـامش الأعلـى "أطلـب تعقيبة هذه الصفحة قبل هذه الورقة بورقة واحدة". وبذلك يكون الكاتب قد أصلح ما وقع فيـه أو ما نسيه عند الكتابة وأشار إليه في الهامش الأسفل لصفحـة ٢٢ وفي الهـامش الأعلـى لصفحـة ٢٣. وقد أكمل النص من ص٢٧.

[3] – في نسخة [دار الكتب] "بذلك".

ومن أخلاقه الحسنة الجليلة كرمه ووفاؤه بالوعد، فمكارمه لا حصر لها، وآياديه لا تستقصى آثارها، يعطي الألف والألوف الكثيرة المتزايدة في الكثرة التي لا تدرك لوزير ولا لأمير صغير ولا كبير، ومن أين لأحد أن يسمح ببعضها، فقد أعطى الخمسة آلاف دينار والعشرة آلاف والعشرين والثلاثين، وهكذا بما يزيد عن العد ولا يعرف بالحد ولا ينظر إلى ذلك ولا يتفكر فيه ولا يمتن به، فسبحان (ص٣٢) من أعطاه هذا الخلق العظيم الذي فاق به كعب بن مَامَة وحاتم[١] الطّائي ومعزَ بن زايدة والرشيد وجَعْفر والفضل بن يحيى بن خالد، بل لم نسمع عن أحد من الملوك المصريين أنه كان يعطي مثل ذلك، فأدامه الله وأيده وأبقاه أمين.

ومن أخلاقه الجميلة إرجاعه الحكم في الأمور جليلها وحقيرها إلى الشرع الشريف، حتى أن سَاير أتباعه من الحكام في ساير الجهات من المدن والبلاد والقرى متى حضر عند أحدهم خصمان وطلب أحدهما الشرع لا يقدر واحد على إرجاعه عن ذلك بل يبادر ذلك الحاكم والأمير بإرساله مع خصمه للشرع الشريف وبصحبته أحد من أطرافه يشاهد الأمر ثم يبلغه بما فعله القاضي وحكم به، فينفذ ذلك الأمير ما حكم به الشرع الشريف، وهذا أمر مستفيض لا يجهله أحد، بحيث أن أكبر الأمرا إذا وجد له خصم ولو من أحقر الناس وطلب التوجه للشرع لا يمكن إبطال كلامه أبداً، بل يذهب الخصم ويصير الأمر معلقاً بعنق القاضي، فما حكم به هو النافذ الماضي، وكثيراً ما يقع إضطراب (ص٣٣) في أمر من الأمور ويرسل حضرة كتخداي بيك[٢]

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] "حاتماً".

[٢] - **كتخدا بيك:** حسب التقاليد المرعية عين محمد علي كتخدا له السلطة في أن يمثل محمد علي في كل الأمور الهامة، وهذا الضابط كان يطلق عليه "كتخدا بيك" أي كتخدا الباشا. وقد ذكر الجبرتي من هؤلاء محمد أغا (عزل في صفر ١٢٢١هـ/ابريل ١٨٠٦م)، محمد بيك دبوس أغلي (صفر ١٢٢١-محرم ١٢٣١هـ/ابريل ١٨٠٦-ديسمبر ١٨١٥م)، محمد أغا لاظوغلي (محرم ١٢٣١-٢٠ ربيع ثان ١٢٣٤هـ/ديسمبر ١٨١٥-١٦ فبراير ١٨١٩م)، ومحمود بيك (٢٠ ربيع

إلى العلما وأعيان مشايخ الإسلام فيحضرون عنده ويحضر القاضي وينظر العلما في ذلك ويخاطبون القاضي بالحكم الشرعي فيحكم به، وهذا لغرض الإحتياط في الأشيا والتثبت ليكونوا في ذلك على بصيرة، وهكذا الشأن في كثير من القضايا، وربما مكثوا الأيّام العديدة يرددون النظر ويدققون في مراجعة كتب المذاهب ليتم الأمر على غاية من الصحة والإتقان والإحكام والضبط، وهذا كما ترى أكبر دَلِيْل على إنصاف حضرة الوزير وإنقياده لآراء العلما، فهو خلق عظيم جَلِيْل ينبغي لكل صدرٍ وأمير أن يكون شأنه ذلك، فأبقاه الله وأعانه ووفقه لسبيل الخيرات.

ثان ١٢٣٤-رجب ١٢٤١هـ/١٦ فبراير ١٨١٩-يناير ١٨٢٧م)، وقوله لي شريف باشا الكبير (رمضان ١٢٤٣-١١ ربيع ثان ١٢٤٨هـ/ابريل ١٨٢٨-٧ سبتمبر ١٨٣٢م) حين عين حكمداراً على جميع ولايات الشام (ايالة عربستان) وعين موره لي سامي بيك في ٢٧ ربيع ثان/٢٣ سبتمبر من نفس العام ، عباس باشا حلمي بن أحمد طوسون باشا ابن محمد علي عند سفر جده الى السودان ١ جماد أول ١٢٥٤هـ/٢٣ يوليو ١٨٣٨م حتى تولى الحكم ابراهيم باشا في حياته محمد علي في جماد ثان ١٢٦٥هـ/ابريل سنة ١٨٤٨م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٥، ٧، ٣٠١، ٣٠٧ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٠١، ٢٧٧، ٣٣٤، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤٠٨، ٤٠٩، ٥٩١، ج٣، مج١، ص٥-٧ ؛ ناهد عبد العال محمد السويفي: ديوان الخديوي في عهد عباس الأول، دراسة وثائقية أرشيفية للوثائق والسجلات العربية في الفترة من ٢٧ ذي الحجة ١٢٦٤هـ - ١٨ شوال ١٢٧٠هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم المكتبات والوثائق، كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٨٨، ص١٢.

المقالة الثانية

في ذكر إخراجه للمفسدين في مصر وأقطارها، وإزالة شوكة الضالين من مصر ومن أرض الحرمين وأقطار الحجاز من الوهابية وغيرهم، وفي ذكر قمع المعتدين من الفلاحين والعرب أجمعين بقطر مصر أيضاً

وفيها ثلاثة فصول، **الفصل الأول** في إخراج المماليك (ص٣٤) وأمرا المرادية والإبراهيمية وأتباعهم من مصر وأقطارها بالكلية، **الفصل الثاني** في إزالة شوكة الضالين الخارجين من الوهابية ورفع ضررهم عن أهل الحرمين الشريفين وما يلايم ذلك، **الفصل الثالث** في قمعه لطوايف المفسدين من الفلاحين والعرب من قطر مصر، وبيان ذلك بالطريق الواضح المختصر الوافي في البيان الكافي التخليص والأتقان.

الفصل الأول

لما كثر الجور والفجور من أتباع إبراهيم بيك و مراد بيك سلط ا الله عليهم الفرنساوية فـأخذوا مصر منهم عنوة بالحرب وطردوهم إلى جهتين، فإبراهيم بيك وجماعته ومن تبعه من خشداشيّته وطوايف أتباعهم فروا إلى قطر الشام بأهلهم وحريمهم وأولادهم، ومازالوا به حتى فتحت مصر على يد حضرة الوزير الكبير يوسف باشا وأعانه حضرة سيدنا حسين باشا قابدان باشا كان عليه الرحمة والرضوان.

وأما مرادبيك وأتباعه وبعض خشداشيته وطوايف أتباعهم فرُّوا[1] إلى الصَّعيد (ص٣٥) وأقاموا بنواحيه، ووقع لهم مع الفرنسيس حروب عديدة، إلا أن الفرنساوية لم يتمكنوا من إزالته عن الصعيد وبلاده، وكانت غاية أمرهم معه المصالحة، على أنه

[1] - في نسخة [دار الكتب] "ففروا".

يبقى هو وجماعاته في نحو النصف من بلاد الصَّعيد الجوانية والوسطانية[1]، ولم يزالوا على ذلك حتى توفاه الله ودفن بأرض الصعيد[2] رحمه الله [تعالى][3].

ثم لما تولى حضرة صاحب السعادة وزارة مِصْرَ وأقطارها وجلس في القلعة المعروفة بقلعة الجبل وتارة يجلس بمنزله سراية[4] اليزبكيَّة[5]، كان إذ ذاك بمصر بعض

---

[1] – هرب مراد بيك إلى الصعيد بعد هزيمة المماليك أمام الحملة الفرنسية في ٧ صفر ١٢١٢هـ/٢١ يوليو ١٧٩٨م، ودارت بينه وبينهم عدة مواقع لإخضاعه لسلطة الفرنسيين، ولكن هذا لم يحدث إلا على يد الجنرال كليبر الذي وقع معه إتفاقية صداقة -بتدخل من زوجة مراد بيك التي كانت مقيمة بالقاهرة- في ١٠ ذي القعدة ١٢١٤هـ/٥ ابريل ١٨٠٠م بقصر مراد بيك بجزيرة الذهب جنوب القاهرة، منح مراد بيك بمقتضاها إقليم الصعيد وعاصمته جرجا وحتى القصير على البحر الأحمر، بداية من بلصفورة بمديرية جرجا شمالاً وحتى أسوان جنوباً، على أن يدفع للفرنسيين الضرائب المعتادة، ذلك في حالة وجود الفرنسيين بمصر، وفي حالة الصلح مع الدولة العثمانية فيسلم الفرنسيون مصر لمراد بيك، وأن يحمي الفرنسيين مراد من أي عدوان، وأن يقوم مراد بالمثل. الجبرتي: مظهر التقديس، ص٢٥-٤٧ ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٨ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص٩٢-٩٣؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص٢٠٧-٢١١، ٢٥٥.

[2] – توفى مراد بيك في ذي الحجة سنة ١٢١٥هـ/مايو ١٨٠١م بالطاعون بمدينة سوهاج ودفن بها في جامع العارف. وقد أزيل مدفنه عند تجديد الجامع في الفترة الأخيرة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص١٦٧ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص١١٥.

[3] – هذه الكلمة مذكورة في نسخة [دار الكتب] فقط.

[4] – **سراي**: السراية أو السرايا أو السراي تعني في الفارسية بلاط أو بيت أو قصر الملك، والدار الكبيرة العالية، وتعني في التركية البيت. آدى شير: الألفاظ الفارسية المعربة، القاهرةسنة ١٩٨٨، ص٩١ ؛ طوبيا العنيسي: تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية، القاهرة سنة ١٩٦٤، ص٣٤.

[5] – **سراي الأزبكية**: كانت هذه السراي الى الغرب من بركة الأزبكية، وكانت في الأصل قصراً أنشأه السيد ابراهيم ابن السيد سعودي اسكندر من فقهاء الحنفية بخط الساكت فيما بينه وبين قنطرة الدكة وجعل في أسفله قناطر وبوائك من ناحية البركة، وجعلها لنزهة عامة الناس، وكان بها مقاهي وأماكن للغناء وتقف عندها مراكب النزهة، ثم تداولتها الأيدي وسدت بوائكها في عهد

علي بيك الكبير ومنع دخول الناس اليها لاجتماع أهل الفسق بها، ثم اشتراها الأمير أحمد أغا شويكار، ثم اشتراها الأمير محمد بك الألفي سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦-١٧٩٧م وهدمها وبناها من جديد واهتم بتحصينها من الخارج، وبنى بدائر الحوش طباقاً لسكن المماليك من طابق واحد، وأنشأ خلفه بستاناً من الجهة البحرية، وانتهى البناء وأقام به في آخر شعبان ١٢١٢هـ/فبراير ١٧٩٨م، وحينما جاءت الحملة الفرنسية سكن به نابليون بونابرت في ١١ صفر ١٢١٣هـ/٢٥ يوليو ١٧٩٨م وجدده، ثم أقام به الجنرال كليبر وقتل به، ثم سكنه الجنرال مينو وغير معالمه وأدخل فيه مسجداً وبنى عليه قبة، وبعد خروج الحملة الفرنسية سكنه محمد باشا، واحترق في فتنة الجنود الأرنؤط سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م، ثم تولي محمد علي حكم مصر وسكن به وجدده وردم جانباً من بركة الأزبكية بالأتربة التي نتجت عن التجديد ردماً غير معتدل حتى أصبحت عبارة عن كيمان، وأصبح أمام السراي ميداناً فسيحاً من أكبر ميادين القاهرة في هذا الوقت، وكان محمد علي يقيم به في معظم الأحيان الا عندما يثور الجنود عليه فينتقل الى القلعة، وقد احترقت هذه السراي في ١٩ ربيع أول ١٢٥٦هـ/٢٢ مايو ١٨٤٠م ثم جددها محمد علي وأعطاها لابنته زينب بعد ذلك حين زواجها من كامل باشا في ٢٧ صفر ١٢٦٢هـ/٢٤ فبراير ١٨٤٦م. الجبرتي: مظهر التقديس، ص٤٥-٤٦ ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٤٣-٢٤٤، ج٤، ص٢٧-٢٨، ٣٠١.، ؛ كلوت بيك: لمحة، ج٢، ص٥٠ ؛ عبد الحميد نافع: ذيل على المقريزي، ورقة ٥٤ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٣، ص٥٨، ٦١، ١٠٢، ١٠٣، ج٨، ص٩٢، ج١١، ص٢٨، ٢٩، ج١٨، ص١١٨؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٥٤٣ ؛ حسن عبد الوهاب: العمارة في عصر محمد علي باشا، مجلة العمارة المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣ -٤، ص٢٠ ؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص١٤٠ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٠٥٥-١٠٥٨ ؛

G. Wiet, Mohammed Ali et les Beaux-Arts, Le Caire, 223-227; Janet L. Abu-Lughod, Cairo, 1001 Years of the City Victorious, New Jersey, 1971, 90; Doris Behrens-Abouseif, Azbakiyya And Its Environs: From Azbak to Isma'il, 1476-1879, Le Caire, 1985, 82-83.

أجناد من طوايف الإبراهيمية والمرادية، فقد أمنهم ومكثوا تحت آمانه في منازلهم مكرمين[١]، فأغراهم الشيطان على الخيانة والخروج سراً والفرار إلى صناجقهم وجماعات أمرائهم[٢]، وكانوا حينئذ مطرودين بوادي الصعيد، وقد عين لهم حضرة أفندينا صاحب السعادة جهات يمكثون بها ويعيشون بما يرد لهم من خراج أرضها من المال والغلال[٣]، فلما إستشعر حضرته بخروج الفارين من غير سبب موجب لفرارهم مع صنعه معهم أنواع الإكرام حصل له منهم تكدر وعرف أنهم لا خير فيهم، فإحترز من الجمْيع، ثم لما إنضموا (ص٣٦) مع بعضهم جميعاً حدثتهم أنفسهم المغرورة بأنهم

---

[١] – هم شاهين بيك الألفي ونعمان بيك. راجع الهامش رقم ٥٦. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٧٢-٧٣، ٨٩، ١٣١ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢١١ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٢٥٥-١٢٥٦.

[٢] – هم إبراهيم بيك وعثمان بيك حسن الذين كانوا بالصعيد في ذلك الوقت. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٧٢، ٧٤، ١٠١.

[٣] – إستطاع محمد علي الإنتصار على المماليك بعد عدة معارك دارت بينه وبينهم عند المنيا ومنفلوط ولاحقهم جنوباً حتى أسيوط التي أخذها منهم سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٧م، غير أنه عقد معهم صلحاً بتدخل من القنصل الفرنسي بالقاهرة وتدخل مشايخ الأزهر، وكانت تلك المعارك لإرجاع المماليك جنوباً إلى حرجا في المنطقة التي حددتها الدولة، ومن جانبه كان محمد علي يريد إخضاع المماليك وإقرارهم بالقاهرة تحت إمرته يعطيهم المرتبات التي تكفيهم ويكلفهم بما يراه من أعمال في خدمة الدولة. ثم عقد الصلح مع باقي الأمراء فى أسيوط فى ٢٧ رمضان ١٢٢٤هـ/٥ نوفمبر ١٨٠٩م بعد عدة معارك على أن يدفعوا الضرائب والفرض كسائر الأهالى وأن يعودوا الى القاهرة ويتركوا الصعيد، ولكن هذا الصلح لم يتم بينهم لعدم الثقة فى محمد علي من جهة، ولحلم الأمراء بالعودة الى سابق عهدهم في السيطرة على مصر كما كانوا قبل مجيء الحملة الفرنسية، من جهة أخرى وأيضاً لتنافسهم على الرئاسة فيما بينهم كما كان عهدهم على الدوام مما أفقدهم روح اليد الواحدة أمام محمد علي وعجل بالقضاء عليهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٤٥، ٤٦، ٤٨، ٤٩-٥٠، ٨٩-٩٠، ٩٩، ١٠١ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٦٢٤-٦٣٢، ٦٥٤.

يحاربون حضرته، ويظنون أنهم يدخلون مصر ويأخذونها كما سبق لهم بعد موت طاهر باشا[1] رحمه الله، فإستعد لهم حضرة الصدر العلي وخرج إليهم بخيله ورجله،

[1] - **طاهر باشا**: قائد القوات الألبانية في مصر، إنخرط في صراع على النفوذ ضد خسرو باشا الحاكم العثماني لمصر في ذلك الوقت، وكان عند تجريده لحرب المماليك يخرج إلى الجيزة فقط ويقول "أنا أغازي بأناس مسلمين"، وقد خلف طاهر باشا خسرو باشا في ١٤ محرم ١٢١٨هـ/٦ مايو ١٨٠٣م، حيث إجتمع القاضي والمشايخ وقرروه قائمقام حتى يأتي فرمان ولايته، وبدأ بالتفاوض مع أمراء المماليك بالصعيد عن طريق بعض المشايخ وعلى رأسهم الشيخ سليمان الفيومي، وقدم الأمراء إلى الجيزة في ١ صفر ١٢١٨هـ/٢٢ مايو ١٨٠٣م، وقام بإرسال قوة من الأرنؤد إلى رشيد لحمايتها من جنود خسرو باشا التي عسكرت في الرحمانية ومنوف والمنصورة لقطع طرق المواصلات إلى القاهرة، ولم يتفق معه أحمد خورشيد باشا حاكم الإسكندرية بالإتفاق مع القناصل الأجانب على قطع المواصلات مع القاهرة وحطم الجسور المؤدية إلى الإسكندرية وحصنها حتى لا ينتهز المماليك الفرصة ويهاجمونها، وإنخرط في صراع آخر ضد مرؤسه محمد علي، كما واجه الأزمة المالية التي كانت متمثلة في عدم وجود أموال لتسديد رواتب الجنود، مما دعاه للصدام مع كل طوائف البلاد -من تجار ونصارى ويهود وأجناد- لجمع المال، وقد إنتهى الأمر بمصرعه على يدي الإنكشارية أتباع أحمد باشا، وذلك في ٢ صفر سنة ١٢١٨هـ/٢٣ مايو ١٨٠٣م، لعدم إعطائهم رواتبهم المتأخرة مثل الأرنؤد ولتعالي الأرنؤد عليهم، وكان قد جاء في صفر خطاب من الدولة بتولية محمد باشا خسرو على سالونيك وأحمد باشا قائمقام وأن يظل طاهر باشا للمحافظة، ويذكر الجبرتي أن هذا الأمر لإن طاهر باشا من الأرنؤد وليس له الحق في الحصول على ثلاث أطواخ التي هى رتبة الوالي، وفي ٢٠ ربيع أول ١٢١٨هـ/١٠ يوليو ١٨٠٣م ورد فرمان بتوجهه إلى الحجاز مع أحمد باشا لحرب الوهابيين. كان محباً للصوفية وسكن بحريمه في خلوة بالخانقاة الشيخونية (أثر رقم ١٥٢) وعقد حلقات الذكر مع الشيخ عبد الله الكردي، ودفن في قبة ببركة الفيل (أثر رقم ٢٣٢). الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٤٦-٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٨ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص١٢٢-١٣٢ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج١، ص٥٦ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٦، ١٨، ٢٠، ٢٤-٢٥، ٥٢، ١١٦، ١٧٩، ١٨١-١٩١، ١٩٤.

وحاربهم وهزمهم، فطلبوا منه الصلح، فرضى عنهم وأعادهم إلى الصعيد، لكنهم في بلاد أقل من الأولى، فمكثوا فيها مدة قليلة ورجعوا للنقض وحدثتهم أنفسهم بالمحال، فحاربهم ثانياً وثالثاً، وهو يصبر عنهم ويعفو عما صدر منهم[١] من صنع القبيح، فحضر إلى مصر شاهين بيك الألفي[٢] وصناجقه وأتباعه، وكان مقدار جمعه نحو ثلثهم أو أزيد بما يقرب من نصفهم، وإستجار بحضرة الصدر العلي والفخر الجلّي، وطلب منه الآمان له ولإتباعه جميعاً، وذلك في شوال سنة إثنين وعشرين ومائتين وألف[٣]، فقبله حضرة الصدر العلي وأعطاه أماناً كافياً، وأسكنه بمدينة الجيزة وأعطاه إقليمها إيراداً له، وأنعم عليه وعلى سائر صناجقه الإنعام الزائد، وأعطاهم العطايا الجزيلة، وكانت لهم حرمة ومكانة، وصار لهم عنده منزلة عظيمة، وكان صناجقه لهم بيوت بمصر أيضاً، فيدخلون مصر (ص٣٧) ويمكثون في بيوتهم عند حرمهم مع كمال الأمن والعز ويبقون أياماً على ذلك ثم يتوجهون للجيزة أياماً ثم يعودون لمنازلهم وهكذا شأنهم دائماً، وكان الواحد منهم بوقاحة وجهه وقلة إستحيائه يتوجه للقلعة لحضرة الصدر العلي ويطلب منه العطايا والبلاد ويقضون أغراضاً جليلة، وكثر ذلك منهم جداً وصاروا لا يقنعون بالكثير ويوالون الطلب الحثيث مع الرخَاصَةِ والغفلة والبلادة، وهو أبقاه الله صابر على ذلك متحمل لإثقالهم ولا يرضى لنفسه الكريمة أن يتعرض لهم بنوع من الإيذاء ولا يسمعهم في وقت من الأوقات كلاماً يكرهونه أبداً، وكثر

---

[١] - كانت الإنتصارات والهزائم متبادلة بين محمد علي وأمراء المماليك، وكانت الخلافات بين أمراء المماليك وطوائفهم هى الفيصل في كل مرة ينتصر فيها محمد علي أو يعقد صلحاً معهم، كما كان لتدخل كل من إنجلترا وفرنسا الآثر الكبير في عقد مثل هذه المصالحات أو تحديد أماكن لإقامتهم حتى يحولوا بين الطرفين لتجنب إتساع الحرب الأهلية التي تؤثر على إستقرار مصر. كلوت بيك: لمحة، ج١، ص٦٢-٦٤ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ٣.

[٢] - شاهين بيك الألفي: راجع ص٨٤، هامش رقم١.

[٣] - حضر في ٢٨ رمضان ١٢٢٢هـ/٢٩ نوفمبر ١٨٠٧م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٧٢.

منهم الفجور ببعض الجهات في مدينة مصر، حتى أن أحدهم تـزوج إمـرأة مـن النسـا المخدرات فقام لها بالليل وخنقها، يريد بذلك أخذ أموالهـا وأملاكهـا، وكـانت إمـرأة من الخيرات الطيبات[١]، فخافت طوايف النسا ووقع لهم الهول مـن ذلـك، فـإقتص منـه حضرة الصدر العلي وقتله، وصارت النسا وأهل مصر يلعنونه، وهـم على ما هـم عليـه من قلة الحيا لا يبالون بكبيرة ولا صغيرة، حتى أن معظم (ص٣٨) الناس صار يتعجب من حضرة الصدر العلي ومن عدم إضراره لهم[٢].

أما شاهين بيك فما كأنه إلا صار يشابه أحد أولاده، وزادت عليه النعم وكـثر تخوله بها، وصار في رفاهية كبيرة وأعطاه حضرة الصدر العلي الأموال الجليلة وزوجـه من جواره من سرايته[٣]، فصار شاهين بيك فرعون وقته وله تدلل على حضـرة الصـدر

[١] – أنظر عن هذه الحادثة الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٤.

[٢] – لم يكن محمد علي صابراً على أعمال المماليك بـل كـان يتحين الفرص للقضـاء عليهـم دفعـة واحدة، لإنهم يمثلون له عنصر عدم الإستقرار في الحكم بإتصالهم المستمر بالدولة العثمانيـة وإنجلـترا وفرنسا وروسيا لإرجاع دولتهم وعزل محمد علي، وفوق كـل ذلـك كـانت الدولـة العثمانيـة بعـد إخراج الحملة الفرنسية من مصر ترغب في القضاء على المماليك وعودة مصر سيادتها، وكان محمد علي يتصرف على هذا الأسـاس في معظـم الأحيـان، حتـى أنـه إستأذن الدولـة عنـد قيامـه بمذبحة المماليك في القلعـة، فقـام بارسـال عـدة خطابـات الى الصـدر الأعظـم في ١٩ ربيـع ثـان سـنة ١٢٢٥هـ/٢٤ مـايو ١٨١٠م، وفي رجـب ١٢٢٥هـ/أغسـطس ١٨١٠م، وكذلـك في أوائـل ذي الحجة ١٢٢٥هـ/٢٨ ديسمبر ١٨١٠م يبلغه فيها بقراره بالتخلص نهائياً من المماليك لعدم انقيادهم لأوامره وتعطيلهم اياه في ارسال حملة الحجاز لحرب الوهابيين. كلـوت بيـك: لمحة، ج١، ص٦٢ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٦.؛ شكري: مصر في مطلع القـرن ١٩ ج٢، ص٣٩١، ٤٣٩-٤٤٦، ٦٢٤-٦٣٣، ٦٩٠، ٧٦٦-٧٧٩، ٨٠٤، ٨٠٥، ج٣، ص٩٤١، ٩٥٩، ٩٩٩، ١٠٠٧، ١٠١٦، ١٠٧٦، ١١٠٩، ١٢٥٩-١٢٧٣، ١٢٧٩-١٣٠٧، ١٣١١، ١٣٢٦، ١٣٢٧.

[٣] – **جارية شاهين بيك:** إختارت زوجة محمد علي إحدى سراريها وزوجوها لشاهين بيك في ربيع ثان سنة ١٢٢٣هـ/مايو ١٨٠٨م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٨٩.

العلي، وهو أبقاه ا لله يصنع معه ومع جميع أتباعه الصنع الجميل، حتى ظنّ أهـل مصـر أنه صار من مماليكه المعظمين، وإنه لا يمكنه البعد عن حضرة أفندينا أبـداً، لمـا هـو فيـه من الخير والنعم الكبيرة[1]، فإتفق على حين غفلة أنه قدم إلى جهة الجـيزة طوايـف الغـز الإبراهيمية والمرادية جميعاً بخيلهم ورجلهم ونقضوا ما كانوا عليـه مـن العهـد[2]، فظـنّ أهل مصر أن شاهين بيك هو وجماعته أوّل من يحاربهم، بـل ظنوا أنـه ينفـرد بذلـك، فبينما أهل مصر على هذا الظن إذ بلغهم أن حضرة صاحب السعادة أبقـاه ا لله أرسـل حسن باشا طاهر[3] رحمه ا لله رحمة واسعة إلى شاهين بيك ينظـر حالـه وكيـف يكـون

---

[1] - ذكر الجبرتي أن محمد علي باشا أنفق علي شاهين بيك "ألوفاً من الأمـوال، ذهبـت جميعهـا في الفارغ البطال"، وخرج شاهين بيك عليه. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٥.

[2] - أتي هؤلاء المماليك حسب صلح أسيوط بينهم وبين محمد علي وليس كما يذكر المؤلـف هنـا، وقد ألح محمد علي عليهم في ذلك حتى ينتهز فرصة تجمعهم ويتخلص منهم دفعة واحد، لكـن عـدم الثقة المتوافر بينه وبينهم جعلهم يعودون إلى الصعيـد مـرة أخـرى. الجبرتي: عجـائب الآثـار، ج٤، ص٤٨، ٤٩-٥٠، ٥٢، ١١٢-١١٤ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٢٨٠.

[3] - **حسن باشا طاهر**: قائد الجند الألبان في مصر، شـقيق طـاهر باشـا الأرنؤطي وعـابدين بيـك، ويقال أنه ابن أخت محمد علي، أرسله أخاه طاهر باشا على رأس حيش لمطاردة خسرو باشـا سـنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م، ثم أتى بعده عثمان بيك البرديسي ومحمد علي بجيش آخر وهزموا خسرو باشا ولكنه إستطاع التحصن بقلعة دمياط، ثم سرعاً ما هزم وقبضـوا عليـه وأرسـلوه إلى القـاهرة، كمـا إشترك مع المماليك في النزاع مع علي باشـا الجزايـرلي سـنة ١٢١٨هـ/١٨٠٤م، وبـدأ الفـتن ضـد عثمان بيك البرديسي لطلب علوفة الأرنؤد، منح في ١٩ محرم سنة ١٢١٩هـ/١ مايو ١٨٠٤م رتبـة الباشوية ذات طوخين عند تولية خورشيد باشا، ثم ولاه خورشيد باشـا علـى الغربيـة في ربيـع أول سنة ١٢١٩هـ/يونيو ١٨٠٤م، وخرج مع محمد علي لمحاربة المـماليك لفـك الحصـار عـن القـاهرة، كما خرج على خورشيد باشا مع محمد علي، ومنح طوخ أخر في ٤ شعبان ١٢١٩هـ/٨ نوفمـبر ١٨٠٥م فأصبح باشا مكان أخيه الراحل، وكان من أقوى المنافسين لمحمد علـي ولكـن محمـد علـي عرف كيف يحد من أطماعه ويأخذه إلى جانبـه ليصبـح مـن أكـبر وأهـم مسـاعديه. خـرج لمحاربـة المماليك بالصعيد، ثم تعين محافظاً للجيزة في ٨ محرم ١٢٢١هـ/٢٨ مارس ١٨٠٦م، أخرجـه محمـد

منه، وإنه توجه مع بعض أتباعه (ص٣٩) نحو عشرين نفساً وعدوا من البحر حتى دخلوا قصر الجيزة عند شاهين بيك وعندْ أتباعه وصناجقه جميعاً، ووجدوا عنده سليم بيك المحرجي[١] وهو جالس بوجهه الكالح يضحك مع شاهين بيك، فوقع الخطاب بين

علي في ذي الحجة ١٢٣٥هـ/سبتمبر ١٨٢٠م مع جماعة من الأجانب إلى الصعيد للتنقيب عن المعادن وعن الآثار، وكان ناظراً لجمرك بولاق، وبنى بيت له بالأزبكية من جهة جامع أزبك اليوسفي (عند ميدان الأوبرا الآن) على حساب الحكومة وحصنه كالقلعة، توفى بالإسكندرية في جماد ثان سنة ١٢٣٣هـ/مايو ١٨١٨م ودفن في مدفنه الذي بناه مكان بيت الزعفراني بجوار جامع السيدة زينب، وتولى ابنه مناصبه. وقد نقل هذا المدفن منذ حوالي ٣٠ سنة عند توسعة جامع السيدة زينب الى الساحة الغربية لمسجده ببركة الفيل. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص١٣٠، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٦٩، ٢٩٢، ٣١٣، ج٤، ص٣، ٢٩٦، ٣١١-٣١٢ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٤، ص٧٧.؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص١٨٦، ١٩٣، ٢١٦، ٢٥٨، ٢٨٢-٢٨٥، ٢٩٢، ٢٩٧، ٢٩٩-٣٣٥، ج٢، ص٢٦٢-٢٦٣ ؛ محمود محمد فتحي الألفي: العمارة الاسلامية في مصر خلال القرن التاسع عشر، أسرة محمد علي بالقاهرة ١٨٠٥-١٨٩٩م، رسالة دكتوراة غير منشورة، قسم العمارة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥، ص٢٩٨-٣٠٢.

١ - **سليم بيك المحرمجي**:.هذا يخالف ما أورده الجبرتي عن هذه الحادثة، فقد ذكر أن حسن باشا طاهر ذهب إلى خيام إبراهيم بيك الكبير وباقي الأمراء، وليس إلى شاهين بيك، وأن الذي كان بقصر الألفي عبد الرحمن بيك تابع عثمان بيك المرادي المعروف بالطنبرجي، وكان الألفي مشغولاً بإرسال حريمه ومتاعه إلى الفيوم بعد أن قابل محمد علي في صباح ذلك اليوم بقصر شبرا، فإصطحبه الطنبرجي إلى باقي الأمراء للخروج على محمد علي. كما ذكر الجبرتي أيضاً أن محمد علي خلع على سليم بيك المحرمجي في ٢٠ ربيع ثان سنة ١٢٢٣هـ/١٥يونيو ١٨٠٨م بعد موت شاهين بيك المرادي، وعينه قائداً لمماليك مراد بيك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٧٨، ٧٩، ٨٩، ١١٢-١١٣ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٢٨٢-١٢٨٣.

حسن باشا وشاهين بيك والحرجي[١]، فقال له الحرجي إننا جينا جميعاً هنا لنأخذ شاهين بيك وصناجقه، لإنه منا ونحن منه، ولا ينفك عنا أبداً، فوافقه على ذلك الهذيان شاهين بيك، فلما نظر حضرة حسن باشا لذلك الأمر وتحقق أنه وقعت الخيانة ونقض العهود والمواثيق من شاهين بيك، تعجب غاية العجب، وقام راجعاً إلى مصر وأخبر حضرة صاحب السعادة بجميع ما شاهده، فلما بلغ ذلك أهل مصر صاروا يتعجبون غاية العجب، وتيقنوا أن أولئك الطوائف مخذولون بسبب كفرانهم بالنعم التي كانوا عليها، وعدم مراعاتهم لحقوق حضرة الوزير وما فعله معهم من الجميل، فنقضوا ذلك كله، وصار شاهين بيك مضافاً مع باقي الغز[٢] الخارجين المغرورين، وخرج من الجيزة ومكث مع رفقته أياماً قليلة، وحضرة صاحب السعادة أيده الله[٣] لم يستفزه ذلك (ص٤٠) الأمر، بل بادر في هذه المرة وصمم على حربهم جميعاً وإخراجهم من القطر

---

[١] – أورد الجبرتي رواية تختلف بعض الشيء عن رواية الرجبي، فقد ذكر أن هذا الخطاب كان بين حسن باشا طاهر وبين إبراهيم بيك الكبير حين حضر ابراهيم بك الكبير الى الجيزة فى ١١ ربيع ثان ١٢٢٥هـ/١٦ مايو١٨١٠م مع عدد من الأمـراء تنفيذاً لصلح أسيوط، وذهب حسن باشا وصالح أغا قوج اليهم لاستقبالهم، ولكن ابراهيم بك غضب من عدم اطلاق المدافع تحية لهم، وعدم استقبال محمد علي لهم بنفسه، وعدد ابراهيم بك لهما مكائد محمد علي مع العساكر والباشاوات وأمراء المماليك والمشايخ حتى وصل الى الحكم، وأظهر ابراهيم بك والأمراء عدم ارتياحهم لهذا الصلح لأنه فخ لاصطيادهم، ولذلك رجع الأمراء الى الصعيد وأخذوا معهم شاهين بك وعدداً أخر من الأمراء الذين كانوا مقيمين بالقاهرة فعلاً، وكان محمد علي قد ذهب بالفعل بجيشه الى الجيزة في اليوم التالى للقضاء عليهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٢-١١٥ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٢٨١-١٢٨٧.

[٢] – في نسخة [دار الكتب] "الغزاة".

[٣] – في نسخة [دار الكتب] إختلف ترتيب الصفحات هنا أيضاً، فمكان هذه الصفحة "٣٣" في المخطوط بعد صفحتين، تحت رقم"٣٧".

بالكلية، جزا في مقابلة ما صنعوا من النقض والخيانة، فخرج أيده الله بالعساكر[1] في البر والبحر، فإمتلأ البحر بالمراكب والعساكر فيها مشحونة، وكذلك البر مملؤ بالعساكر، وساروا وسارت طوايف الغز تجاههم بجانب الجبل يرون بعضهم البعض، وكان بعض المغفلين يظن أن طوايف الغز لا أحد يقاومهم في البر في الحرب، وهم على ظهور خيولهم، وأن صاحب السعادة من تمام تدبيره أنه جعل العساكر في البر وفي البحر، فإتفق أن حضرة صاحب السعادة مازال سايراً وهم أيضاً سايرون حتى توسطوا بلاد الصعيد، وإنضاف إليهم زيادة في جموعهم عثمان بيك حسن[2] وصناجقه

---

[1] - لم يذكر الجبرتي أن محمد علي تقدم هذه الحملة ضد المماليك في الصعيد بنفسه، بل ذكر إنه أرسل جيشاً بقيادة حسن باشا وأخيه عابدين بيك ومحو بيك وطبوزأغلي وصالح قوج في ٥ جماد أول سنة ١٢٢٥هـ/٨ يونيو ١٨١٠م الى الصعيد لملاحقة المماليك، وخرج محمد علي لتعزيز جيشه السابق في ٥ جماد ثان/٨ يوليو من نفس العام وأخذ منطقة قناطر اللاهون وتقهقر المماليك إلى الجنوب، وعرض عليهم الصلح مرة أخرى، وحضر عدداً منهم الى القاهرة مرة أخرى واستقبلهم محمد علي واشترى لهم البيوت وأنعم عليهم بالوظائف والأموال، وكان منهم شاهين بيك الألفي الذي حضر إلى القاهرة في ١٠ شوال/٨ نوفمبر. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٥-١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢٣ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٠٥، ٢١٨، ٢٢١ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٣٩١، ٤٣٩-٤٤٦، ٦٢٤-٦٣٣، ٧٦٦-٧٧٩، ٨٠٤، ٨٠٥، ج٣، ص٩٤١، ٩٥٩، ٩٩٩، ١٠٠٧، ١٠١٦، ١٠٧٦، ١١٠٩، ١٢٥٩-١٢٧٣، ١٢٨٨-١٣٠٧، ١٣١١، ١٣٢٦، ١٣٢٧.

٢ - **عثمان بيك حسن**: ألبسه حسن باشا الجزايرلي صنجقاً ووعده بإمرة الحاج، ثم أمره سنة ١٢٠١-١٢٠٢هـ/١٧٨٦م بالذهاب لمحاربة المماليك بالصعيد، فهرب بمماليكه إلى الصعيد لإنه كان لا يريد محاربة المماليك، أقام بأعلى الصعيد مع رفيقه حسن بيك الجداوي، بعد أن طردهم إبراهيم بيك ومراد بيك بعد موت إسماعيل بيك، وإنضم إلى مراد بيك عند لجوءه إلى الصعيد في حربه مع الفرنسيين، وأقسم أنه لا يحلق شعر رأسه ما دام الكفار بأرض مصر، ودخل القاهرة مع الجيش العثماني سنة ١٢١٦هـ/١٨٠٠م بعد جلاء الفرنسيين، وبقي بالصعيد بعد عودة المماليك إلى القاهرة سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٢م، وكانت قواته ٥٠٠ مملوك غير العرب، وكان هذا الأمير سبباً

أتباع علي بيك الكبير[1]، وكانوا أيضاً جماً غفيراً، فكثرت جموع الغز، وما زال حضرة أفندينا حتى إنهم صاروا متوسّطين أرضاً متسعة في بادية كبيرة[2]، فأخرج جملة من

في ربط المماليك على إختلافهم برباط المحبة والأخوة لحكمته وخبرته، وتدخل في الصلح بين محمد بيك الألفي وباقي المماليك الذين حاولوا قتله، وطلب أماناً من محمد باشا خسرو في محرم ١٢١٧هـ/ مايو ١٨٠٢م الذي وجد فيه الجانب المعتدل من المماليك، كما إنه يمكن إستمالة باقي الأمراء عن طريقه لإرسالهم إلى استانبول، وحضر إلى القاهرة في ٢٨ صفر ١٢١٧هـ/٣٠ يونيو ١٨٠٣م مع صالح بيك الكبير وصالح بيك الصغير ومعهم ما يقرب من الثلاثمائة مملوك، وأقام ببيت عبد الرحمن كتخدا بحارة عابدين، ورتبوا له مرتب شهري ومنحوه إلتزاماً، ثم إنه إعترض على إستدعاء خسرو باشا له لقتال المماليك بالصعيد، وكان يحلم عند حضوره بمنصب شيخ البلد أو أمير الحاج، فرجع إلى الصعيد وإستقر بقنا، كما حاول علي باشا الجزايرلي جذبه إلى صفه في نزاعه مع المماليك والأرنؤد للسيطرة على مصر ووعده بإمرة مصر، وإشترك مع باقي الأمراء في مقاومة قوات خورشيد باشا ومحمد علي عند المنيا ثم عاد إلى قنا مرة أخرى لخلافه مع البرديسي، وعند حضور الحملة الإنجليزية إلى الإسكندرية لمساندة محمد بيك الألفي ضد محمد علي في ٩ محرم ١٢٢٢هـ/ ١٩ مارس ١٨٠٧م. بعد وفاة الألفي أرسل الإنجليز للمماليك بالصعيد لتجميعهم وإعادتهم للحكم، قال عثمان بيك "أنا لا أنتصر بالكفار"، ووافقه أكثر الأمراء على ذلك. ورد خبر موته إلى القاهرة في ربيع ثان ١٢٣١هـ/مارس ١٨١٦م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٢١، ٢٢٢-٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٨-٢٢٩، ج٤، ص٤٩، ٢٤٦ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص٣٢، ١١٥، ١٢٤، ١٤٦-١٤٧، ٢٠٩ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص١٩، ٢٠، ١٨٣، ٢١٥، ٢١٨، ٢٩٥-٢٩٧، ج٢، ص٣٦٠، ٦٢٩.

[1] - **علي بيك الكبير**: مملوك إبراهيم كتخدا تابع سليمان جاويش تابع مصطفى كتخدا القازدغلي، كان يلقب بجن علي وببالوط قبان، تقلد صنجقاً في حياة أستاذه، وخرج أمير حاج سنة ١١٦٦هـ/ ١٧٥٣م، هو الذي قضى عملياً على النفوذ العثماني في مصر ومنع قدوم الولاة العثمانيون، بل إنه قاد حملة ضد الدولة العثمانية نفسها، كما قضى أيضاً على البيوت المملوكية الأخرى في مصر وأحل محلها مماليكه مثل محمد بيك أبو الذهب وخشداشيه ومماليك مماليكه أمثال مراد بيك وإبراهيم بيك، الذين شغلوا المناصب الهامة. ومعظم المماليك الذين ذكروا في تاريخ الجبرتي ينسبون إلى بقايا البيت المملوكي القوي وهو بيت القازدغلية، الذي أسس أثناء مشيخة

العساكر البحرية وأضافهم إلى عساكر البر وركب جواده ووضع السَّيف في يده وأمر العساكر بالحملة عليهم في ذلك المحل الفسيح، وزجرهم وهو كالأسد الضاري، (ص٤١) فسارت العساكر إلى جهتهم وحملوا عليهم، وحضرة أفندينا في وسطهم يحرضهم بقوله المريع[1] وعزمه الشديد المنيع، وتلاقا[2] الجمعان وإرتفع الغبار وعلا حتى

علي بيك الكبير، وعمر قلاع الإسكندرية ودمياط، كما أعاد بناء مسجد سيدي أحمد البدوي وبنى أمامه سبيل وقيسارية بمدينة طنطا، وبنى قيسارية أخرى ببولاق وجدد زاوية الشيخ المغربي المعروفة بتكية الرفاعية (أثر رقم٤٤٢) .مات في منتصف صفر سنة ١١٨٧هـ/مايو ١٧٧٣م ودفن بتربة أستاذه إبراهيم كتخدا بالقرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعي (أثر رقم ٣٨٥). أنظر ترجمته في: الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص١٩١، ٢٠٧، ٣٧١، ٣٧٧، ٣٨٠-٣٨٣ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج١، ص٤٧ ؛ وأنظر أيضاً:

Daniel Crecelius, The Roots of Modern Egypt: A Study of the Regimes of `Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab, 1760-1775, Chicago, 1981;

ترجمة عبد الوهاب بكر: جذور مصر الحديثة، القاهرة سنة ١٩٨٥م.

[٢] – تقابل الجيشان عند صول والبرنبل بالقرب من الصف، وإنهزم حسن باشا طاهر إلى بني سويف وتقدم المماليك إلى معسكر محمد علي بالجيزة وخطفوا حرسه، ثم تفرقت كلمة الأمراء مرة أخرى، وأرسل محمد علي لهم بالصلح وحضر بعضهم إلى القاهرة مرة أخرى وإستقروا بها، وكان جيش محمد علي متقدم في نفس الوقت للسيطرة على مدن الصعيد، في حين خرج محمد علي بتجريدة أخرى في ١٠ جمادى ثان سنة ١٢٢٥هـ/١٣ يوليو ١٨١٠م وإستولى على الفيوم بعد إنتصاره على المماليك عند قنطرة اللاهون، وتقهقر المماليك أمامه حتى إنتصر عليهم عند دلجة بالمنيا وأسر عدداً منهم وفر الباقي جنوباً، وحضر إليه بعضاً منهم، ورجع محمد علي إلى القاهرة في أول شعبان سنة ١٢٢٦هـ/١ سبتمبر ١٨١١م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٦-١١٨، ١١٩، ١٢٠-١٢١ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٧٦٦-٧٧٩، ٨٠٤-٨٠٥، ج٣، ص١٠٠٧، ١٠١٦، ١٢٨٨-١٢٨٩، ١٢٩٠-١٣٠٧، ١٣١١.

[١] – في نسخة [دار الكتب] هذه الصفحة تحت رقم "٣٨".

[٢] – في نسخة [دار الكتب] "تلاقى".

غشى الأبصار، وقطعت من الأعدا الرؤس وإختلست منهم النفوس، وكان لهم معه يوم مهول عبوس، وأحاط بهم في وسيع ذلك الوادي ووالى عليهم الطعن والضرب بالسيف والبارود وإختلطت الجموع وأسيلت الدما بدل الدموع والأكف تطير، و لم يكن لإحد منهم بجير، وما زال السيف يسطع والفرسان عن الخيول تقع والأبطال في هدير والأمر مهول عسير، حتى صارت طوايف الغز أقساماً ثلاثة:

قسم نجا بالفرار بعد أن ذاق من الحرب ما خشى منه الدمار فولوا هاربين في وسيع الأقطار، وقسم أخذ أسيراً وذاق ذلاً كبيراً، وقسم هلك بالسَّيف مع الهالكين.

وإضمحل أمرهم أجمعين، و لم يذوقوا من الحرب طول أعمارهم ما ذاقوه في هذه المرة، لإنهم كانوا يقولون إن كل من حاربنا في البر الواسع الفسيح ونحن على ظهور خيولنا لا يقدر علينا أبداً ولو كان في (ص٤٢) قوة عنترة وجموع كسرى وقيصر، فعاملهم حضرة صاحب السعادة في هذه المرة في الحرب بما يطلبون، و لم يحاربهم إلا وهم في البر والوادي المتسع، وهم على ظهور خيولهم حتى أن إبراهيم بيك الكبير سقط جواده من تحته مرتين، ولولا هروبه حتى أدركه بعض أجناده بجواد ركبه وفر هارباً على وجهه، وكذلك ممن فر هارباً في هذه المرة عثمان بيك حسن، وكان مشهوراً بالشجاعة وملاقاة الأبطال، إلا أنه لم يحارب طول عمره مثل حضرة أفندينا المؤيد من رب الأرباب[١]، وفي كل مرة في الحروب لا يتكل حضرة صاحب السعادة على الإكتفا بأمره لأمراء عساكره بالحرب بل كان هو الذي يتولى التدبير، ثم بعد ذلك يباشر الحرب بنفسه وهو كالهِزَبْر الطالب للفريسة لا يرتاع من زمجرة أرعاد، ولا يحتفل بهذيان إيعاد، ولا يبالي بكثرة الجموع، ولا يهوله كونهم سدوا بكثرتهم الأطلال والربوع، بل يقدم إقدام الليث الكرار ويحمل حملات النمر أبي المغوار، فهو الفارس الغضنفر والشجاع القسور.

---

[١] - كان رأي الجبرتي في عثمان بيك حسن مثل ذلك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٤٦،٤٨.

ومن عجيب الإتفاق الذي يؤرخ (ص٤٣) ويسطر في الأوراق أن شاهين بيك حين رأى حضرة الصدر العلي وهو في وسط الميدان يجول بسيفه على الأبطال والفرسان أخذته رعدة شديدة وحالة خوف مريعة مكيدة، ونظر إلى جماعته وقومه فخاف على نفسه وعليهم من الهلاك في يومه وصار في حيرة من أمره، وشاهد حرباً ما سمع به في عمره، فركن إلى الفرار وولى هو وقومه الأدبار، ثم أنه إلتجا إلى محل مكث فيه وهو ممتليء بالخوف وفزع من السيف بما قرقر منه الجوف، وندم على ما سلف منه من الفعل القبيح، وتذكر ما كان فيه من النعيم وخصب العيش الصليح، وتفكر إماراته السابقة وأحواله التي كانت منتظمة متناسقة، فما وسعه إلا إنه أرسل لحضرة صاحب السعادة يترامى على تقبيل أقدامه ليعيده إلى شأنه الأول في سالف أيامه، وكرر الإرسال والإستشفاع، وترجى من حضرته العفو عسى أن يدرك بقية من الراحة والإنتفاع، ومازال يرسل طالباً لعفوه راجياً حسن صفحه وصفوه، حتى رق له حضرة صاحب السعادة (ص٤٤) أبقاه الله وعفى[1] عنه بشرط أنه يسكن في مصر في أحد منازلها ولا يتوجه لنحو الجيزة، ولا ينظر إلى مشارعها ومناهلها، ويكون في أدبه مع من يلوز به[2]، وهذا لعمري أكبر دليل على سعة صدر الصدر العلي وحبه للعفو والشفقة، فإنه تحقق من شاهين بيك الضعف والمذلة، وعرف أن الغفلة فيه وفي قومه جبِلّه، وذلك أيضاً أعظم برهان على سخافة عقل شاهين، وأكبر دال على إنه رجل لامروءة له، بل هو حقير مهين، فإنقسمت جماعته إلى قسمين: قسم تبعه وإنتمى إليه،

---

[1] – في نسخة [دار الكتب] "عفا".

[2] – أنظر مزيد من التفاصيل عن هذه الحادثة في الجبرتي، فقد ذكر أن شاهين بيك حضر إلى القاهرة –بعد أن أرسل محمد علي سليمان بيك البواب لإجراء الصلح مع الأمراء– في ١٠ شوال سنة ١٢٢٥هـ/٨ نوفمبر ١٨١٠م مع بعض أتباعه وقابل محمد علي وأنعم عليه مرة أخرى. أنظر الهامش رقم ٥٢ ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٢٣ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٠٠٧، ١٠١٦، ١٢٩٩–١٣٠٧، ١٣١١.

وقسم نابذه بالخلاف و لم يركن إليه، بل سبقوا بطلبهم العفو والصفح من حضرة صاحب السعادة، وعلموا أن ما كان منهم ومنه سوء رأي وجنون، وندموا على ما كانوا يصنعون، فأجابهم حضرة صاحب السعادة وعفى[1] عنهم وصفح عن جميعهم ورجعوا إلى سكنى مصر في منازلهم، ومكثوا نحو شهر ساكنين ساكتين، لا يتجافون ولا يضطربون، وكان معهم ممن صفح عنه أفندينا سليمان بيك البواب[2] وجماعته، فمكث كذلك وأتباعه بمصر إلا أنهم صاروا سيرة شهيرة عند أهل مصر بالغفلة (ص٤٥) والحمق، وإشتهروا بالصقاعة والرذالة، وعرفوا بالمهانة والسفالة، وأغرب من ذلك أن حدثتهم نفوسهم بالغدر والخيانة، وزاولت لهم فكرتهم نقض العهد والأمانة، وصاروا يترددون إلى بعضهم البعض ويتحدثون بالخراف والهذيان، وظهرت منهم بعض أشيا توجب لهم الضرر والخذلان[3]، ورجعوا إلى طلبهم من حضرة صاحب

---

[1] - في نسخة [دار الكتب] "عفا".

[2] - **سليمان بيك البواب**: أحد طغاة المماليك من مماليك الألفي بيك، كان كاشفاً لمنوف، قاوم محمد علي باشا في البداية ثم خضع له بعد ذلك، وفي سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م ساهم في عقد هدنة بين قوات محمد علي بقيادة حسن باشا من جهة، وقوات شاهين بيك الألفي من جهة أخرى. وقد قتل كل من شاهين بيك الألفي وسليمان بيك البواب في مذبحة المماليك بالقلعة سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٤١، ٤٤، ٩٩، ١٢٢-١٢٣، ١٢٧-١٢٨ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٢٢٨، ج٢، ص٣٦٠، ج٣، ص١٣١٥.

[3] - كان شاهين بيك يتصل في ذلك الوقت بالفرنسيين لإستمالتهم لتأييد قضية المماليك ضد محمد علي بعد فشله مع الإنجليز، كما راسل قائد الأسطول الإنجليزي في البحر الأبيض بعد خروج الإنجليز من الإسكندرية يطلب مساعدته في إستعادة سلطة المماليك في مصر، ووقعت تلك الرسالة في يد محمد علي عن طريق القنصل الفرنسي دروفتي صديق محمد علي، الذي كان يخشى من رجوع الإنجليز مرة أخرى إلى مصر. دودويل:محمد علي، ص٣٨-٤٢ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٢٩-٣٠ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٦٢٦-٦٢٧، ٦٢٨، ج٣، ص١٢٧٥-١٢٧٩، ١٢٨٢، ١٣٠٧-١٣٠٨.

السعادة الإنعامات وإبذال[١] العطايا وتوالي الإغداقات، وإشتهرت عنهم سيرة قبيحة وصورة شنيعة غير صليحة، فما كان من حضرته إلا أن أرسل إليهم جميعاً فطلعوا للقلعة مستعدين بالسلاح الكامل، فأمر حضرته العساكر بالإحاطة بهم، فأحاطوا بهم[٢] أجمعين وضربوهم بالرصاص وبذلوا فيهم السيف حتى ذلوا صاغرين، فقتل منهم جمع كثير[٣]، وحصل الباقي في أيدي العساكر فهو مهين أسير، وأزيلت دولتهم إزالة

---

[١] – في نسخة [دار الكتب] "بَذْل".

[٢] – يتحدث هنا المؤلف عن مذبحة المماليك بالقلعة من وجهة نظره. وقد وصف الجبرتي هذه الحادثة وصفاً تفصيلياً، فقد أضفى محمد علي على هذه الحادثة طابع الحوادث العادية في ذلك الوقت حيث تمت في سرية تامة بالاتفاق مع أقرب قواده اليه، فقد دعا أمراء المماليك وأتباعهم وأعيان الدولة في ٥ صفر ١٢٢٦هـ/١ مارس ١٨١١م للاحتفال بتنصيب ابنه طوسون قائداً للجيش المرسل الى الحجاز، وحضر الجميع الى القلعة وخرج موكب الجنود وأعيان الدولة ومنهم أمراء المماليك، وعند انتهاء خروج الجنود أمر صالح قوج بغلق باب العزب وأعطى لأتباعه الاشارة المتفق عليها، وكان الأمراء قد وصلوا في هذا الوقت الى المضيق الصخري المنحدر الضيق كثير التعاريج الموصل الى الباب، حيث يصعب على المار به متابعة من أمامه أو من خلفه، فحوصروا بين ساحة القلعة والباب مما سهل مهمة جنود صالح قوج في اصابتهم بالرصاص من أعلى المضيق، وتتبع الجنود من هرب في أنحاء القلعة حتى ذبح الجميع، ثم نزل الجنود الى القاهرة لتتبع من لم يحضر الموكب فذبحوه، بعث محمد علي بعد ذلك الى جميع الأقاليم بقتل الموجود بها من المماليك وأرسال رؤوسهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص١٢٧-١٣١ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٢٨-٢٢٩ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٠٨٢-١٠٨٣، ١٣١١-١٣٢٠.

[٣] – حدثت مذبحة المماليك الشهيرة بالقلعة يوم ٥ صفر سنة ١٢٢٦هـ/١ مارس ١٨١١م، وقتل فيها نحو الألف من المماليك وأتباعهم، وفي ٩ صفر/٤ مارس أرسل محمد علي رسالة الى الصدر الأعظم يخبره فيها بالحادثة، ثم أرسل رؤوسهم بعد ذلك الى الأستانة بناء على طلب الدولة لذلك اثباتاً لما ذكره من متاعبه مع المماليك وتعطيل سفر جيشه الى الحجاز، ووردت تلك الحادثة في

تامة، وبطلت صولتهم وحلت بهم الطامة، وكان لهم مع حضرته[١] الحروب العديدة، وقهرهم المرات وأذاقهم الأهوال الشديدة، ولو لم يكن لهم من الذل إلا يوم وفا النيل[٢]

العديد من المصادر العربية والأوروبية على السواء. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٢٧-١٣٠ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢ص٢٣٠ ؛

Edouard Driault, Mohamed Aly et Napoleon, 1807-1814, Paris, 1936, 112-115; Maxime Weygand, Histoire Militaire de Mohammed Aly et des ses Fils, Paris, 1936, Vol. I, 59-66 ;

وأنظر أيضاً: شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٣٢١، ١٣٢٦-١٣٢٧.

[١] - في نسخة [دار الكتب] مشطوب على "حضرته" ومكتوب "دولته" بخط مخالف.

[٢] - ذكر الجبرتي حادثتين بين محمد علي والمماليك في يوم وفاء النيل، كانت الأولى في ٢٠ جماد أول سنة ١٢٢٠هـ/١٦ أغسطس ١٨٠٥م، حين تقدم المماليك وعلى رأسهم عثمان بيك حسن وشاهين بيك المرادي وأحمد كاشف سليم إلى القاهرة في أثناء الإحتفال، ولكن محمد علي والأعيان بلغهم ذلك ولم يخرجوا، فدخلوا القاهرة من الشمال من باب الفتوح حتى وصلوا إلى عطفة الخراطين (الصنادقية) وتفرقوا فرقتين، توجهت الأولى وعلى رأسها الأمراء إلى الأزهر ودخلوا بيت الشيخ الشرقاوي فجائهم السيد عمر مكرم وحذرهم من هذا الموقف المفاجيء وإمكان مهاجمة العسكر لهم، فإنسحبوا إلى باب البرقية وخرجوا من القاهرة، وبالفعل خرج خلفهم حسن بيك الأرنؤدي ولكنه لم يلحق بهم. أما الفرقة الثانية فتقدمت جنوباً إلى باب زويلة، فهاجمهم العساكر ورجع إليهم عساكر حسن بيك وتقهقر المماليك بعد قتال وتفرقوا في الطرقات وحاصر العسكر فرقة منهم بخانقاه السلطان برقوق بالنحاسين وقبضوا عليهم وذبحوا خمسين منهم وأسروا باقيهم، وهربت فرقة أخرى من فوق الأسوار لغلق باب الفتوح وباب النصر عليهم. وكان محمد علي في ذلك الحين يستعد للفرار ففوجيء بالقتلى والأسرى وأرسل رؤوس القتلى إلى استانبول.

أما الثانية فكانت حين خرج محمد علي من القاهرة في ١٠ رجب سنة ١٢٢٥هـ/١١ أغسطس ١٨١٠م لتعزيز جيشه بالصعيد وإنتصاره على المماليك عند دلجة بالمنيا، وأسره لعدد من المماليك، وصلحه مع عدد من الألفية وفرار الباقين إلى الجنوب. أنظر عن هذه الحادثة: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٤١-٣٤٣، ج٤، ص١٠٠،١١٩ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٣٣١-٣٣٢.

وما شاهدوا فيه من الوبا الوبيل لكان ذلك (ص٤٦) كافياً وغير ذلك من المراتب[1] المعروفة المشاهدة عند أهل مصر وقطرها التي لا حاجة إلى ذكرها للعلم بها والإحاطة من كل الناس بتفاصيلها[2].

ومازال حضرة صاحب السعادة يطردهم بقوته وعزمه، وعظيم تدبيره وجليل حزمه، حتى أخرج بقيتهم من أقطار مصر بالكلية وإنهزموا إلى بلاد البربر و السودان، ورجع منهم[3] أناس بالأمان، وكل من طلب منهم آماناً يعطيه ويعفو ويصفح عنهم، فرجع بعضهم وهم أناس قليلون إلى مصر، وسكنوها تحت ظل إنعامه وحوطة أمانه، فأعطى كلاً كفايته، فحسن حالهم وصلح أمرهم ورجعوا عن أخلاقهم السابقة،

والمعروف أن إحتفال وفاء النيل أحد أهم الإحتفالات الهامة والمبهجة على مدار العام، وهو اليوم الذي يكسر فيه الخليج ويسمح لمياه النيل (الفيضان) بأن تملأ ثانية خلجان وترع القاهرة، معلناً عن بداية سنة ضريبية جديدة على الأراضي الزراعية، كما إنها مناسبة للعامة من المواطنين للتعبير عن فرحتهم بإنسياب المياه في خلجان القاهرة. أنظر وصف معاصر الإحتفالات بوفاء النيل في سنة ١٨٣٤م:

Edward W. Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, London, 1860, 488-498.

[1] – في نسخة [دار الكتب] مشطوب على الباء الأخيرة فأصبحت "المرات".

[2] – نزل العساكر لتتبع بقايا المماليك بالقاهرة وذبحوا من وجدوه، كما أرسل محمد علي لكل حكام الأقاليم لتتبع المماليك وذبحهم، وكان متولياً على إقليم المنيا في هذا الوقت محمد بيك طبوظ أغلي لمتابعة تصفية المماليك، وهرب من إستطاع إلى دنقلة والسودان ومنهم إبراهيم بيك الكبير وعثمان بيك حسن، ثم أرسل محمد علي تجريدة بقيادة مصطفى بيك ابن أخته في ٢٣ صفر سنة ١٢٢٦هـ/١٩ مارس ١٨١١م إلى الصعيد، ثم أرسل تجريدة أخرى لمحاربة بقايا المماليك بأبريم من بلاد النوبة وقتلوا كثيراً منهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٢٨-١٣١، ١٣٢، ١٣٦، ١٤٢-١٤٣ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٣٤ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٠٨٢-١٠٨٣، ١٣١١-١٣٢٠، ١٣٣٠.

[3] – في نسخة [دار الكتب] "منه".

وصارت حالتهم الآن في الأنقياد لحضرته حالة صادقة وعرفوا أنفسهم أنهم أتباع له وخدمه، وأنهم أرقاؤه ثم عتقاؤه بلا ريب ولا تهمة، فعكفوا على الدعا لحضرته والطلب من الله لإدامة دولته[١]، و لم يبق منهم أحداً طريداً سوى بعض أشخاص نحو السبعة أو الثمانية ومعهم نحو إثنى عشر عبداً، فجملتهم مع أتباعهم لا يوفون عشرين (ص٤٧) رجلاً، فزاد بهم الخوف والفزع وصاروا يفرون من أرض إلى أرض ومن قطر إلى قطر حتى وصلوا إلى أرض مدينة طرابلس الغرب فنزلوا هناك في كنف حضرة يوسف باشا، فأجازهم السكنى في طرف من جهاته، ورتب لهم قوتاً يكفي مثلهم، وطلبوا أن يقابلوه فلم يسمح بذلك أصلاً، وذلك إجلالاً ومراعاة لحضرة صاحب السعادة، وقال هؤلاء لا يقابلوني ولكونهم لاذوا ببلدي وإلتجأوا بي يكفيهم الآمان وعدم إضرارهم في وقت من الأزمان، ولولا إلتجاؤهم بي ووقوعهم في عرضي ما كنت أقبلهم أبداً، لخروجهم عن طاعة حضرة الصدر الكبير محمد علي فيكفيهم الأمنُ وأكل العيش[٢]، وهم هناك إلى الآن بهذه الحالة كما أخبرني الثقة ممن كان هناك من التجار[٣].

---

[١] - نزل العساكر لتتبع بقايا المماليك بالقاهرة وزبجوا من وجدوه، كما أرسل محمد علي لكل حكام الأقاليم لتتبع المماليك وزبجهم، وكان متولياً على إقليم المنيا في هذا الوقت محمد بيك طبوظ أغلي لمتابعة تصفية المماليك، وهرب من إستطاع إلى دنقلة والسودان ومنهم إبراهيم بيك الكبير وعثمان بيك حسن، ثم أرسل محمد علي تجريدة بقيادة مصطفى بيك ابن أخته في ٢٣ صفر سنة ١٢٢٦هـ/١٩ مارس ١٨١١م إلى الصعيد، ثم أرسل تجريدة أخرى لمحاربة بقايا المماليك بأبريم من بلاد النوبة وقتلوا كثيراً منهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٢٨-١٣١، ١٣٢، ١٣٦، ١٤٢-١٤٣ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٣٤ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٠٨٢-١٠٨٣، ١٣١١-١٣٢٠، ١٣٣٠.

[٢] - لم يذكر الجبرتي أن أحداً من أمراء المماليك قد ذهب إلى طرابلس الغرب، بل ذكر أن الذي نجا من القتل هم أحمد بيك زوج عديلة هانم بنت إبراهيم بيك الكبير لوجوده في بوش من قرى بني سويف أثناء الحادثة، فهرب إلى باقي أمراء الصعيد عند إبراهيم بيك الكبير وعثمان بيك حسن، ثم

وبالجملة فقد شاهدتهم سابقاً وهم في دولتهم وعزهم وكبير صولتهم وكثرة عساكرهم وأجنادهم وهم في مصر وأقطارها السنين العديدة والمديدة، فما رأيت فيهم صاحب تدبير ولا إنساناً له الناس (ص٤٨) بالكمال تشير، بل كانوا مغفلين ظالمين وكنت ممن ظلموه، حيث كانت لي حصة إلتزام في بلد كان بها كفايتي وكفاية أهلي، فإنتهبها بالظلم والقهر عثمان أغا[١] شقيق لاجين بيك[٢]، وجهة أخرى أخذها ذو الفقار أغاة الينكشارية[٣]، فا لله تعالى يجازيهم في الآخرة بما صنعوه جزاء وفاقاً، وكفاهم ما إتفق لهم من الذل بقدوم الفرنسيس مما هو معلوم شهير، وحسبنا ا لله ونعم الوكيل[٤].

تشتتوا بعد ذلك ببلاد السوادن. أما أمين بيك الألفي الذي تسلق من القلعة -أو لم يدخل القلعة أصلاً- وهرب إلى الشام، حيث أقام بطرابلس وإلتحق بالجيش العثماني، كما هرب إلى الشام أيضاً عدداً من الكشاف والمماليك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣١ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٠١١، ١٣٢٠، ١٣٢٩، ١٣٣١. وأنظر عن يوسف باشا القره مانلي والي طرابلس الغرب (١٧٩٥-١٨٣٥م): شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٨٥٦، ٨٦٥-٨٦٦ ؛ محمد عبد الكريم الوافي: في تاريخ العرب الحديث، يوسف باشا القرماني والحملة الفرنسية على مصر، طرابلس سنة ١٩٨٤.

[٣] - يتضح هنا أن الكاتب يعتمد على المقابلة الشخصية كمصدر لمعلوماته.

[١] - عثمان أغا شقيق لاجين بيك، لم نعثر على ترجمة له.

[٢] - لاجين بيك عثمان أغا شقيق، لم نعثر على ترجمة له.

[٣] - ذو الفقار أغا الإنكشارية، لم نعثر على ترجمة له.

[٤] - يبدو أن هذه الحوادث هي التي جعلت الشيخ الرجبي يتجنى على المماليك وينحاز إلى محمد علي باشا. ويذكر الجبرتي تصديقاً لهذه الحوادث أن المشايخ إجتمعوا عند إبراهيم بيك الكبير في ٤ رجب سنة ١٢١٨هـ/٢٠ أكتوبر ١٨٠٣م لمناقشته في حصة الإلتزام التي أخذت بالحلوان أيام العثمانيين وإستولى عليها الأمراء، فطمأنهم على عادته. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٦٦.

الفصل الثاني

في قمع شوكة الضالين وإزالة الطوايف المفسدين الفاسقين، وهم الوهابية وإخراجهم من بلاد الحرمين ومدينة الدرعية وإزالة رسومهم وإبطال آثارهم قبحهم ا لله

كان إبتداء أمرهم[١] أن رجلاً من أجلاف الناس جاء إلى أرض مدينة مصر لا يعرف له مبدأ عمر، ولا يعلم منشؤه بأيّ قطر، وكان يظهر التنسك

---

[١] - نشأت دعوة محمد بن عبد الوهاب في المنطقة الشرقية من شبه الجزيرة العربية، واعتنقها أهل تلك الجهة ومحمد بن سعود أمير الدرعية في منتصف القرن ١٨م، وقد أرسل لهم بيوم سليمان باشا حاكم بغداد في سنة ١٢١٢-١٢١٣هـ/١٧٩٧م حملة للسيطرة على إقليم الإحساء بمساعدة عرب بنو خالد الذين تخلوا عنه فأفشلوا حملته ثم أرسل حملة أخرى في سنة ١٢١٣-١٢١٤هـ/١٧٩٨م بقيادة علي باشا الكيخيا ولكنها هزمت على يد الأمير سعود، وفي سنة ١٢١٧-١٢١٨هـ/ ١٨٠٢م قام الأمير سعود بعد توليه حكم الوهابيين بحملة على مدينة كربلاء وإستولى عليها وحطموا ضريح الإمام علي ونهبوا المدينة، وامتدت الدعوة بعد ذلك بالقوة في شبه الجزيرة حتى احتلوا الطائف في نهاية سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٣م، وعين أحمد باشا والي دمياط محافظاً لمكة في ٢٥ ذي القعدة سنة ١٢١٧هـ/١٩ مارس ١٨٠٣م وزود في القاهرة بجيش لمقاومة الوهابيين، وذلك لإنتشارإشاعة عن مهاجمة الوهابيين لمصر في ذلك الوقت، وقد إستولى الوهابيون على مكة على يد عبد العزيز بن سعود في موسم حج سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٣م من غير حرب وولى عليها الشريف عبد المعين وولى قضائها للشيخ عقيل، وعقد مجلساً بالكعبة أبرز فيه البدع والمحرمات التي تخالف الكتاب والسنة، وهدم قبة زمزم والقباب التي حول الكعبة والأبنية التي أعلى الكعبة، وانتهى في هذا الوقت حكم عبد العزيز الأول بقتله على يد أحد الشيعة، ثم إنسحبوا منها بعد تقدمهم وحصارهم لجدة في ربيع أول ١٢١٨هـ/يونيو ١٨٠٣م لمجيء حيش عثماني إلى الدرعية، حيث أرسلت الدولة أربع باشات من حهة بغداد بالإضافة إلى أحمد باشا الجزار، ووردت أوامر إلى علي باشا الجزايرلي

والي مصر في ذلك الوقت بإعداد أربعة آلاف جندي وتسفيرهم إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين في شوال ١٢١٨هـ/ديسمبر ١٨٠٣م، وأرسلوا إلى مصر في ٢٥ شوال ١٢١٨هـ/٨ يناير ١٨٠٤م لإعداد أربعة آلاف جندي لتعزيز تلك الجيوش، وفي المحرم ١٢١٩هـ/ابريل ١٨٠٤م إستولى الوهابيون على جدة بعد موت شريف باشا، فتصدى لهم الإنجليز بالمدافع وردوهم إلى الطائف، كما صدرت الأوامر إلى خورشيد باشا مصر في ربيع ثان ١٢١٩هـ/يوليو ١٨٠٤م لإعداد خمسمائة جندي وإرسالهم إلى ينبع لحفظها ومعهم غلال لتزويد شريف مكة بها، وولوا عليهم علي أغا الوالي، ولكن الذي ذهب بالفعل مائة جندي، كما عين محمد باشا أبو مرق على رأس عساكر الشام للذهاب إلى الحجاز، ولكن وصلت في نفس الوقت أخبار إستيلاء الوهابيين على ينبع، ثم جاء أمر في شعبان ١٢١٩هـ/نوفمبر ١٨٠٥م إلى خورشيد باشا بإرسال أحد كبار الضباط الأتراك بمصر ومعه قوة عسكرية لتدعيم محمد باشا والي جدة، وفي أوائل سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م إستولى الوهابيون على مكة بعد حصارهم لها وأضطر شريف مكة إلى الدخول في طاعتهم سلماً، ثم إستولوا بعد ذلك على المدينة بعد حصارها عام ونصف وأخذوا كل التحف التي بالحجرة النبوية وهدموا كل القباب التي هناك -قبة آدم وقباب ينبع والمدينة- ماعدا قبة النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنهم أخذوا ما بها من هدايا ثمينة من الجواهر وشمعدانات ومائة سيف ملبسة بالذهب والماس والياقوت، وكان الإستيلاء على الحرمين بمثابة صدام مباشر مع الدولة العثمانية، ثم شن سعود في سنة ١٢١٨-١٢١٩هـ/١٨٠٣م و١٢٢١-١٢٢٢هـ/١٨٠٦م هجوماً على مدينة النجف الأشرف -ثاني المدن الشيعية المقدسة- جنوب العراق، غير أن الهجمات السعودية لم تستطع الإستيلاء على مدن العراق والإحتفاظ بها، ومنعوا دخول قافلة المحمل المصري والشامي من سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م، وطردوا أغوات الحرمين وقاضي المدينة وقاضي مكة في سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م ومنع المحمل من المجيء الثلاث سنوات التالية، وعين يوسف باشا المعدني الصدر الأعظم السابق في ذي الحجة ١٢٢٣هـ/يناير ١٨٠٩م للسفر للحجاز على أن يقوم محمد علي بتجهيزه، وكذلك سليمان باشا والي بغداد ليهاجم الدرعية، وواصل الوهابيون زحفهم الى الشام شمالاً فوصلوا إلى حوران و الكرك، بل وإلى السويس، وفشلت جيوش العراق والشام في السيطرة عليهم، وأرسل سعود حملة على حدود الشام في سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م مما دق جرس الإنذار في دمشق وأدى إلى عزل يوسف باشا، وبذلك جاء دور مصر وطلبت الدولة العثمانية المساعدة من محمد علي الذي إستطاع تحطيم قوة الوهابيين بعد ذلك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٢٠،

والصلاح، ويسمى عبد الوهاب[١]، وكان يحضر درس الفقه بالأزهر على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه فمكث على ذلك برهة من الزمان (ص٤٩) ثم سافر إلى

٢٣٤، ٢٣٥، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥-٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٧٨، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٠٦، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٣، ٣٢٨، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٤٩، ج٤، ص٥-٦، ١٦، ٥٠، ٥١، ٥٣-٥٤، ٦٠، ٧٤، ٧٨، ٨٤، ٨٥-٨٦، ٨٩، ١٠٢، ١١٩ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص٢١٣، ٢١٧ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج١، ص٦٥-٦٦ ؛ الرافعي: عصر محمد علي، ص١٢١-١٢٤ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٥٧، ١٨٨-١٩١، ١٩٨، ٢٣٥، ٢٨٤-٢٨٥، ٢٩٩، ٣٢٧، ٣٣٤ ج٣، ص٩٨٥-٩٩٠، ١٠٠٦-١٠٠٧ ؛ وأنظر أيضاً:

P.M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, Ithaca, Cornell University Press, 1992, 153-154.

[١] - **عبد الوهاب:** ينسب مذهب الوهابية إلى محمد بن عبد الوهاب بن سليمان، وكان جده سليمان قاضياً في مدينة العينية التي ولد بها محمد بن عبد الوهاب، وقد أخذ محمد بن عبد الوهاب عن أبيه وعن كثير من علماء مكة والمدينة التي أقام بها بعض الوقت، ثم خرج منها إلى البصرة، ولم تلق دعوته قبولاً حسناً بالبصرة، فإنتقل منها إلى العينية سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦-١٧٢٧م، وفي سنة ١١٥٣هـ/١٧٤٠-١٧٤١م توفى الشيخ عبد الوهاب فأظهر ولده محمد الدعوة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك البدع، ونصره محمد بن سعود أمير الدرعية في سنة ١١٥٧هـ/١٧٤٤م، والذي حمل أهلها على متابعته، وكانت "موضى" زوجة الأمير محمد بن سعود قد إستمعت إلى الشيخ وحثت زوجها على نصرته، وكان إنتقال محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية سنة ١١٥٨هـ/١٧٤٥م، وفي رواية أن محمد بن عبد الوهاب ولد سنة ١١١١هـ/١٦٩٩-١٧٠٠م وتوفى سنة ١٢٠٦-١٢٠٧هـ/١٧٩٢م، وفي رواية أخرى أنه ولد سنة ١١١٥هـ/١٧٠٣-١٧٠٤م وتوفى سنة ١٢٠٦هـ/١٧٩١-١٧٩٢م. وقد صنف محمد بن عبد الوهاب عدة مؤلفات في أصل الإسلام وتقرير التوحيد، منها كتاب "التوحيد"، وكتاب "كشف الشبهات"، وكتاب "الكبائر والمسائل" وغيرها، بالإضافة إلى الفتاوى والمراسلات الفقهية. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٢٠، ٢٥٣، ٢٥٥-٢٥٧، ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص٩٨٥ ؛ صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، بيروت سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، ص٣٥-٥٣ ؛ السيد محسن

أرض الحرمين ثم إلى بلاد نجد، ودخل بلد الدرعية[1]، فوجد أهلها رعاعاً من الناس عليهم المذلة للعرب من سائر الأجناس، وكانت العرب تدخل في تلك البلدة ويأخذون منها ومن أسواقها كل ما يطلبونه ويشتهونه من المأكل والمشرب والملبس، ويدفعون فيما قيمته عشرة دراهم درهماً ودرهمين، ومن لم يرض أن يعطيهم بذلك الثمن أخذوا منه ذلك قهراً وآذوه الإيذا البالغ، وربما نهبوا ما لديه من ماله وعرض تجارته، وربما دخلوا البلد وفعلوا بها جهاراً كلما أرادوه من نهب وسلب وقتل [وهذا دأبهم][2] على الدوام، وكان أهل هذه البلدة في خوف شديد مدة أعمارهم، ومن لم يكن له صاحب وصاحبان[3] من قبائل العرب القريبة منهم لا يعرف أن يجلس مطمئناً بداره أبداً، وكانت هذه حالتهم على الدوام، فـإتفق حين دخول عبد الوهاب بها وسكناه فيها تكلم مع أهل البلد من عقلايها وكبارها وصار يوبخهم بالألفاظ الصعبة ويقول لهم كيف تصبرون على أمثال هؤلاء الصعاليك وهم يدخلون عليكم ببلدكم في كل وقت، (ص٥٠) ويفعلون معكم تلك الأفعال الشاقة على النفوس، فإنه لا

الأمين: كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب، كتبخانة برزك اسلاه (د. ت)، ص٣-١١.

[1] - **الدرعية:** تقع مدينة الدرعية بالمنطقة الجنوبية من إقليم نجد بالمملكة العربية السعودية، وقد أطلق على تلك المنطقة الرياض لإقامة كثير من أمراء البيت المالك قصورهم في أرجائها، وتتألف المنطقة الجنوبية من المدينتين الكبيرتين: الرياض العاصمة، والدرعية وملحقاتها. إتخذها الوهابيين عاصمة لهم في قلب الجزيرة العربية، إستولى عليها إبراهيم باشا في ذي القعدة ١٢٣٣هـ/سبتمبر ١٨١٨م بعد حصار دام ستة أشهر، ثم دكت دكاً وسويت بالأرض بناء على أوامر من محمد علي نفسه. أنظر: صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، ص٢٢ ؛ Weygand, 108-112; Gabriel Enkiri, Ibrahim Pacha (1789-1848), Le Caire, 1948, 39-57.

[2] - في نسخة [دار الكتب] ما بين الحاصرتين مكتوب بهامش الصفحة الأيسر، وقد وضع الكاتب علامة لتوضيح مكانه بالنص.

[3] - في نسخة [دار الكتب] "صاحب أو صاحبان".

يصبر على ذلك إلا مثل الأرامل من النسا، وأما من كان من جنس الرجال فحاش لله أن يكون بهذه الصفات، وكيف تمكثون طول أعماركم في غاية الضرر والذلّ ونساؤكم وأولادكم وأموالكم لا أمان لهم من هؤلاء الأعراب الأجلاف، فقالوا له يا شيخنا وكيف نصنع ونحن أناس ضعاف وهؤلاء أعراب ذو قوة وبأس شديد فقال لهم كذبتم، ليس هؤلاء الأجلاف من أهل القوة، وإن تبعتموني وإقتديتم برأيي جعلتهم سيرة وطردتهم عنكم وجعلت بلدكم حصينة مهابة لا يقدر أحد من أمثالهم أن يسطو عليكم ولا يدنو منكم أبداً، فقالوا له نحن لانخالفك في شي أبداً، فدبر أمرنا ونحن معك ومتبعون لأمرك ولا نخرج عن طاعتك مطلقاً، فقال لهم نادو لي بالناس الشبان حتى أريكم ما يكون، فجعلوا له من شبانهم ممن سنه ثمان عشرة سنة وعشرين إلى الثلاثين وأحضروهم له، وكانوا نحو ثلثمائة، فتكلم مع الأغنيا في كونهم يشترون لكل رجل مكحلة بارود وقطعة (ص٥١) سلاح، وهذا كله سراً بينهم، فما مضى خمسة عشر يوماً حتى صار الثلاثماية كاملين السلاح وعلمهم كيف يكون الضرب والكفاح، ثم أرسل للأسواق أنه متى دخل الأعراب حكم عادتهم وجلسوا في الأسواق يبيعون ويشترون، لا يمكنوهم من الحال الأول، وكل من لا يبيع أو لا يشتري بالقانون [لا بد أن][1] يزجروه زجراً شديداً ويسبوه سباً مكيداً، ولا يخشونهم أبداً، ويكونوا على غاية من الأمن والطمأنينة، فإمتثل جميعهم لذلك وأصبحوا وقد جلسوا في مواضعهم بأسواقهم وطرقهم.

وكان عبد الوهاب قد أظهر الصلاح الزايد وإشتهر بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانوا قلدوه في مذهبه وأخذوا على طريقته، وكان أكبَر صَاحب له وأعظم معين له في أقواله وأفعاله وجمع له هذه الجموع من الشبان المذكورين رجلٌ

[1] – في نسخة [دار الكتب] ما بين الحاصرتين مكتوب في الهامش للتصحيح.

من أهل البلد ومن مياسيرهم يسمى عبد العزيز[1]، فإتفق معه على ما تقدم ذكره، وكان خليطه وصديقه، وكان هو الرئيس على طائفة هؤلاء الشبان، فأمرهم عبد الوهاب على لسان عبد العزيز أنهم متى (ص٥٢) شاهدوا الأعراب قد دخلوا البلد وجلسوا في الشوارع والأسواق يبادرون إلى إغلاق باب البلد ويقف منهم عند الباب مقدار خمسين مستترين، فإذا جاء الأعراب مهزومين إليهم يضربونهم بالرصاص ويقتلونهم قتلة مهولة، وأرسلوا إلى سائر الناس من أهل الأسواق وبقية أهل البلد بأنهم إذا رأوا وقوع الحرب بين الشبان والأعراب يغلقون حوانيتهم، ومن كان به قوة للإعانة فليساعدهم[2]، ومن لم يكن كذلك فليجلس بداره ويحذف عليهم الأحجار من أعالي البيوت هم وأولادهم ونسائهم، وكل من آتى لأحد يريد أن يدخل داره من الأعراب ويطلب من صاحب الدار إدخاله وستره فليدخله فيها في محل منها، فإن كان به قوة قَتْلِه فعل ذلك وإلا أبقاه ويحضر ليخبر بذلك، وأمرهم أن يكونوا على غاية من الإحتراز في ذلك، فإمتثلوا جميعاً لما يريده الله سبحانه وتعالى من إظهار غامض غيوبه التي حارت فيها الأفكار، ثم لما دخل الأعراب كعادتهم، وإنتشروا متفرقين بالأسواق والطرق والشوارع بادر أوليك الشبان إلى إغلاق (ص٥٣) باب البلد وجلس هناك

---

[1] - **عبد العزيز**: هو الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود ثالث الحكام السعوديين، وحفيد سعود الأول بن محمد مؤسس مُلك آل سعود، ولد سنة ١١١٣هـ/١٧٠١-١٧٠٢م وتولى الحكم بعد وفاة أبيه الأمير محمد بن سعود سنة ١١٧٩هـ/١٧٦٥-١٧٦٦م، فإستولى على الرياض ثم القسيم سنة ١١٨٦-١١٨٩هـ/١٧٧٣-١٧٧٥م، وإستطاع أن يمد مُلك آل سعود حتى شمل كل نجد و الحجاز، وقد أغتيل الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م في الطريف بالدرعية، إغتاله رجل كردي شيعي من لواء الموصل في مسجد الدرعية إنتقاماً منه لهجومه على كربلاء. شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص٩٨٥ ؛ صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، ص٧٧-٧٨ ؛

P.M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent , 153.

[2] - في نسخة [دار الكتب] "فليساعده".

الخمسون المعينون لذلك، ومكث معهم أناس متطوعون من أهل البلد، فجاءت الأعراب تصنع كعاداتهم في بيعهم وشرايهم وإيذايهم الذي كانوا يفعلونه على الدوام، فقام إليهم أهل الأسواق وعارضوهم وتظاهروا لهم بالسّب واللعن، فهاجت الأعراب وبادرت بضربهم وقتالهم، وصاحوا على بعضهم البعض، فهم كذلك وإذا بعبد العزيز قد جاهم بالسلاح الكامل وصحبته الشبان المحاربون مائتان وخمسون، وتبعهم من أهل البلد ما ينوف عن مائتين، وصاحوا بالأعراب صيحة شديدة، ونزلوا عليهم ضرباً وقتلاً وجرحاً، فإرتاعت الأعراب وشاهدوا شيأ ما رأوه منهم أبداً، فولوا منهزمين وتفرقوا بالطرق وزاغت أبصارهم وإمتلأوا بالخوف، هذا وأهل البلد رجالاً ونساء وغلمان يصيحون عليهم من الدور ويضربونهم بالحجارة والطوب، وكثرت عليهم الضجات وتوالت عليهم المشقات، وعبد العزيز وجماعته يتبعونهم أينما كانوا حتى مزقوهم كل ممزق، وبعضهم دخل الدور (ص٥٤) فقتل بهَا وهلك فيها ومن رجع منهم مهزوماً يريد الخروج من باب البلد ذاق الهلاك عند الباب ممن جلس هناك من المحاربين وممن معهم من أهل بلدهم، وكان يوماً على الأعراب مهولاً، شاهدوا فيه ضنكاً طويلاً وإذاقهم الله عذاباً وبيلاً، ولم ينج منهم إلا بعض أفراد قليلين إستتروا في جهات مكثوا بها حتى فتح الباب وخرجوا مختفين حتى وصلوا إلى قبائلهم، وبلغ ذلك الخبر إلى سائر القبائل القريبة منهم ثم البعيدة، فصاروا من ذلك في عجب ونزل بقلوبهم الرعب وخافوا من المجيء لذلك البلد، وإمتلأت بلدة الدرعية بالفرح والسرور وشاهدوا الأمن بعد تلك الشرور، وجلسوا في منازلهم مسرورين[١] مطمئنين، وعبد الوهاب يشددهم بقوله وخداعه ويعلم عبد العزيز محاسن تدبيره في سَائر أفعاله، ومن تدبيره لذلك الأمر وإطفاء نار هذا الجمر أنه أمر عبد العزيز أن يبادر ويخرج بعساكره ليلاً إلى أقرب القبايل فيكبسونهم ليلاً ويذيقونهم حرباً وويلاً ليسمع الأعراب بذلك

---

[١] - في نسخة [سوهاج] "سارين"، والتصحيح في نسخة [دار الكتب]، فمكتوب في الهامش "بيان مسرورين"، لأن الكاتب كان قد كتبها بدون واو ثم أضافها بعد ذلك.

(ص٥٥) فيزداد بهم الخوف ولا يحدثون أنفسهم بحربهم ولا الإقدام عليهم لأخذ ثأرهم، فإمتثل عبد العزيز وخرج بالليل ويصحبه نحو الستماية رجل، ومازال سائراً حتى وصل إلى قبيلة مشهورة وكبسوها بالظلام وصاحوا صيحة واحدة، فبادرت الأعراب مضطربين فزعين يدافعون عن أنفسهم وأولادهم، فما مكنوهم من ذلك وبادروا عليهم بالرصاص والسيف والرمح وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فولوا الأدبار وتركوا الأموال والنسا والأولاد، فساقوا أبلهم ونهبوا أموالهم وشتتوهم في البوادي، وصمت أسماعهم فلا يقدرون على إجابة المنادي، ثم رجع عبد العزيز بقومه منصوراً ودخل بلده وكانت له الأفراح وكثر بأهل البلد السرور والإنشراح، وحصل عند الأعراب الخوف والفزع وزال ما كان عندهم في أهل الدرعية من الطمع، ثم بعد أيام قليلة خرج عبد العزيز بإشارة عبد الوهاب عليه وصحبته نحو الألف رجل، فسار بهم حتى وصل إلى قبيلة أخرى فحاربهم بالنهار، وولوا بين يديه في (ص٥٦) تلك القفار، وقتل رجالاً وجندل أبطالاً ونهب أبلاً وأموالاً، ثم عطف في رجوعه على قبيلة أخرى صنع بها كذلك، فهابته العربان وأرسلت إليه تريد المصالحة معه والأمان، فأجابهم وشرط عليهم شروطاً وجعل من كل قبيلة رجالاً معدودين وأناساً معلومين وقيدهم بكونهم[١] أجناده وعسكره وتحت أوامره، وأيّ وقت طلب منهم القدوم إليه أو السير مع من يرسله إليهم لحرب كل من أراد فعليهم الطاعة والإجابة، وفرض لكل رجل معلوماً له يكفيه في كل شهر، وكان يأخذ منهم زكاة الأبل والزروع والثمار في كل عام شيأ كثيراً، فيخرج منه للطائفة المعدودين للخدمة والمجعولين أجناداً له ما يكفيهم من أصل ذلك الإيراد، والباقي يأخذه هو فيدفع منه شيأ مقدّراً للفقراء والقرا والفقها بما فيه كفايتهم، وفرض لعبد الوهاب وأهله شيأ كثيراً ومقداراً جزيلاً غزيراً، وكذلك المنتمين[٢] إلى عبد الوهاب، وإستقامت سيرة عبد العزيز وكثرت أتباعه وإزدادت

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] "بكونه".

[٢] - في نسخة [دار الكتب] "للمنتمين".

عساكره، وصار هو الأمير الكبير المشار إليه بالإجادة (ص٥٧) والرياسة والحرب والطعن والضرب، وسار سيرة حسنة حميدة لا يظلم ولا يرضى بالظلم، وكان عبد الوهاب عندهم هو سيد علمايهم ورئيس طوايف فقهايهم ولا يخالفه عبد العزيز أبداً، وإتفقا على ذلك الشأن ومكثا كذلك مدة من الزمان حتى صار تحت يد عبد العزيز أرض نجد بقبايلها والمعظم من جهَات[1] الحجاز، وكل قبيلة خالفت أمره يرسل من عنده رجلاً وصحبته مقدار خمسين رجلاً ويعطيه أوراقاً صغيرة مكتوباً فيها للقبائل التي يمر عليها أن يخرج معه في طاعته كذا كذا رجلاً، وهكذا من كل قبيلة يأخذ رجالاً بحسب الأغراض وعلى قدر الكفاية بما يقوم بتنفيذ الأمر المطلوب لعبد العزيز، فتسير معه الرجال من القبائل ويجتمع الألوف المؤلفة معه ويذهبون فيحاربون كل من كان عاصياً إن كان قريباً أو قاصياً حتى ينقادون لأمره.

ولم يزل هذا صنعه حتى زاد الأمر وكثرت جيوشه وملك إلى أرض الطائف وأطراف الحرمين الشريفين[2] مع أطراف اليمن، ومكث مُدة سنين طويلة حتى هلك عبد العزيز (ص٥٨) وعبد الوهاب، فقام بالأمر بعد عبد العزيز ولده سعود[3]، وكذلك بقى في مكان عبد الوهاب بعض أهله وهم على ما هم عليه، فإشتدت قوة سعود وكثرت أمواله، وخرج عن قوانين أبيه وتخول في النعم ووقع منه الظلم والجور والتعدي على بلاد الحرمين، وما زال يزداد شره ويقوى شأنه وأمره، وزادت عساكره وعظمت قوته وهالت مظاهره وصار له رجال من الفرسان المشهورة، وأتباع من

---

[1] – في نسخة [دار الكتب] "جهَة".

[2] – في نسخة [سوهاج] "الشريفين" مكتوبة مرتين.

[3] – في نسخة [دار الكتب] مكتوب "مسعود" في باقي النص، وسوف نصححها بعد ذلك دون إشارة. وقد ذكره الجبرتي أيضاً بأسم "مسعود". أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٣٥، ج٤، ص١٨٠.

الأمراء المذكورة مثل ابن مضيان[١] والمضايفي[٢] وطامي[٣] وأشباههم، وتعدى طوره وجاء إلى حرب بلاد الحرمين وخرجت إليه العساكر من شريف مكة السيد غالب[٤]،

---

[١] - **ابن مضيان:** أحد أمراء الوهابيين، كان أميراً للمدينة المنورة، قبض عليه في ذي القعدة ١٢٢٧هـ/نوفمبر ١٨١٢م عند أخذ طوسون باشا للمدينة وأرسل إلى مصر ومنها إلى إسطنبول بصحبة لطيف بيك أغات المفتاح حيث طيف بهما فيها، ثم نفذ فيه حكم الإعدام. وقد قتل ابن مضيان في نفس يوم دخوله إسطنبول، وعلقت جثته على باب السراي السلطاني، وذلك في شهر ذي الحجة ١٢٢٨هـ/نوفمبر-ديسمبر ١٨١٣م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٨١ ؛ السيد محسن الأمين: كشف الإرتياب، ص٤١.

[٢] - **عثمان المضايفي:** هو عثمان بن عبد الرحمن المضايفي، أمير الطائف والحجاز من قبل سعود بن عبد العزيز، وقائد قوات آل سعود ضد الحملة المصرية، وهو زوج أخت الشريف غالب، ثم إنضم للوهابيين وأصبح من قادتهم المحاربين، وجمع لهم قبائل العربان سلماً وحرباً، وهو الذي ضم الطائف سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٣م وأصبح قائداً لها بعد فتحها، وهدم قبة ابن عباس التي وصفها الجبرتي بأنها "غريبة الشكل والوصف"، وأرسله سعود بن عبد العزيز والشريف غالب عندما علما بتكليف محمد علي بالقضاء على الوهابيين بجيش إلى المويلح القريبة من الأراضي المصرية، وهو الذي هزم طوسون باشا في موقعة الصفراء والجديدة في سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م، وفر من الطائف بعد جرح جواده في المعركة أمام طوسون باشا في ٢٦ محرم ١٢٢٨هـ/٢٩ يناير ١٨١٣م، ثم قبض عليه، فأرسل محمد علي ابنه إسماعيل إلى إستانبول لتبشير السلطان، وأرسله إلى القاهرة التي وصلها في ١٥ ذو القعدة/٩ نوفمبر من نفس العام، فإستقبله صالح أغا السلحدار ودخل به القاهرة في موكب إلى القلعة حيث حضر مجلس كتخدا بيك، وإستضافه الكتخدا في منزله مكرماً، ثم سافر صحبة نجيب أفندي قبي كتخدا محمد علي ووكيله إلى إسطنبول حيث أعدم هناك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٣٥، ج٤، ص١٧٤، ١٧٩-١٨٠ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٣٤-٢٣٥ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٤٩ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص٩٩٥-٩٩٦؛ صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة، ص١٢٧-١٢٨.

[٣] - **طامي:** هو طامي بن شعيب شيخ عرب العسير، من عشيرة عبد الوهاب، مؤسس المذهب الوهابي، عينه الأمير سعود بن عبد العزيز حاكماً على العسير وتهامة، أخذت منه قنفدة في سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م بعد مهاجمتها براً وبحراً بقيادة محمود بيك وزعيم أوغلي وشريف أغا، ثم حاصر

المصريين وأخذها منهم، ثم هزم الجيش المصري بقيادة عابدين بيك عند اليمن وردهم إلى الطائف بل وحاصرهم بها، وسار إليه محمد علي بنفسه لإنقاذ ابنه طوسون بالطائف، وإضطر طامي وقواته للإنسحاب، ثم توجه إليه محمد علي في صفر ١٢٢٩هـ/يناير-فبراير ١٨١٤م وتقابل مع طامي عند قصر الطور، فهرب طامي وإستولى محمد علي على موقعه، ثم قبض عليه بمكيدة من الشريف راجح، بعد معركة "سبل" سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م، وكان قد قبض عليه قبل ذلك في حصن "مسيلة" بتهامة، وأرسله للقاهرة في ٢١ جماد أول ١٢٣٠هـ/١ مايو ١٨١٥م ومنها إلى إسطنبول حيث أعدم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢١١-٢١٢، ٢١٣، ٢١٩-٢٢٠.؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٥٣، ٥٥، ٥٩-٦٠ ؛ صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، ص١٤١، ١٥١.

[٤] - **الشريف غالب**: تولى إمارة مكة وجدة والمدينة وما كان يضاف إليها من بلاد الحجاز نحواً من سبع وعشرين سنة بعد وفاة أخيه الشريف سرور إعتباراً من سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م. إتصل به نابليون بونابرت وقادة الحملة الفرنسية من بعده في مصر لتنشيط التجارة في البحر الأحمر والإتصال بالهند، وقام بطرد أتباع الدولة العثمانية وحاميتها. سلم مكة بعد حصار طويل إلى الوهابيين في أوائل سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م ودخل في طاعتهم ولكنه لم يكف عن ظلمه للناس، ثم ساعد طوسون باشا في إستمالة عربان مكة والمدينة، حتى قبض عليه محمد علي في حملته ضد الوهابيين في١٥ ذي القعدة ١٢٢٨هـ/٩ نوفمبر ١٨١٣م وأرسله إلى مصر بعد إستيلاء محمد علي على كل ممتلكاته ومتاجره وما في بيته وأرسلها إلى مصر، ووصل إلى القاهرة في ١٧ محرم ١٢٢٩هـ/٩ يناير ١٨١٤، وأنزل ببيت أحمد أغا شقيق كتخدا بيك بعطفة عبد الله بيك بخط السروجية حتى حضرت زوجاته بعد ذلك في صفر/يناير-فبراير من نفس العام، فنقل إلى بيت السيد محمد المحروقي بالغورية ثم إلى بيت لطيف باشا بسويقة العزي بعد إعداده له، ثم أمر السلطان برد كل ما أخذ من الشريف إلى خزانة الدولة، كما أمر السلطان بنفي الشريف غالب إلى سلانيك باليونان، وغادر القاهرة في ١٩ شعبان/٦ أغسطس من نفس العام، وبقى فيها حتى توفى في وباء الطاعون سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص١٥٨، ج٤، ص٥-٦، ١٤٩، ١٧٣، ١٩٧، ١٩٩-٢٠٠، ٢٠٢-٢٠٣، ٢٠٦-٢٠٧، ٢١٢-٢١٣، ٢٦٢ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٢، ص٧٨-٨٢ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٧٩، ج٣، ص٩٩٥، ٩٩٦، ٩٩٧، ١٠٠٨، ١٠٠٩ ؛ السيد محسن الأمين: كشف الإرتياب، ص٤٢-٤٣، ١٢٨-١٢٩ ؛

وكذلك توجه إليه من مصر أحمد باشا[١] وشريف باشا[٢] وغيرهما بالعساكر السلطانية، وما أمكنهم أن يصدوه عن الحرمين، وما زال حتى غلب على شريف مكة فأطاعه

محمد زكريا عناني: مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حملته على الشرق (إضافات)، مجلة الدارة، عدد ٤، السنة ٢١، الرياض سنة ١٤١٦هـ، ص٥-٢٩.

١ - **أحمد باشا**: كان بدمياط من طرف محمد باشا وحضر إلى القاهرة بقواته سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٣م عند صدور الأمر له بالتوجه إلى الحرمين للولاية على جدة والمدينة المنورة ولمحاربة الوهابيين في مكة وأرسلوا له أسلحة وعساكر من الإنكشارية، ولكنه ظل في مصر ليتحد مع محمد باشا وجنود الإنكشارية للتخلص من طاهر باشا وطرد الأرنؤط، وتولى أحمد باشا على مصر بعد مقتل طاهر باشا في صفر ١٢١٨هـ/مايو-يونيو ١٨٠٣ لحين حضور محمد باشا من دمياط، فكانت ولايته يوماً ونصف، ولكن محمد علي أرسل إلى إبراهيم بيك الكبير للحضور إلى القاهرة مع باقي المماليك ليكونوا يداً واحدة، وحاول أحمد باشا تجميع العلماء حوله ولكنه فشل، وأمره إبراهيم بيك بأن يأخذ عساكره إلى الشام ويرحل في خلال يوم واحد، فخرج وتحصن بجامع الظاهر بيبرس في ٦ صفر ١٢١٨هـ/٢٨ مايو ١٨٠٣، وظل ينتظر حضور محمد باشا من دمياط، فحاصره الأرنؤط والمماليك، وحدثت معركة بينهم إنتهت بتسليم أحمد باشا نفسه إلى عثمان بيك البرديسي، وأسكنه في قصر العيني، وأُخرج دون سلاح إلى الشام، ثم وصل في نفس الشهر خطاب من الدولة بتوليته قائمقام على مصر لحين حضور والي جديد وهو علي باشا، فكانت مدة توليته على مصر ثلاث وعشرون ساعة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٣٩، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٤، ٢٨٧ ؛ نقولا ترك: مذكرات،ص١٣٢-١٣٥، ١٥٠ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص٥٢.

٢ - **شريف باشا**: كان دفتردارا بمصر حتى عزل في رجب ١٢١٧هـ/ أكتوبر ١٨٠٢م، ثم تولى على جدة في ١٧ رجب ١٢١٧هـ/١٣ نوفمبر ١٨٠٢م، وخرج موكبه من مصر إلى السويس للذهاب إليها في ١١ ذو القعدة ١٢١٧هـ/٥ مارس ١٨٠٣م، ثم توجه براً من ينبع إلى جدة، وترك مكة مع شريفها إلى جدة في ٢٠ ذو الحجة ١٢١٧هـ/١٣ ابريل ١٨٠٣م، وتحصن بها مع الشريف غالب بعد أخذ عبد العزيز بن سعود لمكة في أواخر سنة ١٢١٧هـ، وحاصره الوهابيون في جدة تسعة أيام دون جدوى، وكانت الدولة قد أرسلت مع علي باشا الجزايرلي عساكر لتعزيز شريف باشا سنة ١٢١٨هـ/١٨٠٤م، فأخرجهم محمد علي والأمراء المماليك إلى الصالحية وقطعت

وجعله الوهابي أكبر قومه وسماه أمير الأمـرا، وإستولى على مكـة ثـم سـار منهـا إلى المدينة الشريفة، فحاصرها حصاراً شديداً حتى عدمت الأقوات بها بالمرة، ثـم أطـاعوه من شدة الجوع والخوف، فإستولى على المدينة المنـورة (ص٥٩) علىٰ سـاكنها أفضـل الصلاة والسلام وفعل بها طوائف الوهابية من الشر والقبائح ما يزيـد عـن الحـد حتـى صعد منهم العدد الكثـير والجـم الغفـير علـى سـطح المسـجد النبـوي وأحـاطوا بالقبـة الشريفة وملأوا دوائرهـا جميعـاً بـالبول والغـائط، وصـار ذلـك شـعارهم قبحهـم ا لله أجمعين[١].

وعقائدهم الزائغة معروفة غير منكورة، بـل مشـهورة مذكـورة، وزاد شـر سـعود وأتباعه وقومه حتى ملك أرض بطحاء مكة والمدينـة وبـلاد حـرب وسـائر البـلاد مـع جميع القبائل، وصاروا تحت طاعته خوفاً من شـره ورهبـاً مـن معاقبتـه، وبقـى حكمـه

أخبارهم بعد ذلك، وجاء خبرموته بها بالسم في صفر ١٢١٩هـ/مايو ١٨٠٤م علـى يـد الشـريف غـالب. الجـبرتي: عجـائب الآثـار، ج٣، ص٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣-٢٣٤، ٢٣٦، ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٦٤، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٩٧، ٣٠٣ ؛ نقولا ترك: مذكـرات، ص٢١٣ ؛ شـكري: مصـر في مطلـع القرن ١٩، ج١، ص٤١، ٥٧.

[١] - **دخول الوهابيين المدينة:** لم يذكر الجبرتي قيامهم بمثل هـذه الأفعـال، وذكـر صراحـة أنهـم لم يحدثوا بها حدثاً غير منع المنكرات، فقد أورد في حوادث شهر رجـب ١٢٢٠هـ/سـبتمبر-أكتوبـر ١٨٠٥م أنه "وردت الأخبار بأن الوهابيين إستولوا على المدينة المنورة على سـاكنها أفضـل الصـلاة وأتم التسليم بعد حصارها نحو سنة ونصف من غير حرب، بل تحلقوا حولهـا وقطعـوا عنهـا الـوارد، وبلغ الأردب الحنطة بها مائة ريال فرانسه، فلما إشتد بهم الضيق سـلموها ودخلهـا الوهـابيون و لم يحدثوا بها حدثاً غير منع المنكرات وشرب التنباك في الأسـواق وهـدم القبـاب مـاعدا قبـة الرسـول صلى ا لله عليه وسلم". وذلك في أوائل سنة ١٢٢١هـ/مـارس-ابريـل ١٨٠٦م. الجـبرتي: عجـائب الآثار، ج٤، ص٦.

نافذاً إلى أرض عقبة إيليا[١]، وكثر الظلم منه والجور، وتوالى منه العدوان والفجور، وصار له ما يزيد على الأربعمائة ألف ما بين فارس وراجل، وهابته الملوك وتملك الكثير من أرض الشام إلى أرض المزيريب[٢]، ومازال كذلك حتى فوّض حضرة مولانا السلطان محمود[٣] ذلك الأمر إلى حضرة وزيره الأكبر الصدر العزيز الأفخم الأفخر النبيل الجليل السائر في أشرف منهج وأقوم سبيل، من إرتفع سرادق (ص٦٠) عزه على متن الأثير وسما قدره إلى ذرى[٤] كل كوكب منير، وعلا قدم سعده إلى أوج ذُكَا وخجل عطارد من إشعة فكره فهما وذُكَا، وخضعت لقوة عزمه الضراغم، وفرت من سطوات بأسه الضياغم، رئيس الوزرا وكفيل السَّروَرَات والأمرا، مركز دائرة الحماسة ومنبع رائق معين التدبير والسياسة، نظام الممالك وبهجة الدول الفائق بأسرار العناية

---

[١] - **عقبة إيليا**: هي ميناء العقبة المعروف حالياً، والعقبة هي الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ منه، وإلياء أحد أسماء مدينة بيت المقدس، ومعناه بيت الله، وقيل غير ذلك، ويذكر ياقوت أنها أخر الحجاز وأول الشام. الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار الكتاب العربي، بيروت (د. ت).، ج١، ص٢٩٢-٢٩٤، ج٤، ص١٣٤.

[٢] - **أرض المزيريب**:.هاجمها الوهابيون ثم إنسحبوا منها قبل مجيء يوسف باشا لحربهم، فحصنها ورجع إلى مقره، وقد خلع السلطان محمود يوسف باشا لهذا السبب، ولجأ إلى مصر وتدخل محمد علي في الصلح بينه وبين السلطان، وظل في مصر إلى أن مات ودفن في مقابر أسرة محمد علي خلف الإمام الشافعي في ٢٠ ذي القعدة ١٢٣١هـ/١٢ أكتوبر ١٨١٦م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٣٢، ٢٢٨، ٢٦٦-٢٦٩ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٨٢-٨٣.

[٣] - **السلطان محمود**: حكم من سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨ إلى سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩م، قاد حركة الإصلاح في الدولة العثمانية، من أهمها إلغاء فيالق الإنكشارية سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٦م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٧٩-٨٠، ٨٣-٨٤ ؛ ابراهيم حليم: تاريخ الدولة العثمانية، ص١٨٨-٢١١.

[٤] - في نسخة [دار الكتب] "ذوي".

على أسَاطين الأول، ذو المجد العلي حضرة محمد باشا علـي[١] أيـده الله بتوفيقـه، وآتـاه كمال السداد في طريقه وأمده بالعناية وأحاطه بالحفظ والرعاية آمين.

فلما كان ما ذكرناه وأرسل حضرة مولانـا وسيدنا إمـام الخلفـا وقـدوة أسَـاطين الحنفا، ظـل الله علـى رعيتـه وخليفتـه في خليقتـه، السـلطان الأعظـم والسّـيد السـند الأفخم، صفوة الأبرار وخلاصة الخلفا الأخيار المنثور عدلـه في الخـافقين، المشـكور في منطوق الثقلين، حضرة مولانا السلطان محمود دام ملكه وسـلطانه أمـين[٢]، أرسـل مـن حضرته أمراً مقبول الطاعة مســموع المضمـون لـدى (ص٦١) أهـل السـنة والجماعـة يتضمـن منطوقـه أمـر حضـرة الصـدر العلـي أيـده الله بـالتكفل بإنقـاذ بـلاد الحرمـين الشريفين مكة والمدينة وتلك الديار، وأن يصد الوهابي وجيوشه بالحرب ويدفع ضرره ويكف عن الناس شره حتى تخمد جمرته وتنكسر شوكته، بـل وينقطـع دابـره ويهلـك معينه وناصره، ويبطل ذكر عقيدته الباطلة.

فبادره حضرة الصدر العلي المعظم قدره المشهور ذكـره المحمـود أمـره وجعـل أول الأشيا على الإطلاق الأمر بإحضار الأخشاب لصنع المراكب التي تسير بالمطاليب كلها من بحر السويس[٣] إلى جدة[٤] والمويلح[٥] والينبع[٦]، فأحضرت له الأخشاب النقيـة الجليلـة

---

[١] - كان أول أمر من السلطان إلى محمد علي بالقضاء على ثورة الوهابيين بالحجاز بعد توليته علـى مصر مباشرة في ٢٦ ربيع ثان ١٢٢٠هـ/٢٤ يوليو ١٨٠٥م، وتابع السلطان بعـد ذلـك حثـه على الخروج لقمع الوهـابيين. الجبرتي: عجـائب الآثـار، ج٣، ص٣٣٩، ج٤، ص٧٤ ؛ أمـين سـامي: تقويم النيل، ج٢، ص١٩٦ ؛ شكري: مصر في مطلع القـرن ١٩، ج١، ص٣٢٨، ج٣، ص٩٨٧، ٩٨٨.

[٢] - من هذا النص يتضح لنا أن الرجبي كتب مخطوطه هذا قبل وفاة السـلطان محمـود في ١٩ ربيـع ثان ١٢٥٥هـ/٢ يوليو ١٨٣٩م. أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٤٩٦.

[٣] - السّويس: في النهاية الشمالية من خليج السويس، كان هناك عند دخول العرب لمصر في القرن ٧م قرية تسمى "كليسما" سماها العرب "القـلزم"، وفي القـرن ١٠م نشـأت إلى الجنـوب منهـا قريـة صغيرة سميت "السـويس" ومـا لبثـت أن شملـت القـلزم وأصبحتـا مدينـة واحـدة، وأنشـئت محافظـة

الزائدة في الكثرة حتى كانت مثال التلال، وأمر بإحضار الصناع فحالاً حضرت النجارون والنشارون والمهندسون، وأحضروا كلما يلزم له الحال من حديد وآلات، وإجتمع الجمع الكثير، ولازمتهم خدام المصالح والمباشرون لهذه الأعمال[١]، وإجتمع

السويس سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م، وزادت أهميتها العالمية بعد إفتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م. محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، قسمان، ٥ أجزاء، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٤م، ق٢، ج١، ص٧.

[٤] – **جُدّة**: تقع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، أحد أهم موانى الحجاز، سميت بذلك نسبة إلى "جدَّةُ بن حزْم بن ريان بن حلون بن عمران بن الحاف بن قُضاعة" الذي ولد بها. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١١٤-١١٥.

[٥] – **المويلح**: إحدى منازل الحج المصري على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، أنشأ بها داود باشا (٩٤٣هـ/١٥٣٦م – ٩٤٥هـ/١٥٣٨م) قلعة بها طائفة من الجند لحماية قوافل الحاج. آمال العمري: دراسات في وثائق داود باشا، القاهرة سنة ١٩٨٦، ص٩.

[٦] – **الينبع**: ميناء المدينة المنورة على البحر الأحمر، يقع على مسافة ٢٣ كم غربي المدينة المنورة، وهو أحد المحطات الهامة للحج المصري.

[١] – عين محمد علي ديوان أفندي ناظراً لمهمات الحرمين في ٣ جماد ثان ١٢٢٥هـ/٦ يوليو ١٨١٠م، ثم كلف السيد محمد المحروقي بهذه المهمة مع التحضير لسفر الجيش المصري للحجاز إلى جانب منصبه كشاه بندر للتجار، حيث أورد الجبرتي وظائفه كالآتي "المتعين لمهمات الأسفار وقوافل العربان ومخاطباتهم وملاقاة الأخبار الواصلة من الديار الحجازية والمتوجه اليها، وأجر المحمول وشحنة السفن ولوازم الصادرين والواردين والمنتجعين والمقيمين والراحلين، والمتعهد بجميع فرق القبائل والعشير وغوائلهم ومحاكماتهم وارغابهم وارهابهم وسياستهم على اختلاف أخلاقهم وطباعهم، وهو المتعين أيضاً لفصل قضايا التجار والباعة وأرباب الحرف البلدية وفصل خصوماتهم ومشاجراتهم وتأديب المنحرفين منهم والنصابين"، وأوصى محمد علي ابنه طوسون بطاعة المحروقي وإستشارته في كل كبيرة وصغيرة، ولكنه رجع بعد موقعة الصفراء لقيام كبار العساكر عليه. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٨، ١٣٥، ١٣٧-١٣٨، ١٤١، ١٧٦، ٢٦٩ ؛ أمين سامي: تقويم، ج٢، ص٢١٩ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٠١٠.

لذلك ما يزيد عن الحد، ففي أزمان يسيرة وأشهر معدودة شهيرة أكملوا (ص٦٢) عدداً كثيراً من المراكب الجليلة، وضبطوا أخشابها ما يصلح للجنب والظهر والأسفل والأعلى، وأتقنوا ذلك كله بالبر في ترسخاناة مصر[1]، وأحضروا لوازم ذلك من الصواري والقماش للقلوع، فلما أتموا هذا العمل العظيم وأتقنوه على غاية السداد وكمال التنظيم، بحيث أن الأخشاب مفحورة مضبوطة خالصة تامة لا تحتاج إلا لضرب المسامير في بعضها البعض رفعوا ذلك كله وحملوه جميعه على الجمال، وبالغوا في ضبط تلك الحمول والأثقال، وصاروا يجعلون الجمل تجاه الآخر متحاذيين وبينهما فرجة قريبة ليتوازى حملهما كالعدلين، وصاروا يجعلون الأخشاب مضبوطة محررة مربوطة على كل من الجملين ووراءهما أخران كذلك على هذا الشكل والمثال، ووراءهما غيرهما بهذا الصنع والمنوال، وكان عدد الجمال لا يحصى، وساروا من طريق البر حتى وصلوا بجميع ذلك إلى ثغر السويس، وإجتمعت هناك العمال وأرباب هذه الأشغال، وأتموها عن قرب ونزلوها في البحر وجعلوا عليها القار والشحم،

---

[1] - كانت تسمى **ترسانة** (دار صناعة) **بولاق**، إنشئت على ساحل بولاق في ١٨ ذي الحجة ١٢٢٤هـ/٢٤ يناير ١٨١٠م، فتبنى بها السفن ثم تحمل أخشابها على الجمال وتركب في السويس وتلقى في البحر استعداداً لسفر جيشه الى الحجاز، وذلك لما رأى أن السفر عن طريق البر فيه كثير من الخسائر البشرية، وأن السفر عن طريق البحر لا يتيسر الا بسفن كبيرة، وكانت السفن الكبيرة في البحر الأحمر ملكاً للشريف غالب شريف مكة الذي كان متحداً مع الوهابيين أعداء الدولة العثمانية، وإستمر العمل بتلك الترسانة بعد ذلك لعمل السفن النيلية لنقل البضائع. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٠٢-١٠٣، ١٥٢-١٥٣، ٢٥٦-٢٥٧ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢١٩ ؛ عمر طوسون: صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي، الجيش البري والبحري، القاهرة سنة ١٩٤٠م، ص٦٢-٦٣ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٠١٠ ؛ عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، ص٣٦٣-٤٨٠ ؛

Jean-Luc Arnaud, Observatoire Urbain du Caire Contemporain, Cartographie de l'Egypte, Le Caire, 1989, no.5.

وأتموها وهى على (ص٦٣) ظهر البحر كالعرائس المجلوة، وكانت ورا بعضها البعض تالية ومتلوة، ثم لما لم يبق من صنعها شي وصارت على كمال المتانة ونهاية الحصانة، أمر حضرة صاحب السعادة بأن تشحن جميعها بالغلال والذخائر من القمح والفول والأرز والجبن والعسل والزيتون والزيت والسمن وأنواع كثيرة مما يلايم ذلك، ووضع كذلك فيها آلات الحرب من البارود والمدافع والبنب والجلل آلافاً مؤلفة، وكذلك عساكر وأجناس[١] الطبجية، وأكثر من هذه الأشيا وبالغ أيده الله في الشحنة منها، وأمر بأن يتوجه منها مراكب إلى الينبع لجهة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وأمر بالبعض الآخر أن يسير إلى جدة لإغاثة أهل مكة كذلك وإعانة سكان تلك الديار، وألزمهم بحث السير، فساروا ووصلوا وحصل الفرح لأهل الحرمين ببلوغهم ذلك الخبر، ثم أن حضرته أيده الله أمر حضرة نجله السيد الكريم والعزيز الرئيس العظيم الشجاع الهمام والبطل الضرغام حضرة سيدنا طسن باشا رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه غرف الجنان بعناية الحنان المنان[٢]، وجزم عليه أن يسير مصحوباً بالعساكر والأجناد والرجال والفرسان الأقويا الشداد من طريق البر، وعلى سبيل النهضة والسرعة بإنفاذ هذا الأمر، فإجتمعت العسَاكر وتوالت الدساكر وحشدت

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] "أجناد".

[٢] - قضى طوسون باشا وقتاً طيباً -بعد عودته من حملته الغير ناجحة على الحجاز في نظر والده- بالساحل الشمالي في أجازة على شواطيء الإسكندرية ورشيد، كما قام بتنفيذ أمر والده في توزيع العساكر والقادة المتمردين في شمال البلاد، وتوفى فجأة بالطاعون في قصر برينبال، وذلك في مساء ٧ ذي القعدة ١٢٣١هـ/٢٨ سبتمبر ١٨١٦م، وأحضروا تابوته إلى بولاق، وشيعت جنازته في ١٠ ذي القعدة/١ أكتوبر، ودفن في المقابر التي بناها محمد علي لعائلته خلف قبة الأمام الشافعي، وذكر الجبرتي أنه "مات في مقتبل الشببية لم يبلغ العشرين، وإنه كان بطلاً شجاعاً منقاداً لملة الإسلام، ويعترض على أبيه في أفعاله، ولغالب الناس إليه ميل، وكانوا يرجون تأمره بعد أبيه، ويأبى الله إلا ما يريد". أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٥-٢٤٦، ٢٦٤-٢٦٦؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٨٢-٨٣.

الرجال وسارت الأبطال وهم كالليوث الكواسر وإنثالوا ملي الفضا كنهَلّ[١] ومرسل الغيث الماطر، أو كالبحر الخضمّ الزاخر[٢]، وسار حضرة صاحب السعادة أيده الله بنفسه الكريمة في مقدمة العساكر وقد شق مدينة مصر[٣]، وكان حرسه الله زينة للناظر وسيره فرحاً لكل لب ومسرة لكل خاطر، حتى نزل بسائر العساكر خارج مصر ورتبهم غاية الترتيب المرهق للأعدا، ودبر ضبطهم برأيه الجالب للخصُوم أصناف الردا، وقدم على جميعهم وأمرّ على جليلهم ووضيعهم حضرة نجله طسن باشا عليه الرحمة والرضوان وجعله حاكماً وضابطاً لذلك العرضي الجامع للخاص والعام، وسير (ص٦٥) صحبه سادة العلما، منهم الأستاذ الكبير والعلامة الشهير مولانا الشيخ محمد المهدي[٤] وغيره من طوائف الأفاضل الذين تزدان بهم المواكب والجحافل[٥]، وكذلك الحكما العارفين[٦] بالطب المتفرغين[٧] لهذه الفنون.

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] "كمهَلّ".

[٢] - كان تجمع الجيش في المعسكر (العرضي) الذي أعد لذلك بشمال القاهرة عند قبة العزب (العباسية الحالية)، وسافرت بعض العساكر إلى السويس في ٢٠ جماد ثان ١٢٢٦هـ/١٢ يوليو ١٨١١م لتكمل الطريق بحراً، ثم سافرت العساكر البرية في ٢ شعبان ١٢٢٦هـ/٢٢ أغسطس ١٨١١م من السويس، وسافرت باقي العساكر براً في ٩ رمضان/٢٧ سبتمبر من نفس العام. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٢٧، ١٣٤، ١٣٥ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٤٦.

[٣] - كان هذا اليوم هو يوم مذبحة المماليك بقلعة الجبل، وقد أعد محمد علي حفلاً لتوديع ابنه إستغله لدعوة كل أعيان البلاد بما فيهم أمراء المماليك ليستغل الفرصة للغدر بهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٢٧-١٣١.

[٤] - **الشيخ محمد المهدي:** ولد قبطياً ثم إعتنق الإسلام، رباه الشيخ محمد الحنفي، وكانت له علاقات سياسية بالنخبة الحاكمة وخاصة إسماعيل بيك شيخ البلد، وقد حاز من ذلك ثروة لا بأس بها، وقد بقى بالقاهرة زمن الحملة الفرنسية وعمل وسيطاً بين الفرنسيين والمصريين، ولم يأفل نجمه بعد ذلك، فأخذ وظائف السيد عمر مكرم بعد نفيه إلى دمياط، وصحب طوسون باشا في حملته

ومازال حضرة صاحب السعادة أيده الله يرتب ذلك الجمع ويهندسه بأحسن كيفية وأتم وضع حتى لم يبق لهم شي ينقصُونه ولا معنى غريباً يرفضونه، بل إنتظم ذلك الجيش كمال الإنتظام، وإستتم أمره بغاية المهابة والإجلال والإعظام، ثم ودع أيده الله حضرة نجله وأوصاه بعساكره وساير فرسانه ورجاله، وأمره بالإعتنا بالعلما وبكبار العساكر وصية كاملة وافية بالأغراض كافلة، فسار بعساكره وأتباعه حسب الأمر المطاع الواجب القبول والإتباع[1]، ورجع حضرة الصدر العلي لمصر مسروراً والرعية تدعو له ولحضرة نجله بالنصر والتأييد والعز والتسديد، وجلس في مدينته بالقلعة وباليزبكية كعادته[2].

على الحجاز، ثم عين الشيخ المهدي شيخاً للأزهر سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م عقب وفاة الشيخ عبد الله الشرقاوي، ولكن هذا التعيين سرعان ما ألغي. بنى عدة دور بإنحاء القاهرة، لازال أحدها باقياً إلى الآن عند تقاطع شارع الأزهر مع شارع بورسعيد من جهة حارة المناصرة، وتوفى في صفر ١٢٣٠هـ/يناير ١٨١٥م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٩٩، ١٦٤-١٦٥، ٢٣٣-٢٣٧ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٤، ص٤١.

[5] – أرسل محمد علي مع الجيش جماعات من الصناع والحرفيين، والشيخ محمد المهدي من الشافعية، والسيد أحمد الطحطاوي من الحنفية، وشيخ حنبلي. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣٤.

[6] – في نسخة [دار الكتب] "العارفون".

[7] – في نسخة [دار الكتب] "المتفرغون".

[1] – كان هذا في يوم ٢ شعبان ١٢٢٦هـ/٢٢ أغسطس ١٨١١م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣٤.

[2] – كان محمد علي غير محدد الإقامة وخاصة في فترة حكمه الأولى من سنة ١٨٠٥-١٨١١م، فكان يقيم ما بين القلعة وقصر الألفي بيك بالأزبكية وقصر شبرا. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٢٢-٢٢٨ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٤٥.

وبعد ذلك لم يترك الأمر سدى ولم يتشاغل عنه أبداً، بل صار يوالي إرسال (ص٦٦) المراكب المشحونة المملوة له بكل ما يحتاج له الحال من المهمات والأموال، وجعل ذلك دأبه على الدوام، لا يهمل النجدة ولا الإعانة في توالي الأزمان والأيام، والأخبار واردة إليه وصادرة عنه مع كل هجان وساعي، وهو ملازم لهذه المعاني وسائر في تلك المساعي، وكان حضرة طسن باشا يواصل الحط والترحال على أبهج شأن وأبهى سنن وحال، ومازل كذلك حتى وصل قرب مكة، ودخل أرض عرب حرب في جهات الصفرا وتلك المنازل[1]، فصادف عسكر الوهابي وماله من المواكب والجحافل وهم جالسون بتلك الأرض وقد ملأوا طولها والعرض، وتحصنوا بالجبال وصعدوا إلى شواهق تلك التلال ورتبوا نفوسهم وأحكموا صفوفهم، فأقدم حضرة طسن باشا على حربهم وصمم على طعنهم وضربهم، فسار مع مماليكه وطوائف أتباع دايرته وأمر رؤساء العساكر أن يفعلوا كفعله ويكونوا على شاكلته وشكله، ومازال كذلك حتى وقعت العين على العين، فحمل حضرة (ص٦٧) طسن باشا وكل من الفريقين ووضع فيهم الحسام، وحكم عليهم سيفه الصمصام حتى هزم

---

[1] - **عرب حرب في جهات الصفرا**: ينحدرون من أصول عديدة وأماكن شتى، فهم واحداً من أهم القبائل في نجد والحجاز والعراق ولبنان وفلسطين. أنظر: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، دمشق سنة ١٩٤٩م، ج١، ص٢٥٩-٢٦٢ ؛ وأنظر أيضاً:

A. Jaubert, "Nomenclature des Tribus Arabes," Description de l'Egypte, Etat Moderne, Paris, 1821-1829, Vol. XVI, 110 and 134.

وفي الصفراء -أحد مدن الحجاز إلى الجنوب الغربي من المدينة المنورة- إستطاعت حرب التي كانت قد إعتنقت مذهب الوهابية أن تهزم قوات طوسون باشا في١٨ ذي القعدة ١٢٢٦هـ/٤ ديسمبر ١٨١١م في معركة الصفراء وترغمه على التراجع إلى ينبع، ورجع الخيالة إلى المويلح، بل ورجع الكثير من القادة والعساكر بحراً، ثم أخذ طوسون باشا عقبة الصفراء والجديدة مرة أخرى من غير حرب بعد أن تحالف مع العرب وبمساعدة شريف مكة سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣٧-١٣٨، ١٣٩-١٤٠، ١٤٦، ١٧٢، ١٧٩، ٢٣٦ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٤٧.

أوايلهم، فأراد أن يتبعهم ويوالي عليهم الهزايم وإذا به قد تـأمل فلـم يجـد عنـده سـوى مماليكه وطائفة الشغسية[١] وجماعـة مـن الأغـوات الصقلية وبعـض رؤسـا مـن أوليـك العساكر، ووجد معظم عسكره بعيداً عنه، و لم يجد إسعافاً منهم وهذا من سوء تدبيرهم، فأراد الرجـوع والكلام معهـم وزجرهـم ليخوضـوا معـه في تلـك الوقـائع، ويلجوا تابعين له مضايق هاتيك المواضع، فرأى عساكر الوهابيـة خرجـت مـن كمـين لهم عدداً كثيراً آلافاً مؤلفة على شكل واحد وصورة متحدة وكلهم لابسـون البيـاض وقد خاضوا تلك اللجج والحياض، فخشى من إحـاطتهم بـه وبجميـع أتباعـه، فحمـل كـالليث الهـدار يمـانع عـن جنـده ونفسـه، و لم يبـال بكـثرة تلـك الجمـوع في ظـاهره وحدسه، ومازال يمانع ويدافع ويضرب بسـيفه القـاطع، وفعـل فعـال الأسـود وصـال وجال على أولئك الجموع، ولازال (ص٦٨) كذلك حتى رجع سالماً وصحبته أتباعه، ومات منهم في هذه المرة عدد حيث إنقطع عنهم المـدد، وسـار بمـن بقـى معـه راجعـاً سائراً حتى نزل على شاطيء البحر، ووقع خلل في العرضي بسبب تكاسـل المتـأخرين وبعض الرؤسا المغرورين الفارين، ثم إجتمع الجميع على الشاطيء عنده ونزلـوا بجـواره وتلاحقت به الأجناد، وصار في غاية الغـم والغيـظ علـى أوليـك الأقـوام، وأرسـل في عاجل الحال الخبر إلى والده الوزير الهمام، فما هاله ذلـك الخـبر ولا غـير لـه ذهنـاً ولا شتت لديه الفكر، بل بادر بنفسه وطلب التوجه إليهم يومه قبـل أمسـه، لكنـه تربـص أياماً وتصبر أزماناً، وحضرت من طريـق القصير[٢] تلـك الرؤسـاء المخذولـون، فأسـل

---

[١] – **طائفة الشغسية**: هم من الجند المخصص لحراسة محمد علي، وكانوا من المشاة والخيالة، جاءت في الجبرتي بلفظ "الصفاشية"، و"الشفاسية الخيالة"، و"شفاشيته"، و"السفاشية". الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٢٩، ١٤٦، ٢١٢، ١٧٧، ١٧٩.

[٢] – **طريق القُصِير**: هو الطريق الممتد من القصير إلى قنا إلى قوص، ثم يأخذ النيل إلى القاهرة، وقد إهتم به محمد علي لإنه يصل البحر الأحمر بالنيل، مما يسهل المسافة من الحجاز إلى القاهرة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣٨، ١٤١، ٢٢٠ ؛ أمين سامي: تقويم النيـل، ج٢، ص٢١٢، ٢٥٠ ؛

إليهم وإلى خواصهم بالنفي والطرد عـن قطره، والإخراج لهم عن كنفه وخدمته، فحصل لهم الذهول والهون، وزال عنهم ما كان بهم من العز والصون، وخرجوا مطرودين أذلا، وبعضهم إستغاث بجنابه وبرهن على عدم نفاقه بمقول صوابه[١]، ثم أنه أيده الله سار بنفسه حتى حل (ص٦٩) ركابه الشريف ببلاد الحرمين[٢] وإجتمع بنجله

عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٦٢ ؛ محمد رمزي: القاموس، ق٢، ج٤، ص٢٧١ ؛ السيد السيد أحمد توفيق دياب: السياحة في مصر خلال القرن التاسع عشر، دراسة في تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي، القاهرة سنة ١٩٩٤م، ص٢١.

[١] - كان لمحمد علي مع هؤلاء الفارين عدة حوادث، فقد قطع خراجهم وأعطاهم المتأخر لهم من المال عنده، وأعطى لصالح أغا قوش وكان أول الفارين بعد موقعة الصفراء ما صرفه على المسجد الذي بناه في بولاق في سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م بجوار بيته، حتى ان محمد علي دفع له ثمن عدة أماكن وقفها على هذا الجامع (لم يعد لهذا الجامع وجود منذ سنة ١٩٥٤م)، وذلك بعد هروبهم من حملة الحجاز وحضورهم الى القاهرة، ثم أمر بنفيهم خارج البلاد، هو ومحو بيك وسليمان أغا وخليل أغا وغيرهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣٧-١٣٨، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٥-١٤٦، ١٤٧، ١٧٢ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١، ص٧٠ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٣٤، ٢٣٧، ٢٣٨ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص١٠٤٩، ١٠٨٣-١٠٨٧ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٤٣، ١٣٥.

[٢] - أرسل محمد علي عدة تعزيزات إلى الحجاز بعد هزيمة الصفراء، كانت الأولى بحرية عن طريق السويس في ١٠ محرم ١٢٢٧هـ/٢٥ يناير ١٨١٢م بقيادة بونابارته الخازندار إلى ينبع، والثانية برية بقيادة صالح أغا السلحدار في صفر/فبراير-مارس، وثالثة في أواخر ربيع الأخر من نفس السنة مكونة من عساكر مغاربة، ثم وصل إلى الإسكندرية عساكر من الروم أرسل بعضهم إلى ينبع، ثم خرج محمد علي بنفسه في ٢٠ شعبان/٢٩ أغسطس من نفس السنة لتجهيز تجريدة أخرى، وأرسل مصطفى بيك دالي الباشا بجيش من الدلاة في ٢٣ شوال ١٢٢٧هـ/٣٠ أكتوبر ١٨١٢م، وخرج محمد علي بنفسه على رأس تجريدة عن طريق السويس في ١٤ شوال ١٢٢٨هـ/٢٥ أغسطس ١٨١٣م ووصل إلى جدة بعد ثلاثة أيام، ثم خرج محو بيك بجيش آخر أواخر صفر ١٢٢٩هـ/فبراير ١٨١٤م، ثم إستدعى حسن باشا طاهر في ٦ ربيع الثاني/٢٨ مارس من نفس العام على أن يكون

وحصلت لهما قرة العين، فتخلصت بهمته مكة والمدينة، ومكث بمكة وجدة يدبر الأمر بمعرفته، فأول صنيعه أن أخذ الشريف غالب شريف مكة وسلطان تلك الديار وصيره أسيراً عنده، وأمر بإرساله إلى مصر[١] ثم إلى إسلامبول[٢]، لأن الذي وقع كان بسبب سوء تدبيره، وتسلط الوهابي نشأ من قبيح إهماله وشدة ظلمه ورداءة سيره، فإنه فحش[٣] في المظالم، وغير آثار سلفه وتلك المراسم، حتى إنه من شدة ظلمه وجوره كان يأخذ المكس على الأموات، ولم يخلص من ظلمه العظام الرفات، فغفر الله له وسامحه، فلقد جنى على نفسه وعلى الناس، وأساء السير مع كل الأجناس، فجوزي على صنيعه وقابله الله بمجزات فظيع أمره وشنيعه.

معه سبعة آلاف جندي وسبعة آلاف كيس، فجمعوا الكثير من المغاربة والصعايدة والفلاحين وأعطوهم سلاح وذخيرة وملابس جنود، وأرسل في ٤ جمادى الثاني/٢٤ مايو يطلب حسين بيك الدالي ومعه جمال وغيرها من الإحتياجات، ثم إستدعى في ٢ شعبان/٢٠ يوليو من نفس العام دبوس أغلي وعساكره وحسن أغا سر ششمه، ووصل إلى القاهرة ابن باشا طرابلس في نفس الشهر ومعه ألف من الخيالة العرب والمغاربة وتوجه براً إلى الحجاز، ثم أرسل محمد علي بعد رجوعه من الحجاز جيشاً من الدلاة في رمضان ١٢٣٠هـ/يوليو ١٨١٥م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٦، ١٤٩، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٩، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٥-٢٢٦ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٤٨، ٤٩، ٥١.

[١] – نزل بالقاهرة في بيت لطيف باشا بسويقة العزي بعد اصلاحه في ربيع أول ١٢٢٩هـ/ فبراير- مارس ١٨١٤م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٠٣ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: منطقة الدرب الأحمر، دارسة للقسم الثالث من ظاهر القاهرة القبلي، دراسة أثرية تسجيلية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية آداب سوهاج، جامعة أسيوط،سنة ١٩٨٦،ص٢٣١.

[٢] – ذكر الجبرتي أن الشريف غالب صدر الأمر بنفيه إلى سالونيك وليس إلى استانبول. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٦٢.

[٣] – في نسخة [دار الكتب] "أفحش".

ثم بعد ذلك ولى حضرة صاحب السعادة على تلك الديار أحد أولاد الشريف سرور[1] وصيره شريف مكة وتلك الديار عوضاً عن الشريف غالب، وجعل له كفايته من المال وسائر ما يقوم به، وشرط عليه الرفق بالناس، وعدم التعرض لإذية أحد من سائر الأجناس، فأجاب ممتثلاً (ص٧٠) أمره الكريم، وسار على كمال السداد بالطريق القويم، ثم أن حضرته أيده الله بادر إلى التوجه لحرب الوهابية، وكانوا حين بلغهم حضوره ترفعوا عن مكة والمدينة، وتمت لأهالي الحرمين بحضوره الأفراح والطمانينة، وصارت طوائف الوهابية بأرض الطائف وما والاها وهكذا إلى نجد وسائر نواحيها وضواحيها ورتبوا جموعهم وأكثروا جيوشهم وحشدوا الرجال وأكثروا من الفرسَان والأبطال، وكان أميرهم سعود قد فاق أباه في القوة وكثرة الأتباع والأجناد والجيوش، فطغى وبغى وأظهر الفساد في الأرض، فكثرت رجاله جداً حتى كانوا شبه الحصا والرمال كثرة، وأطاعوه طاعة غريبة حتى إنه قبل ذلك لما دخل مكة وملكها وتبعه سلطانها غالب المذكور جعل يدعو رجال مكة رجلاً رجلاً ويقول له إسلم على يدي إسلاماً صحيحاً، فإنك مشرك كافر، وكان من لوازم دعوته حين يخاطب الرجل الذي يدعوه للإسلام بزعمه الكاذب أن يأمره أن يصرح في مقاله بعد أن يأتي بكلمة الشهادة فيعقبها (ص٧١) بقوله ويشهد أن أبويه ماتا مشركين، وكان له مهاجرون وأنصار ويدعو أناساً[2] بالسابقين الأولين إلى الحق والخير، وهم جماعته الأقدم فالأقدم، وكل له مرتبة بحسب سبقه، وبالجملة فخرافات دعوته وهذيان

---

[1] – **الشريف سرور:** أمير مكة، توفي في جماد أخر ١٢٠٢هـ/مارس ١٧٨٨م، وكانت مدة ولايته أربع عشرة سنة تقريباً، وكان أبناؤه قد حضروا إلى القاهرة في شهر شوال ١٢١٧هـ/يناير-فبراير ١٨٠٣م هروباً من الوهابيين وإستنجاداً بمصر، وذكر الجبرتي أنهم أنزلوا ببيت المحروقي بعد أن قابلوا محمد علي باشا والي مصر وشريف باشا والي جدة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص١٥٨، ١٧١، ج٣، ص٢٣٣.

[2] – في نسخة [دار الكتب] "ناساً".

عقيدته ظـاهرة البطـلان جلية البهتـان والخـذلان، فسبحان مـن يهـدي ويضـل بيـده ملكوت كل شي، وإتفق أن أول جمعة كان بها بمكة فإجتمع العالم الأكبر وصعد المنبر وخطب بالناس وقال في خطبته عقيدته الباطلة ودَنْدَنَ بدعوته المخذولة العاطلـة، وتـلا في آخرها قوله تعالى "اليوم أكملت لكم دينكم"[١] الآية، يقلد بذلك الرسول صلـىا لله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع، فما أعظم ضلاله ومـا أبـين محالـه قبحـه ا لله، وشهرة أمره ومعرفة الفضلا لباطل عقيدته يغـني عـن تفصيـل بيانهـا وتعـداد أنواعهـا، وكل ذلك جاهم من محمد نجل عبد الوهاب الذي ذكرنـاه أول بدايتهـم، فهـو الـذي جمع لهم تلك العقائد وصنف لهم إفك هاتيك المكائد قبحه ا لله وإياهم أجمعين.

هذا وقد زاد طغيان سعود حتى تعدى (ص٧٢) على أطراف ممالك العجم، وإتفق له أن أرسل فنهب المشهد الجليل المنسوب للسيد علي بن أبي طالب كـرم ا لله وجهـه وكان فيه نفائس الذخائر من الذهب والفضة والجواهر النفيسة[٢] فأخربه وأخذ جميع ما كان فيه، وهدم القباب من كل مزار في سـائر الجهـات الـتي دخلهـا، وهـدم مـزارات كثيرة وقبوراً للأوليا شهيرة و لم ينتطح فيها عنزان، ووقع منه التعدي كذلك في البحـر

---

[١] - سورة المائدة، آية رقم ٣.

[٢] - أرسل سعود حملة إلى العراق سنة ١٢١٦-١٢١٧هـ/١٨٠٢م إجتاحت مدينة كربلاء وخرب ضريح الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب ونهبت مـا فيـه، كمـا أرسـل حملتـين أخريين في سـنة ١٢١٧-١٢١٨هـ/١٨٠٣م وسنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م للنجف الأشـرف وإسـتولوا عليهـا . أنظـر: شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص٩٨٥ ؛
P. M. Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 153-154.
أنظر عن زخائر مشـهد الإمـام: سـعاد مـاهر: مشـهد الإمـام علي في النجـف ومـا بـه مـن الهدايـا والتحف، القاهرة سنة ١٩٦٩م.

المالح بأطراف اليمن وأخذ للإنجليز مراكب فيها أقمشة ومتاجر[١]، وسطى[٢] سطوات مشهورة ولم يعارضه أحد من سائر الملوك ولا قدر على حربه أحد من أجناس الوزرا والأمرا والسلاطين[٣]، وزاد شره وتعدى طوره حتى سماه أتباعه أمير المؤمنين، وحدثته نفسه المغرورة بأخذ مصر والشام وسائر الأقطار المنسوبة لإتباع بني عثمان أيد الله دولتهم وأظهر على الدوام صولتهم، بل تكلم بألفاظ كثيرة منقولة عنه شهيرة، أنه قال سوف أعلق سيفي هذا بأعلى مكان في إسلامبول، ولعمري أن هذا لكلام مضحك صدر عن بلادة جبلية وغفلة (ص٧٣) بأقلية وخراف يمج سماعه ويستغربه كل من كانت سليمة أطباعه[٤]، ومازال يحشد العساكر ويرتب الجموع والدساكر، فجعل في

---

[١] – ذكر نقولا الترك أن الإنجليز تصدوا بالمدافع للوهابيين وردوهم عن جدة إلى الطائف في المحرم ١٢١٩هـ/ابريل ١٨٠٤م، وربما كانت هذه الحادثة نتيجة لهجومهم على سفن الإنجليز. نقولا الترك: مذكرات، ص٢١٣،٢١٧.

[٢] – في نسخة [دار الكتب] "سيطا".

[٣] – لم يتمكن باشاوات العراق والشام من هزيمة الوهابيين، فقد تقابل عساكر عبد الله باشا العظم باشا الشام بقيادة يوسف باشا مع الوهابيين عند الجديدة، وهزمهم ودخلوا مكة والمدينة للحج، وفي العام التالي لم يتمكن أهل الشام من الحج بسبب الوهابيين، فعزل عبد الله باشا لذلك، ثم إتجه يوسف باشا والي الشام إلى المزريب لصد الوهابيين عن جنوب الشام ولكنهم إنسحبوا قبل وصوله، ثم قرر السلطان العثماني أن يرسل جيوش باشاوات الشام وعكا وبغداد ومصر في وقت واحد تحت قيادة يوسف ضيا باشا الصدر الأعظم السابق بعد تعيينه على ولاية الحبشة وجدة "القائد الأعلى للحجاز"، وقد فشل هذا المشروع مما حدا بالسلطان إلى تكليف باشا مصر بإنهاء فتنة الوهابيين على أن تكون ولاية الحبشة وجدة مكافأة له عند إنتصاره. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١٩، ٢٦٧-٢٦٨ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٣، ص٩٨٥-٩٨٧، ٩٩٠، ٩٩٣، ٩٩٦، ٩٩٧-٩٩٩، ١٠٠٩.

[٤] – في نسخة [دار الكتب] "طباعه".

أرض طربة[١] الشهيرة جموعاً كثيرة، وفي كل جهات الحجاز حتى لم يخل من أجناده بحاز، فأراد الله سبحانه وتعالى بأن سلط عليه حضرة مولانا وأفندينا صاحب السعد والإقبال جليل المجد والأفضال، فوالى إرسال جيوشه بأراضي الحرمين وخلصها عنوة بالحرب والقوة بلا مين، وخلت بقاع الحرمين من أقوامه وتطهرت أماكنها من رجس عقائده وأوهامه، فتسبب عن ذلك الغم الأكبر لسعود وعلم أن الحرمين صارت تصد أراذله وتلك الجنود، فحصل [له][٢] مرض أقلقه وهمّ أشغله وأرقه، وإزداد به الحال وعمه الضر والإنتحال، حتى قطع الله عمره وذهب جفا شأنه وأمره، فمات[٣] شر موته وأخذه الله بظلمه وما أفلته، فذهب إلى النار وبئس القرار، فإضطرب أمر جموعه وكاد يختل نظام[٤] (ص٧٤) منازله وربوعه، ثم إنحط أمرهم وإتفقت كلمتهم على تولية أحد أولاده وهو عبد الله بن سعود[٥]، فأطاعته تلك الجيوش والجنود وجعلوه

---

[١] - **أرض طربة**: على بعد ٨٠ ميل من الطائف، وتعتبر مفتاح نجد إلى الشرق واليمن من الجنوب، وقد إنهزم عندها مصطفى بيك ابن أخت محمد على والشريف غالب في أواخر سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م لتقاعس جنده عن القتال، فحشد محمد علي قواته بقيادة ابنه طوسون وعابدين بيك في محرم ١٢٣٠هـ/ديسمبر ١٨١٤م ولحقه بجيش أخر، ولكنهم إنهزموا لإتحاد العربان مع الوهابيين بعد القبض على الشريف غالب، ثم إنتصر محمد علي على الوهابيين وفي ذي الحجة ١٢٢٩هـ/نوفمبر ١٨١٤م، إنسحب فيصل من طربة بلا مقاومة، وبذلك دانت منطقة الحجاز لمحمد علي. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٠٢، ٢٠٦، ٢١٨ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٥٠، ٥٢-٥٣، ٥٦-٥٨.

[٢] - ما بين الحاصرتين من نسخة [دار الكتب].

[٣] - توفي سعود سنة ١٢٢٩هـ/١٨١٤م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٠٧.؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٥٤.

[٤] - في نسخة [دار الكتب] "إنتظام".

[٥] - **عبد الله بن سعود**: .تولى بعد وفاة أبيه في جماد أول ١٢٢٩هـ/ابريل-مايو ١٨١٤م، قبض عليه إبراهيم باشا ابن محمد علي بعد إستيلاءه على الدرعية وأرسله إلى مصر فوصلها في ١٧ محرم

أميرهم، وسموه إمامهم وسيدهم، وإمتثلوا له الأوامر، وإنقاد له الأصاغر والأكابر، فقام على قدم والده وأراد إعزاز أتباعه وإستدامة إجلال طارفه وتالده، فأبقى العساكر حسبما رتبه[١]، وجعل كل أمير يتولى رتبته ومنصبه، وأكبر أعوانه طامي أحد أمراء العرب[٢]، وكان فارساً شجاعاً وقرماً مناعاً، يتبعه الفرسان الكثيرة العدد والرجال الزائدة في القوة والعدد، وكان ذلك الخبيث آفة من الآفات وبلية بادية النكبات، ويليه رجل آخر يقال له مضيان، وكان شهيراً بالفتك والطغيان، ومثله الرجل الشهير بالمضايفي، خرج على شريف مكة وعن نسبته إليه بعد ما كان الصادق الوفي، ونابذ الشريف وتبع الوهابي وصار من أكبر رجاله وأعز أجناده وأبطاله، وغير هؤلاء من الفرسان من كبار أمرا العربان مما لا يحصره حد ولا يضبط (ص٧٥) أفراده عد، وتبع عبد الله آثار والده سعود وما ترك ذرة منها حتى أبرزها للوجود، ونفذ أمره في أولئك الأقوام وطلب محاربة حضرة أفندينا البطل الهمام، فبادر حضرة أفندينا أيده الله وجمع أتباعه من عربان مكة وساير جهات الحرمين وكذلك عساكره المنصورة وأمرهم بالتوجه إلى الطايف وغيره، وجزم عليهم جزماً أكيداً بأخذ المضايفي وابن مضيان ثم طامي الخبيث القرنان، وسار كذلك حضرة سيدنا طسن باشا وإجتمعت العساكر وتلاقت الأجناد والدساكر وقرب من بعضهما الطايفتان وتلاقى للطعان والحرب الفريقان، فهزم الله عساكر الضالين وهزم أجناد الوهابي أجمعين بعد أن زاغت الأبصار وزهقت البصاير وبلغت القلوب الحناجر وأظلم ضوء المحاجر

١٢٣٤هـ/١٦ نوفمبر ١٨١٨م، وأنزلوه بقصر إسماعيل باشا ببولاق، وتقابل مع محمد علي بقصر شبرا، وكان بصحبته صندوق به ما تبقى مما أخذوه من الحجرة النبوية، وأرسل إلى استانبول في ١٩ محرم/١٨ نوفمبر من نفس العام، فأعدم أمام باب القصر السلطاني. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٠٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٢.

[١] - في نسخة [دار الكتب] "هى مرتبة".

[٢] - أنظر ص١٢٤ هامش رقم٣ .

وإختلجت الضماير، فجعَل ا لله دايرة السوء عليهم وساق أنواع الوبـال إليهـم، فولـوا الأدبار وأخذ أسيراً ابن مضيان المهدار، وأرسله حضرة صاحب السعادة إلى مصر ثـم إلى إسلامبول، وكذلـك قتـل (ص٧٦) اللعين البهيـم والشيطان الرجيـم المعـروف بالمضايفي وولى طامي مهزوماً، ومما شاهد من قـوة صـاحب السـعادة وجيوشـه صـار مبهوتاً ومهموماً، فصاح حضرة صاحب السعادة علـى رؤسـا العربـان وشـدد عليهـم وأكد في الإلزام، وأمرهم أن لا بـد مـن إتبـاعهم لطـامي ومـن الإتيـان بـه ولـو تعلـق بالأفلاك السوامي، فبادروا لإمتثال أوامـره وخـافوا مـن قوارعـه وزواجـره، وتراسـلوا متتابعين وبادروا الذهاب خلفه متتالين حتى أدركـوه في بعـض الجهـات فأعـانهم ا لله على أخذه وأسره، وذلك من سعادة حضرة صاحب السعادة وجزيل تـأييده ونصـره، فأحضروه لديه أسيراً وقادوه إليه ذليلاً حقيراً.

ثم إنه أطال ا لله له البقا الجميل وأسعده بالعناية والتوفيق الجليل سـار ورا الوهابيـة حتى أدرك منهم طوايف متكاثرة ومجامع متزايدة متوافرة نحو ستين ألف كـانوا بـإعلى شاهق جبل، فدبر أمره وأتقن العمل ليدرك منهم الأمل ويريهم كيف (ص٧٧) يكـون الخوف والوجل، فنزل ليلاً تحت ذلك الجبل العالي وما كان معه إلا نحو ألف في ذلـك الفضا الخالي، وترك عساكر العرضي، ولم تسمح نفسه بطلبهم لكونهم لم يسارعوا في هذه المرة في السير معه كما يصنعون، فأمرهم بالجلوس في ذلك الموضـع الـذي أقـاموا به، وأنه بعد يوم أو يومـين إن لم يرسـل لهـم فليلحقـوا بـه، وأوهمهـم أنـه يريـد بهـم الرجوع وترك الحروب، لأن أرض الحرمين صارت مطمينة، وذهـب عنهـا الأوصـاب واللغوب، فنزل هناك في أسفل الجبل وكان له طريق ممتد في الصعود يسع فوارس قليلة في المرور لمن يصعد أو يعود، وقد نزلت الوهابيـة بـأعلاه وإستوت مستقرة بمستواه، فنادى حضرة صاحب السعادة لمماليكه وأغواته وطائفـة الشغسيه وإختـار منهـم نحـو مائة فارس لكل منهم في الحرب سجية، وأمر المائة يكونـوا قسـمين خمسـين وخمسـين

متحازيين، وإذا أمرهم بالصعود يصعدون كل[١] قسم من جهة اليمين والقسم الآخر من جهة الشمال في ذلك المطلع للجبل (ص٧٨) العال، ويكونون كارين أشد الكر حتى يقطعوا ذلك المطلع والممر، ويصيرون بأعلاه عند الجموع، فيبادرون حين ذاك لضرب مكاحل بارودهم بلا سكون ولا هجوع، فإذا قامت عليهم العربان يرجعون فارين لإسفل الوادي وذاك المكان، ورتبهم على ذلك الترتيب وأظهر من تدبيره الصنع العجيب، ثم نادى لباش طبجي[٢] وأمره أنه حين يرجع العساكر منهزمين ويولوا الأدبار راجعين وتقوم وراهم تلك الجموع ويتبعوهم بكثرة الجموع وينزلون وراهم إلى أسفل الوادي وفسيح ذلك المكان بتلك البوادي، حتى يصير منهم بأسفله نحو العشرة آلاف رجل، فحينئذ يبادر ويكون قد وضع المدافع بأسفل طريقه مركوزين[٣] على العجل فيوالي وقتيذ الضرب بالجلل وبأنواع الصلقم الجالب للوجل ويوالي عجلاً بالصناعة التعليمية حتى يسد طريق المطلع في إمتداده بالجلل التي هى بالنار محمية، وتقع رجال الوهابية النازلين (ص٧٩) بذلك الطريق ويموتون بالمدافع في كل منهج من كل فريق، فإن باقيهم يرجع عن النزول ويفر مولياً في رجوعه لإعلى الجبل خوفاً من ذلك الأمر المهول، فإذا رجعوا مهزومين وخلت الطريق وصارت آمنة من نزولهم عن يقين يكون له حينيذ مع من نزل حرب البسوس، ويريهم كيف يكون قطع الرؤس، ثم أنه وضع جنبه الكريم علىالأرض ونام ساعات بوسيع تلك الأرض و لم يضطرب له فكر ولا لهج لسانه لهم بالذكر، حتى إمتلأت قلوب من معه من التعجب والخوف، وحصل لبعضهم قراقر الجوف، وعرفت العقلا منهم أن هذا أمر أشد من السيوف والأسهم،

---

[١] - هذه الكلمة ليست في نسخة [دار الكتب].

[٢] - **باش طبجي**:.هو رئيس جنود المدفعية الذين ألحقوا بالأوجاقات، ويرأسهم الباشطبجي. وطوب في التركية بمعنى المدفع. ادي شير: الألفاظ الفارسية المعربة، ص٥٨ ؛ طوبيا العنبسي: تفسير الألفاظ الدخيلة، ص٢٤، ٤٧ ؛ أحمد السعيد سليمان: تأصيل، ص١٤٤.

[٣] - في نسخة [دار الكتب] "مركوزة".

حيث أنهم لم يشاهدوا مثل ذلك الشأن و لم يسمعوا أن أحداً فعل مثله من سالف شجعان ملوك الزمان، هذا وحضرة صاحب السعادة مضطجع ساكن الجأش لم يخطر بباله الفزع من أولئك الأوباش، فصارت العساكر تنظر لقوة عزمه وتتفكر في غريب حاله وجليل حزمه، حتى صار قريب الفجر فقام مبادراً (ص٨٠) للوضو والصلاة، وجلس يحدث بعض أتباعه في الظلام بتلك الفلاه حتى طلع الفجر فصلاه، ثم نهض لتدبير الأمر وتولاه، فإنقسمت الفرسان للقسمة كما أمر، وكل إلى جهة أسفل الجبل قد أسرع وإبتدر، فركب صاحب السعادة الجواد ووقف مع جماعته ينتظر الحرب والجلاد حتى أشرق شعاع الشمس وولى عن اليوم أمس، هنالك ضرب صاحب السعادة مكحلة باروده وكانت علامة لصعود أوليك الفرسان من جنوده فرفعت رؤس خيلها وكرت صاعدة على الجبل فيالها، ومازلت حتى صارت تجاه جموع العربان وضربت مكاحل بارودها فصمت الآذان، فهاجت العرب وإضطربت وقامت لضربهم وبادرت، وأرادوا أن يحوزوهم هناك، فرجعوا منهزمين ضياغم المماليك والأتراك وتبعت العرب أثرهم وأسرعت النزول خلفهم، وكانوا قد نظروا من أعلى الجبل إلى قلة من صحب أفدينا في ذلك المحل فإغتروا لقلتهم وما دروا (ص٨١) أن التدبير منتج لعلتهم، ومازال الفُرْسَان المهزومون حتى صاروا بأسفل الوادي وهم مجتمعون والعرب تكاثرت في النزول وراهم وطلبوا جدالهم في الحرب ومراهم، حتى نزل بوسيع الوادي قريباً من عشرة آلاف، ومازال الطريق مزدحماً بنزول[1] أوليك الأجلاف، فهناك إبتدأ الطبجي وصار لحمولة البارود يزجي، وبادر في ضرب المدافع، و لم يكن لهول جللها من دافع، وتراسل الصلقم بتجريره، وإمتلأت طريق الجبل من حديده ومساميره، وزاد أمر المدافع حتى خرج عن الحد وبعد عن الضبط بالعد، فأصيبت الأعراب في مقاتلها وظنت أن طوائف الجنّ هى التي تقاتلها، فإمتلأ الطريق

[1] – جاءت العبارة في نسخة [سوهاج] "لإرادتهم النزول"، والتصحيح من نسخة [دار الكتب]، حيث شطب الكاتب على "لإرادتهم".

بالجثث المطروحة فيه، ورجع باقيهم لأعلى الجبل مهزوماً[١] لا يـدري الأخ عـن أخيـه، وصارت طريق ذلك الجبل خلواً إلا من الأموات الذين لحقـت بهـم البلايـا والآفـات، وبقيت لا يقدر أحد منهم أن ينظر إليها ولا يشير بيده إلى المرور عليها، بـل (ص٨٢) إنتقلوا من مواضعهم بالكلية، وساروا إلى ورائهم ليستمدوا من أمرا الوهابية، وجعلـوا لهم بالمحل ربيئة ليخبرهم عن حال من نزل من جموع ربيعه، وماذا يكون من صنيعهـم وما الذي يقع من الخبر لرفيعهـم ووضيعهـم، ثـم يخبروهم عنـد الرجـوع لينسـروا أو يندبوا القتلىَ بتلك الربوع، هذا وحضرة صاحب السـعادة مـازال صـابراً حتـى نزلـت تلك الأناس يتراسلون وابلاً متقاطراً، فشمر حضرته عن سَاعد الجد وصمم أن يذيقهم من حسام الروع والكد، فصاح في رجاله وزأر كـالليث في أشباله وكـر عليهـم بعـد الرصاص بالحسَام وأرهقهم بما أولاهم من مضايقة ذلك اللزام، فجدع الأنوف وأذهل أوليك الألوف وقطع منهم الـرؤس وأهلـك النفـوس، وفتـك فتكـات شـبيب وصـب عليهم شعوب صبيب، وما كان الإ درجات ومرور لحظات حتى لحق جميعهـم الفنـا، وصاروا خامدين بذلك الفنـا، (ص٨٣) ولم ينـج منهـم إلا يسـير قضـى الله لـه ببقيـة أجل، وهم أفراد شردوا في وسيع ذلك الفضا مرهوقين بالوجل، فأمر حضرة صـاحب السعادة بإحضار الجمال وجزم بأن يحملوهم رؤساً كالأعدال ويذهبوا بهم إلى عسكر العرضي الذين تركهم حضرة أفندينا حسبما ذكرناه، وطلب بذلك تبكيتهم وتخجيلهم حتى يتمنى كل منهم رضاه ويندم في تأخره عن مولاه وتكاسله عن الملازمة لجميع ما يهواه بحرب من يحاربه وولاية مـن تـولاه، ثـم نـزل حضـرة صـاحب السـعادة بذلـك الوادي، وطاب له ولإتباعه بذلك الرحاب النادي، فجلس مؤيداً منصـوراً محمـوداً بمـا فعله ومشكوراً، وعم أتباعه السرور بما ظهر من حضرته وما شاهدوا من شديد بأسـه وكبير همته وعظيم شجاعته ويقين ومتين ساعد قوته، وعاينوا من جنابه وهـو يسـطو بصمصامة تحكي ذا الفقار ورأوا من عظيم حربه ما لم يسمع عن هاني بذي قار، فإنـه

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيمن.

يوم ما سبق لفارس مذكور نظيره ولا إتفق لبطل مشهور إقتحامه لناره (ص٨٤) منذ حمى وطيسه وتأجج سعيره، فلله دره من سيد فريد وبطل في مقام الصدام صنديد وضرغام يرغم أنوف الأسود وهزبر تنجلي ببرق سيوفه النوب السود، ووزير حافظ لحمى الأقطار والمسالك، ومانع بصولته جماهير الطغاة عما حازه من الممالك، فهو الحقيق بما قيل[١] وبما أنشده منشأ فيه خليل

أبدى بمصعد مرتقى علم العدى	حرباً عبوساً مدهشاً للساري
وبأسفل الوادي أتاح لجمعهم	حتفاً مريعاً للهزبر الضاري
فتفرقوا أيدي سبا وتمزقوا	وتلفعوا برداء ذل العار
لله درّ وزيرنا في حربه	لجيوشهم من فارس كرّار
يسطو بصمصام يلوح بحده	برق المنايا في إشعة نار
صدر همام يستجار بعزه	رحب المباءة مكرم للجار
قسماً بمكةِ والحطيم وزمزم	والبيت ذي الأركان والأستار
أن الوزير محمداً ذا العز والمجد	العليّ مليك كل فخار

فبينما العرضي الجليل ومن به وهم لا يعلمون ما صنع هذا الوزير النبيل وإذا بالجمال عليها تلك الأثقال وهى رؤس القتلى من أهل الضلال وقد أناختهم الخدمة بالترتيب، وظنت العساكر أنها دخاير أكل وشرب عجيب فداخلهم الفرح وزال عنهم الترح، هذا وقد أتوا صفوفاً صفوفاً وإجتمعوا حولها ألوفاً، فتاملوا تلك الأحمال وإذا بها رؤس حل بجثثها النكال، فبهتوا متحيرين وعلى تأخرهم عن حضرة الصدر نادمين، وحفهم الرعب وداخلهم الخجل ولزمهم من مهابة أفندينا غاية الوجل، فسقط في أيديهم وبادروا لطلب صفحه الذي ينجيهم، فأسرعوا في الرحيل، وقطعوا ذلك السير الطويل (ص٨٦) في أسرع وقت من الزمان، حتى نزلوا بساحة رحاب الأمان، وبادروا إلى إستعطاف حضرة أفندينا، وجعلوا الإلتجا إليه ديناً، فبكتهم

[١] – مكتوب في نسخة [دار الكتب] بعد هذه الكلمة "فيه".

بزواجر لفظه وأخجلهم بقوارع وعيده الممزوج بوعظه، فمازالوا يترامون على يديه وأقدامه ويلوذون برأفته وعفوه، ويعوذون من غضبه عليهم وإقدامه، وهم بغاية الذل والإنكسار حتى عفا عن زلاتهم مع الإقتدار، ومازالوا بجانبه يستنجدون وبرقايق إستعطافه يتكلمون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، حتى شملهم عفوه وهم فرحون مستبشرون، فلما إطمأنوا بحضرته وباعد عنهم إيصال مضرته، رتب أيده الله جموعهم، وأمرهم بما ينفع جمعهم، وأرسل إلى جدة بإحضار الذخيرة وكل ما يحتاجون إليه من أنواع الميرة وساير تعلقات آلات الحرب والجبخانات المعينة على الطعن والضرب، فجاءت إليهم الحمول موقرة وعمت جميعهم وزادت مُدَّخرةً موفرة، فنعم عيشهم وإزدان وإزداد جيشهم وزال (ص٨٧) وهمهم وذهب طيشهم.

وجلس حضرة أفندينا مع نجله مولانا طسن باشا ودبر له ومعه كل ما يلايم مما يضمحل به العدوّ ويتلاشى[١]، وأحكم له الأمر وأتقنه، وأبدى ما تكمل به المهابة وأعلنه، وأمر رؤسا العساكر بإتباعه والبعد عن خلافه بالإذعان لقوله وسماعه، والتقرب إلى ما يرضيه والمبادرة إلى مطلوبه وما يعنيه، وحض على ملازمة ما يضعف الأعدا، وكل ما يجلب لهم صنوف الردا، ثم أفاض عليهم ظلال إنعامه، وأحاطهم بأفضاله وإكرامه، وبذل لهم الفضة والذهب وأولاهم البغية والأرب، وكذلك فعل مع جيوشه من العرب، حتى دعا له الجميع وإلى مراضيه سار جمهورهم وإقترب، ورغبوا فيما إليه يرغب، وذهبوا في خدمة حضرته أحسن مذهب، وإنضموا إلى عساكره المنصورة، وصار الجميع في أجل حرمة وأبهج صورة، وأحاطوا بحضرة سيدنا طسن باشا أجمعين وإنقادوا لأوامره سَامعين طائعين، وصمموا على حرب طائفة الوهابية وجزم رؤساؤهم (ص٨٨) بإرهاقهم بكل بلية.

ثم شرع حضرة صاحب السعادة بالرجوع إلى مصره، وقد فاق بصنيعه سادات عظماء عصره، فودعه الكبير والصغير وكل إلى جنابه بالتعظيم يشير، ودعوا له بطول

[١] - في نسخة [دار الكتب] "ويتلاشا".

البقا وأن لا يدع سما عزّ حتى يتملكها بالإرتقا، فسار أيده الله بعد أن عم أهل الحرمين إحسانه وإستغنى الفقير فهو مطمئن المستقر ومصانه، وزال عن بلاد الحرمين النصب وذهب عنهم ما كان لديهم من الوصب، وتهنى[١] الخاص والعام، وكان لهم عيد سرور ذلك العام، ومازال سَايراً وهو مصحوب بالعز والجلال والكمال والوقار والجمال، وجات البشارات إلى مصر[٢] بقدوم حضرته، فكانت المسرة الكبرى في قطره ومدينته، وخرج لمقابلته السادة الفضلا والعلما والأكابر النبلا وروسا عساكره وأجناده، وأنزل الله تمام الأمن والخصب بكافة بلاده، وفرحت أهل مصر بدنوّه وقربه، وسألوا الله النصر له ولحزبه، فجلس حضرة صاحب السعادة قريب العين، (ص٨٩) ووالى إلى الحرمين إرسال الغلال والنقدين، وواصل الذخائر متتالية ليظهر بأعدايه شعائر الحين والبين، وتواصلت كتبه إلى حضرة نجله، وأكثر من النجدة الزائدة لأجله، حتى صارت الطرق براً وبحراً مشحونة[٣]، وملئت المويلح وينبع وجُدة وتلك البلاد بالمعونة، فصار حضرة أفندينا طسن باشا بعساكره، وإمتلأ الوادي بجنوده ودساكره، ونهض طالباً بلاد الوهابية بشدة عزم وفرسان قوية، فبلغهم قدوم سيدنا بأجناده وشجعانه ليوثه وآساده، فخافوا عاقبة ذلك الأمر، وأن يمسهم حريق ذاك الجمر، فعقدوا التدبير وأحسنوا فيه التفكير وإختاروا عقلا من كبارهم ورسلاً من ذوي آرايهم وأخطارهم كي يطلبوا من حضرته الصلح والأمان ويستقر أمرهم على حال الإطمئنان، ويتمموا مع حضرته ذلك ويحسن الحال على ما هنالك، ولا يتعرضون لأرض الحرمين ولا لجهاته وأهله ما دام تطارد الملوين، وأرسلوا (ص٩٠)

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] "تهنأ".

[٢] - رجع محمد علي إلى مصر في ١٥ رجب ١٢٣٠هـ/٢٣ يونيو ١٨١٥م عن طريق القصير وقنا وقوص. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٢٠ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٥٠ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٦٢.

[٣] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٢٥-٢٢٦.

شيأ من الهدية رجا تمام تلك القضية، فجات الرسل لحضرة طسن باشا ولهم، [وكان واسطتهم إذ ذاك رجل من كبارالعرب][1] وسايط لديه وهم معولون على الركون إليه، فتكلم واسطتهم مع حضرته وحسن له عقد العهد منهم، و لم يصدق مع الوزير في خدمته بل كان ذلك غشاً منه وخيانة وغفلة عن رعاية باطن الأمر بل عدم ديانة، ومازال مع حضرة أفندينا طسن باشا يوهمه أن ذلك هو المناسب بل عين الصلاح، وإنه أعظم أسباب الظفر بل حقيقة معنى النجاح، وأن فيه الراحة لكل من الفريقين ولاسيما وقد أمنت بلاد الحرمين الشريفين، وترتاح العساكر والأجناد ويعودون بالسرور إلى مصر وتلك البلاد[2]. ويقال أن الوهابية هم الذين ذلوا بطلبهم الأمان خوفاً من همته وإنزعاجاً من سيفه والسنان، وطالب الصلح تنبغي إجابته، وربما كان غير الراضي به لا تحمد عاقبته، وعلى الخصوص والوهابية في عدّ الرمل والحصّا وضبطهم وحصرهم لا يدرك إلا بالإستقصا، مع أن سبب الحرب معهم إنما (ص٩١) هو تعديهم على الحرمين وإستيلاؤهم على بلاده بغير مين، وهذا هو الموجب لما وقع من الحروب، وقد زالت وإرتفعت تلك الخطوب، وحيث إلتزموا بالإنكفاف وترك

---

[1] - ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [سوهاج] في الهامش الأيمن للصفحة.

[2] - كانت أول مفاوضات بين الوهابيين ومحمد علي وطوسون في ذي القعدة ١٢٢٨هـ/ أكتوبر-نوفمبر ١٨١٣م، حيث أرسل سعود إلى محمد علي لإفتداء المضايفي بمائة ألف فرانسة، ووقف القتال والصلح بينهم، فإعتذر محمد علي عن أمر المضايفي لإنه قد سفر إلى استانبول، وإشترط محمد علي لعقد الصلح أن يدفع الوهابيون كل ما صرف من بداية الحرب في تجهيز الجيش، وأن يسلم ما إستولوا عليه من ذخائر الحجرة النبوية ويدفع ثمن ما إستهلك منها، ثم يأتي سعود ويتقابل مع محمد علي لعقد معاهدة الصلح، ثم أرسل عبد الله ابن سعود رسل للتفاوض وإجراء صلح مع طوسون باشا شوال ١٢٣٠هـ/سبتمبر ١٨١٥م، وإنتهت المفاوضات بعقد صلح ووقف القتال، وإرسال وفد من الوهابيين إلى مصر لمقابلة محمد علي، ولكن محمد علي لم يرض بهذا الصلح لعدم سيطرته على كل الجزيرة العربية وقطع دابر الوهابيين. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٨٠، ٢٢٩ ؛ أمين سامي: تقويج النيل، ج٢، ص٢٥٢ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٦٢.

العناد والخلاف فطريق العدل والإنصاف أن لا يصلهم منا إزعاج ولا إرجاف، هذا مع ما ثبت للحضرة من المهابة والإجلال، فينبغي أن لا يلم بها شي من موجبات الإخلال، وصار ذلك الرجل يكثر لحضرة سيدنا طسن باشا من هذه المعاني ويروج له تأسيس قواعد المصالحة بتلك المباني، لأن الوهابي كان قد أرسَل لهذا الرجل المتوسط مقداراً كبيراً من الذهب النقد موضوعاً في سَفْط، وملكه ذلك إذا تمم له الغرض، وجعل على نفسه مقداراً آخر وأشيا نفيسة تفترّض، فإشتد طمع ذلك الإنسان، وغلب حب الدنيا على ذلك الشيطان، [ولاسيما والأعراب في تلك الأرض يميل في الغالب بعضهم إلى بعض][1]، وأوهم حضرة الباشا أن الأمور مجهولة العواقب، فالأنسب مراعاة إبقا شعار الهيبة لذوي المراتب، وأيضاً فعرب الحجاز ليسوا بمأمونين، وربما مالت الأشكال لبعضها (ص٩٢) فيصيروا مجتمعين، فاللايق من الحضرة الكريمة العفو وتمام عهد الصفح والصفو، ومازال مع الحضرة حتى أحكم هذا المعنى، وتوالت رسل الوهابي بذلك العهد والمعنى[2]، فعقدوا عقود المصالحة، وأزيلت أسباب المشاحة وفرح الوهابي بإدراك مقاصده ودفعت عنه مضار عدوه ومراصده، وكثرت الأفراح بأجناده، ووصل الخبر بذلك إلى قبائله وبلاده، فتم سرورهم وإنشرحت صدورهم وإنتظمت أمورهم وذهب خوفهم وثبورهم، وكلهم [كانوا][3] للخلاف مبطنين، وعلى نقض الصلح بعد رجوع الباشا متعاهدين، وعلى الجور والفساد معولين، فتعساً لهم أجمعين.

ثم لما إنقضى ذلك الحال عول حضرة طسن باشا على السير والإرتحال، فركب بجيوشه وجموعه وبعض الجيش ينهض في إيابه ورجوعه، وسَارَ وَوَجّه الأثقال من البحر، وزالت عنهم أسباب المتاعب والقهر، وما زالوا حتى دخلوا أرض الكنانة

[1] – ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [سوهاج] في الهامش الأيسر للصفحة..

[2] – في نسخة [دار الكتب] وفي نسخة [سوهاج] مكتوبة في النص "المفنى".

[3] – ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج].

مصحوبين بالسلامة والصيانة[١]، وإجتمع مع حضرة (ص٩٣) صاحب السعادة والإجلال سيد الوزرا ومركز دايرة الكمال والأفضال المشار إليه بالهمم في كل مكان المحيط أمنه بالمنازل والسكان ذو المجد والقدر العلي حضرة أفندينا محمد علي أحاطه الله بدوام النصر والتأييد وحفه بالعناية والعز على التأييد فقابل نجله الجليل وواجهه بالتكريم والتفضيل[٢]، إلا أنه في باطن الأمر وحقيقته ما رضى بالذي كان ولم يركن إليه بفكرته، فأسبل ذيل إغضائه وأظهر بشاشة رضايه، ومضت شهور وأيام وحضرته ينوي نقض ذلك الإبرام، ويُؤمّل أجلّ مرام، ولا يُعنْونُ عما أضمره للأَفَهْام بإفهام، وقد إنتشر لحضرة نجله طسن باشا صيت جليل، وكان له عند جميع[٣] أهل مصر الذكر والثنا الجميل، فمكث مدة يسيرة وقد طابت له ومنه السريرة والسيرة، فبرز الأمر المطاع والقول الواجب الإتباع من حضرة صاحب السعد والإقبال بتوجيهه متولياً ضبط جهات الغربية والبحيرة ومثل رشيد وأراضي (ص٩٤) برنبال[٤]، لقربها من البغاز والثغور تتميماً للأحكام والأمن ونظام الأمور، فتوجه حضرة سيدنا طسن باشا بأتباعه وعساكره وفرسانه وأشياعه وجلس بنواحي برنبال[٥] ومكث هناك، فحصلت

---

[١] - عاد الأمير طوسون إلى السويس عن طريق الطور فالسويس، ووصل إلى القاهرة في ٥ ذي الحجة ١٢٣٠هـ/ ٨ نوفمبر ١٨١٥م، وكان قد صدر له أمر سلطاني بتولية بلاد الحبش وجدة ومشيخة الحرم المكي في ٥ شوال ١٢٣٠هـ/١٠ سبتمبر ١٨١٥م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٣٠ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٥٢.

[٢] - قابله بقصر رأس التين بالإسكندرية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٣٠.

[٣] - في نسخة [دار الكتب] كلمة "جميع" مكتوبة في الهامش.

[٤] - **برِنْبال**: من القرى القديمة، اسمها الأصلي "بورنبارة" من إقليم فوة والمزاحمتين، كما أطلق عليها "بارنبال"، وهو اسمها الحالي من سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م. محمد بك رمزي: القاموس الجغرافي، ق٢، ج٢، ص١١٢.

[٥] - كان أول بناء لمعسكر للجند بدلاً من الخيام عندما أمر محمد علي في ذي القعدة ١٢٣١هـ/سبتمبر-أكتوبر ١٨١٦م ببناء قشلاقات (مساكن) للعساكر الذين وزعهم على الأقاليم

له الهيبة في قلوب من بتلك الجهات من الرجال، وفي ذلك الوقت كان حضرة شقيقه الأسعد وأخيه الجليل العظيم الأمجد، الفارس المهاب والليث الوثاب، ذو الهمة العلية والمهابة المعتصمية حضرة سيدنا إبراهيم باشا أدام الله له البقا، وأعْلى عزه علـى الثريا مرتقى متأمْراً بقطر الصعيد[١]، وحاكماً بذلك الوادي السعيد فكان كل من هذين النجلين النجمين بل النيرين بِطَرَفٍ من قطر الكنانة لتتميم المهابة وإحكام الصيانة، وحضرة صاحب السعادة الكبرى ومليك السيادة والإقبال والبشرى مولانا وأفندينا

بالأرياف، وذلك لتضررهم من الإقامة الطويلة بالخيام في الحر والبرد، وأصدر مراسيم إلى جميع النواحي وسائر القرى يأمرهم بعمل الطوب وإرساله إلى مواقع العمل، وكذلك إرسال أفلاق النخيل والجريد والعمال. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٥٤ ؛ أمين سامي:.تقويم النيل، ج٢، ص٢٥٧.

[١] – تولى إبراهيم باشا دفتردارية مصر بالفرمان السلطاني المرسل في ١٠ رجب ١٢٢٢هـ/١٣ سبتمبر ١٨٠٧م تقديراً لما بذله محمد علي باشا في إجلاء الحملة الإنجليزية، وبعد ذلك تولى إمرة الصعيد إلى جانب الدفتردارية في ربيع ثان ١٢٢٧هـ/إبريل ١٨١٢م، ثم جاءه فرمان آخر بإمارة الصعيد في ١٢ جماد ثان ١٢٢٨هـ/١٢ يونيو ١٨١٣م ضمن هدايا السلطان لمحمد علي ورجاله بعد إسترجاع مكة والمدينة، وظل كذلك إلى أواخر سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م حيث سافر على رأس حملة جديدة إلى الحجاز، وبعد إنتصاره وإستيلائه على عاصمتهم وأسر قائدهم عبد الله بن سعود عين والياً على جدة في ٤ ذي القعدة ١٢٣٥هـ/١٣ أغسطس ١٨٢٥م. وقد إهتم إبراهيم باشا بالزراعة والصناعات القائمة عليها، فأنشاء مصنعاً غربي القاهرة فيما بين القصر العيني وقصره الذي عرف بالقصر العالي على شاطيء النيل لعمل السكر، ولا زال هناك شارع معمل السكر الى جوار القصر العيني القديم إلى الآن. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٧٤، ١٤٨، ١٧٧، ٢٦٩ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٥، ص٩٢ ؛ عبد الحميد نافع: ذيل المقريزي، ورقة ٤٨،٤٩ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٩، ٣١٠ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٨٩٠، ج٣، ص٩٧٩ ؛ أحمد الحته: جهود إبراهيم باشا في خدمة الزراعة والصناعة والتجارة، ص٧٩. والمعروف أن أمير الصعيد كان من أهم مناصب الأمراء المصريين في العصر العثماني وكان مقره في مدينة جرجا. ليلى عبد اللطيف: الإدارة، ص٣٨٢.

المعلوم الصدر الوزير مريع القتال والقُـرُوم أعـزه ا لله بتـأييده وشـرفه بكمـال تسـديده جالس بمدينة مصر ممهد لأهلها إزالة الإصـر، ديدنـه الهمـة والفتـوة (ص٩٥) وشـعاره الأفضال والمروّة، فمضى على ذلك زمن يسـير، وإذا بحـادث أذهـل الكبـير والصغـير، وطامة حزن مقدرة بمحكم القضا، وقضية ضنك عمت الفضا بقدوم مخبر حـدث ومـا تحاشا وترجم محرباً عن موت سيدنا طسن باشا[١]، وحاصل ذلك الحـال والأمـر الـذي كدر القلوب وهيج بها الإشتغال، أنه في يوم مـن الأيـام خـرج للميـدان علـى جـواده وهو في غاية الأبهة والنظام محفوفاً بالسرور متوجاً بالبشرى والحبور، وصار يكر علـى جواده ويتعجب الفرسان من طراده حتى حير الأبصار، ثم نزل أخير النهار ودخـل إلى محله المستور عند حرمه المصون المشهور، فلما إستقر حيناً يسـيراً حـم سـاعات بـالليل ولقى أمراً عسيراً، ثم سكن ساكتاً وإسـتقر خافتـاً، وتـولاه ا لله برحمتـه ونقلـه إلى دار كرامته، فجاؤا به إلى بستان شبرا[٢]، وكان حالاً نكراً، فتوجه أفندينا صاحب السـعادة وتحقق ما قضـاه ا لله وأراده، فلمـا أصبـح الصبـاح وأشـرقت الشـموس علـى الروابـي والبطـاح خرجـوا بمشـهده العظيـم، وكـان يومـاً مشـهوداً بـالهول الجسـيم، و لم يبـق (ص٩٦) أحد بمصر وأهلها إلا وعمته الأحزان بوجلها، لأنهم كانوا يحبونـه ويألفونـه ويودونه، ومازالوا حتى دفنوه بالقرافة بقرب الإمـام الشـافعي[٣]، وشمـل الجميـع الحـزن والذهول، فما منهم من يسمع ولا يعـي، ولازمـت القـراء محلـه الكريـم، وإسـتدامت تـلاوة القـرآن العظيـم علـى الـدوام والإسـتمرار في أوقـات الليـل وسـاعات النهـار،

[١] - حدث ذلك في ٧ ذي القعدة سنة ١٢٣١هـ/٢٩ سبتمبر ١٨١٦م.

[٢] - الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٦٤-٢٦٥.

[٣] - أنظر وصف الجبرتي لهذه الجنازة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٦٥.

وأفيضت على الفقراء الصدقات وتوالت الخيرات والنفقـات[١]، وهلـم إلى هـذا الأوان، أنزل ا لله عليه غيوث الرحمة وعمه بالرضوان.

هذا وحضرة صاحب السعادة قد كظم غيظه بعـد أيـام، وزال عـن حضرتـه تلـك الشواغل والأوهام، وإستعمل الصبر الجميل ورضى بقضا ا لله الجليل، وتحقق أنه الأمـر الحق والشأن الذي لكل نفس يلحق، وأنه لا مفر مـن ذلـك ولا فـرار عـن تنفيـذ أمـر السيد المالك، فأظهر ما عنده من مضمر الحزم وصـرح بـالأمر الـذي هـو عنـده حتـم جزم، فأحضر في عاجل الحال حضـرة ولـده الكبـير المفضـال السـيد الهمـام الشـجاع المقدام حضرة سيدنا أفندينا إبراهيم باشا أبقـاه (ص٩٧) ا لله موفقـاً للخـيرات محفوفـاً بالعز والمسرات وجا به من الصعيد إلى مصره وأحكم معه تدبيره المنتج لمعـاني نصـره، وأمر بتجهيزه إلى بلاد الحرمين[٢] وتتميم أمر الوهابية حتى يصيروا أثراً بعد عين. وكـان

---

[١] – من هذه الخيرات السبيل الذي أنشأه صدقة على روح ابنه بالعقادين سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠م، أثر رقم ٤٠١، وبنى فوقه كتاباً لتعليم الأطفال. الجـبرتي: عجـائب الآثـار، ج٤، ص٢٦٥ ؛ علـي مبارك: الخطط، ج٢، ص٢٨ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٨٥.

[٢] – كان هذا في ١٠ شوال ١٢٣١هـ/٥ سبتمبر ١٨١٦م حين سافر إبراهيم باشا ابن محمـد علـي على رأس حملة جديدة إلى الحجاز فيما عرف بحملة الحجاز الثانية، وكان الهدف منها القضاء علـى قوة الوهابيين نهائياً بعد أن نجحت الحملة الأولى في الاستيلاء على الحرمين، ثم أرسـل لـه في صفـر ١٢٣٢هـ/ ديسمبر ١٨١٦م عساكر أتراك ومغاربة ومعهم حرفيـين وأصحـاب صنـائع، وتعزيـزات أخرى في ربيع ثان/يناير-فبراير ١٨١٧م، وسافر كذلك إبراهيم أغا كتخدا إبراهيـم باشـا في جمـاد أول بعسـاكر وعتـاد. وجـاءت أول أنبـاء بإنتصـار إبراهيـم باشـا عنـد الموتـان في ١٠ رجـب ١٢٣٢هـ/٢٦ مايو ١٨١٧م، ثم أرسل إليـه عسـاكر مغاربـة وأتـراك في ١٩ محـرم ١٢٣٣هـ/٢٩ نوفمبر ١٨١٧م، وجاءت الأخبار في صفر ١٢٣٣هـ/ديسمبر ١٨١٧م بإستيلاء إبراهيم باشـا علـى الشقراء وقبضه على زعيمهم عتيبة وإنسحب عبـد ا لله بـن سـعود إلى الدرعيـة، ثـم تقـدم إبراهيـم وحاصر الدرعية بمساعدة العربان، وخرج له من مصر كذلك ثلاثة دفعـات مـن العسـاكر في شـهر شعبان ١٢٣٣هـ/يونيو ١٨١٨م ورمضان/يوليو براً وبحراً، كما سافر خليل باشـا في شـوال بجيـش

قد بدأ منهم علامات نقض العهود والعود إلى الخيانة وطباع اليهود، فحشدت الرجال والفرسان وحشرت لديه الأبطال والشجعان، فإجتمعوا صفوفاً وصنوفاً وإستعدوا مئينا وألوفاً، وكملت ذخايرهم وإنتظمت شعائرهم، وأوصى حضرة أفندينا نجله الجليل وما كتم عنه معنى من تدابير كل فريق وقبيل، ثم بعد تمام أموره وإستقامة أحوال جمهوره ودّعه مع الدعوات المقبولة، فسار ومحاسن الأخلاق عنه واردة منقولة، وهو السيد الصنديد المحفوف بالهيبة والتأييد لا يلم بجيوشه فزع ولا يمسهم نصب ولا جزع، بل سايرون كالليوث الكواسر وكل منهم على حرب العدو مناجز ومبادر، حتى حل معهم بأرض الحرمين ونزل بالأعدا الوهم حتى أصيبوا منه (ص٩٨) بالمين، وفرحت أهل مكة والمدينة وإستحكمت بديارهم الطمأنينة، ومكث حضرة الباشا هناك أياماً معدودة حتى أحكم عساكره مضبوطة محدودة، وإنضافت إليه أجناد العربان وأقبلت لطاعته المشاة والركبان، وهيأ الذخاير والميرة وحمل منها الحمول الزائدة الكثيرة، وإحتاط حفظه الله غاية الإحتياط، وربط كلما يلزم له الأمر بأبلغ الإرتباط وتدبر تدبيراً يذهل الأكاسرة، ورتبه ترتيباً تعجز عنه القياصرة، وأبدع في طرق الحرب العَوَان ما يفر من سماعه ابن المنذر النعمان، وأظهر أبهة الإمارة والوِزَارَةْ، وبهر جموع الجميع بالعبارة والإشارة، وأبدى معالم السياسة وإستظهر بمحكم الحزم والرآسة، وسَار بجيشه كالبحر العجاج، وإستنار سعد طالعه كالسراج الوهاج، وصدم

آخر براً وبحراً، ثم جاء خطاب من عثمان أغا الورداني أمير ينبع في ٧ ذي الحجة/٨ أكتوبر بإستيلاء إبراهيم على الدرعية وقضائه على الوهابيين، وبذلك استطاع ابراهيم باشا الاستيلاء على عاصمة آل سعود، واستولى بالتالي على منطقة نجد وشرق شبه الجزيرة العربية والانهاء على الأسرة السعودية والدعوة الوهابية، وعاد إلى مصر في ٢١ صفر ١٢٣٥هـ/٩ ديسمبر ١٨١٩م عن طريق القصير. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٧، ٢٨٧-٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٠٥، ٣٠٦ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٦٥-٨٨ ؛ الرافعي: عصر محمد علي، ص١٤٢-١٥٠.

جيوش الوهابية بعزم وقوة كلاهما فيه سجية، ووالى عليهم الهزايم وصيرهم في ذل أهل الجرايم، وأذاقهم بالسيوف المشرفية مطاعم الهلاك (ص٩٩) ومشارب البلية، ووضع في أعناقهم حسامه الصقيل، وأرهقهم من بأسه بويل وبيل ونوع لهم أشراك العذاب الأليم، وأرسل بأرواحهم إلى مقرها من الجحيم، و لم يزل معهم كل وقت في شأن مكيد وحال مريع لهم ومبيد، وهم يفرون من أرض إلى أرض وضاق عليهم البر في طوله والعرض، وهو يتبعهم سيراً ويحيط بجيوشهم ضيراً حتى تقاربت عساكرهم بأراضيهم ودخلوا في كنف واديهم، وصاروا تجاه مدينة الدرعية وبالقرب من حماها وجهاتها المرعية، فنزل حضرة أفندينا إبراهيم باشا بعساكره ورتب الجموع من أبطاله وعشائره، وإستقر بذلك الوادي وأقام متوطناً ذاك النادي، وصمم جازماً وأبرم أمره لازماً أن لا يرحل من هناك حتى يصنع معهم صنوف الهلاك ولا يبرح عن تلك البرية بمن معه من ساير البرية حتى يأخذ مدينة الدرعية ويزيل معالمهم بالكلية، ولو أقام مهماً أقام في (ص١٠٠) ذلك المحل والمقام، فلله دره من سيد عظيم وبطل بمواطن الحرب عليم، وما أعظم هيبته في قلوبهم، وما أشد ما ألقاه من الرعب في صدورهم وجنوبهم، كم أذل أبطالهم وخرب أوطانهم وأجهدهم بالحسَام الصمصام وأسر رءساهم في مجال الصدام والخصام، حتى صاروا أذل من النعل، ولو تمكن لإفتدى بإبنته وزوجته الأب والبعل وبقى الجعل أعز من أمرايهم، وندموا على ما سلف من جدالهم ومرايهم، هذا وحضرة أفندينا إبراهيم باشا قد تواصلت إليه رسلهم وجا إلى حضرته في نهاية الخوف أماثلهم وطلب منه بعضهم الأمان فأمّنه، وأمر بالخروج عن الدرعية حتى يصل مأمنه، ووقع التخالف وإنفك من كثير عقد التألف، ثم أرسل عبد الله بن سعود رئيس أوليك الأقوام والجنود وطلب الإجتماع بحضرة أفندينا، وصار يلهج بالصلح حدساً وتخميناً، فأجابه إلى الحضور لديه ولا خوف ولا ضرر عليه، فإن وقع ما يرضى به حضرته الكريمة ويرى ويتحقق أن الأمور بذلك مستقيمة أجاب مبادراً لذلك، (ص١٠١) ونفذ الأمر بحسَب ما هنالك وإلا فلا يبرح عن مكانه إلا

بعد محاربة أهـل ذلـك البلـد وتشتيت سـكانه وإخـراج عزيزهـم عـن سـاحة أوطانـه وإرجاعه ذليلاً نادماً عن متابعة شيطانه، فأرسل ابن سـعود يقـول لحضـرة سـعادته أن يقابله مؤمناً حتى يعود كما خـرج مصونـاً إلى بلدتـه، فأجابـه لمطلوبـه وأن يتكلـم إذا حضر بمرغوبه، فحضر مع أناس من خواصه وأعرب عن مقصوده عامة وخاصـة، فلـم يعجب الحضرة ما أعربه ولا ألم ببعضه بل إستغربه، فأشار على الحضرة بعض الأتبـاع بأن يحبسه إذا هو كبيرهم المطاع، وأنّ أخذه غنيمة بادرة، والإستيلا عليه ظفـر بضالـة كانت شاردة، فلم يـرض أعـزه الله بذلـك، بـل إستقبح هـذه الإشـاعة مـن حضرتـه هنالك، وصرح أن الفخر في أخذه قهراً والمروة في أسره من الميدان جهراً أو تملكه مـن وسط مأمنه، فإن الإستيلا على مثلـه لا يحمـد إلا بعـد عجـزه عـن نجاة نفسـه وعـدم تمكنه، فعجب السامعون من كبير همتـه وتحققـوا أنـه لا ينقـض وثيـق عهـده وذمتـه، فرجع الوهابي إلى جنوده (ص١٠٢) وقد إنحلـت عقـود راياتـه وبنـوده، وسـار حتـى دخل الدرعية وأحضر آلات الحصار لحفظ البلـد والرعيـة، فمكـث عسـاكره بعضهـا جهة باب البلد وقد إنقطع عنهم سبب القـوة وعـدم المـدد، وبعضهـم مكـث داخـل الأوطان مراعياً حفظ أهله بتلك الأعطان، فحـاصرهم حضـرة أفندينـا وضيـق عليهـم وأرسَل أنـواع العـذاب مـن المدافـع والبنـب إليهـم، فدخلـوا جميعـاً بوسـط مدينتهـم، وصاروا موثقين في سجن حيرتهم وندامتهـم، وشـدد حضرتـه في إجهـادهم وجـد في حربهـم وجهـادهم، وواصـل ذلـك عليهـم ووالى نظـره في تـأمّل الجهـات حواليهـم، وأحكم مبالغاً في إرهاقهم، وأبـدع في إرغـام أنوفهـم وإرهـابهم، ومكـث علـى هـذا الصنع أياماً حتى ملؤا خوفاً وإزعاجاً وإيلاماً، فـإتفق لبعـض شـجعانه المشـهورة وهـو بطل من خواصه المذكورة[١]، أنه مشى بالليل البهيـم ملاصقـاً لجـدار البلـد ومعـه كـل

---

[١] - وهي فرق الكومندوز، وتعرف في التركية شرخجية، ومفردها "شرخجي"، وهـي مـن الكلمـة التركية "جرخه جي"، وهي طلائع القوات الـتي تنـاوش العـدو. رد حـاوس: كتـاب معـاني لهجـة، بيروت ١٩٨٧، ص٧١٨.

غضنفر جسيم ساكتين عن الكلام ساكنين تحت أستار الظلام، حتى وصلوا لمجرى مايهم (ص١٠٣) وتأملوه بلطف آرايهم، فنزلوا فيه سائرين وساوروا حتى ظفروا بالمدخل لذلك البلد الحصين، فوجدوه مدخلاً ضيقاً يسير الرجل فيه منحنياً لسقفه ملاصقاً، فصمموا على دخول البلد من ذلك المجرى، وإنهم لا يرجعون حتى يذموا أو يجدوا[1] ذاك المسرى، فدخلوه متوكلين على رب الأرباب، وساروا فيه بلا وهم ولا إرتياب، فأعانهم الله وقوّاهُم وثبت جأشهم وقُوَاهُم، حتى وصلوا إلى غايته وعاينوا المصعد في نهايته، فصعدوا أجمعين وصاروا بالدرعية ومن بابها متقربين، فإستعدوا للحرب وتهيأوا للطعن والضرب، وأرسلوا لحضرة أفندينا ينجدهم وبقوة عزمه يسدّدهُمْ ويساعدهم، ثم فتحوا الباب وصاحوا صيحة الليث المهاب، فثار إليهم أهل البلد وتزايد عليهم العدد وأحاطوا بهم من كل مكان، وإنزعجت النسا والسكان، وإشتغل الشجاع بنفسه وذهل عن ولده وعرسه، ووقع الحسام في الأعناق وقامت الحرب على ساق وضاق المجال وكثرت الأوجال (ص١٠٤) وإشتد الزحام، وطير المنية على رؤسهم حام، وسالت الدما بدل الدموع، وذهب الأمن وفر الهجوع وطارت الرؤس وتلفت النفوس وصمت الفصيح وفزع الجريح وذهل الطريح وضاق الفسيح وهدرت الشجعان، وحمى وطيس الحرب العوان وولى الجبان وزاد جنون الجنان، فياها من لَيْلَة لقى بها المقصر ويله، ولازالت نار حربها في إشتعال حتى آذن الليل بالإرتحال

وبدأ شعاع السيف منبسطاً   فوق البسيطة بالدم القاني
ورنا الْكميُّ خُصمه شزراً   وتحكم الهنديّ في الجاني
وغدا الجبان يقول وا أسفا   مالي ومَنْ للحَرْبِ أَلْجَاني
وسطا الشجاع وصار منتهباً   أرواح كل مقصر شاني

[1] – في نسخة [دار الكتب] "يحمدوا".

فلله در أجناد أفندينا وشجعانه، لقد أدهش كل منهم بضربه وطعانه، غير أن الجمع تزايد عليهم ومال ابن سعود بكثرة رجاله إليهم وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم، وكل من الفريقين حلف وأقسم أن لا أبرح إلا بالقصاص ولات حين مناص، (ص١٠٥) وتفوّت الأعدا وتكاثرت وصاح بعضها على بعض وتناصرت وأطالت إظهار أحقادها وما قصرت، ونظرت في إغاظة خصومهم وتبصرت حتى أغاث الله عسكر السنيين[١] بحضور الليث الهمام وأسعدهم بقدوم خميس ذلك الضرغام، وكان قد بلغه ما وقع فإستنهض الرجال وأسرع وسار مجداً منجداً، وصاح مبرقاً مرعداً فأدرك رجاله بذلك المكان بعد الذي قضى وكان، فهجم كالهزبر وعجل بحماتهم إلى القبر، وسطا سطوات حيدر الكرار وحرم على جفونهم لذة الفرار[٢]، وحكم بأقفيتهم سيفه البتار وأسال الدما كالوابل المدرار، وحاربت رجاله حرب الأسود وأذلت الأعدا وصبغت بحمرة الدما وجوههم السود، فتكاثرت أهل المدينة وحاربوا عن الظعينة ومانعوا عن أنفسهم وأولادهم ومنازلهم وبلادهم، فصاح أفندينا في أبْطَاله وزجرهم محرضاً على هزم العدوّ وإبطَاله، فإشتد الأمر وحمى الجمر وكافحت الفرسان وبرق (ص١٠٦) السيف والسنان وإختلطت الجموع ببعضها البعض، وغض الوهابي نادماً على يديه وآنى يفيده العض، وطال المطال والشجاع إستطال وتجندلت الأبطال وصارت الأعدا كالدوانيق فلا توازن الأرطال، ومازال برق السيف يسطع والهامات تقع بعد أن تقطع، والغبار إلى الجو وعدم النور والضو حتى ذلت الوهابية صاغرين،

---

[١] – يصور المؤلف هنا السنيين في مواجهة غير السنيين كما وصفهم الجبرتي بقوله "وفي إعتقادهم الخروج بقصد الجهاد وغزو الكفار المخالفين لدين الإسلام"، كما وصفهم كلوت بيك بأنهم "خوارج مبتدعون في الإسلام، يريدون على قولهم الرجوع بهذا الدين إلى حالته الأولى من السذاجة والتقشف". الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٨٩ ؛ كلوت بيك: لمحة عامة، ج١، ص٦٥.

[٢] – في نسخة [دار الكتب] "القرار".

وولت جموعهم إلى الدور منهزمين، وأغلقوا عليهم الأبواب توهماً أن ذلك ينجي من قطع الرقاب، فنزل حضرة الباشا وأمر جيوشه بالنزول وطلب بذلك راحة فرسانه ورجاله الفحول، ونزلوا بتلك الساحة وكانت متسعة في المساحة، وهي وسط البلد والدور، وجلسوا ليذهب ما بهم من الفتور، فإرتاحوا آمنين وإطمأنوا أجمعين، ومكثت الأعدا في المنازل مخذولين مرهوقين من الحضرة ومتخالفين، فصبر أفندينا يسيراً وأمر بمداواة الجرحى وما أبدى تقصيراً، ثم آذن بالأمان لطلابه ولكل من[1] ألقى سلاحه وبادر لفتح بابه، (ص١٠٧) فإنقسمت أهل الدرعية إلى قسمين وصاروا متظاهرين بوسمين، قسم مؤمن مع جماعته وآله، وقسم بقى محصوراً مرعوباً على سابق محاله، وأراد حضرة أفندينا أن يطلب ابن سعود الأمان وإلا هدم الدور على رأسه بمن معه من الفرسان، فبينما هم على هذا الشأن المدبر وإذا بابن سعود قد خرج عارفاً أن أمرهم قد أدبر، فأحاطت به فرسان أفندينا، فقال لسان حاله الأمن بالأمان ينادينا، فبادر حضرة الوزير وأمر أن لا يرهق ابن سعود بنكير، فسار ابن سعود بجماعته والجيش محيط بهم في بلده وساحته، ولازال يخطو بأقْدَامه وقد إضمحطلت مظاهرُ إقْدَامِه حتى دخل على حضرة الصدر وحياه وإستجار بهمته وطالع محياه، فَبَشّ فيه وأمنه وما أخجله بالقول ولا آلمه، وأمن من معه من أتباعه ورفع الأضرار عن أشياعه وأمرهم بالجلوس لتطمئن منهم النفوس، وقال له يا عبد الله أزل عنك الأوهام، فقد وقيت الإرعاب (ص١٠٨) والإيهام، ولا خوف عليك ولا حرج، فليجلس بداره من طلب، وليخرج من خرج، فكلهم مؤمنون وعلى أهلهم وأتباعهم مطمئنون، فدعا له دعا جزيلاً وأثنى على أخلاقه الشريفة ثنا جميلاً، ثم حادثه درجات يسيرة وأمره بالرجوع لداره وأهله لتبتهج منهم السريرة، فقام متوجهاً لداره وسكنه ودخل مطمئناً

---

[1] – في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيمن للصفحة، وقد أشار إليها المؤلف في النص برقم ٣.

أهل[١] وطنه، وجلس قليلاً من الأيام متردداً إلى حضرة الصدر الهمام، فخاطبه أفندينا بعد ذلك وأبان له عن المضمر مما هنالك، فقال له يا عبد الله إني فعلت معك ما أمكن، وحصل لك الأمن على نفسك والمسكن، وقد سكن جأشك وطاب لك معاشك وبقى ما لا بد من حصوله، وها أنا أعرب لك عن ملخص محصوله، وهو أنك مع خواصك وذويك وكل من يريدك ويصطفيك يتحتم سفركم جميعاً إلى أرض مصر، فبذلك يزول عنكم أسباب الإصر، لتقابلوا أفندينا الكبير الصدر السند الوزير ذيْ القدر العلي (١٠٩) حضرة محمد علي، وأرسل معكم أناساً من خاصَّتِي وأرفع إلى حضرته الجليلة قصتي، وهذا أمر لا يدرك وقوعه ولا يمكن إلا إظهاره وشيوعه ولا يتأتى غير هذا المقول، ولا يقول سواه أرباب العقول، فإن أجبت طائعاً فهو الأحسن إليك، وإلا سرت قهراً عنك بدايرتك وما حواليك، لا يمكنك التوقف ولا يخطر بذهنك التخلف، فجهز أمرك مبادراً مطيعاً مجيباً مسرعاً سميعاً، فقام ابن سعود وأشاع ذلك الخبر وبلغ جماعته الأمر الذي به أئتمر، فتهيئوا بعيالهم للسير وترجوا بوصولهم إلى مصر ذهاب الضير، فحملوا رواحلهم الزاد وساروا مع بعض أتباع حضرة أفندينا كما أراد، وكاتب حضرة والده صاحب السعادة مخبراً له بما وقع على العادة[٢].

فسار الوهابي مع أناسه وقومه ذكوره وإناثه، وكانوا قريباً من الألف في العدد الرجل وماله من زوجة وولد، وهذا عدد الرجال سوى النسا والأطفال، فساروا وهم

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] "بأهيل".

[٢] - لم يذكر الجبرتي شيئاً عن مفاوضات إبراهيم باشا مع عبد الله بن سعود، بل ذكر لنا ما دار بينه وبين محمد علي بعد وصوله إلى مصر، وقد أشارت المصادر الحديثة إلى هذه المفاوضات بداية من طلب عبد الله بن سعود الصلح في ٨ ذي القعدة ١٢٣٣هـ/٩ سبتمبر ١٨١٨م وذهابه لمقابلة إبراهيم باشا وطلبه لتأمين سكان الدرعية والتشفع له عند محمد علي والدولة العثمانية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٩٩ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٨٢-٨٤ ؛ الرافعي: عصر محمد علي، ص١٤٨-١٤٩.

بشعارهم وقد لبسوا ثياب (ص١١٠) عارهم حتى دخلوا مصر أجمعين، منضمين ببعضهم ومجتمعين، وكان يوماً مشهوداً وعيداً من أكبر الأعياد معدوداً، ففرقهم فرقتين وأسكنوهم بمصر في جهتين[١]، ورتب لهم صاحب السعادة ما يكفيهم وأعطاهم من رفده وإحسانه أمناً يوافيهم، وقابله ابن سعود خاضعاً داعياً لجنابه ولعفوه مراعياً، فقال له حضرة الصدر الوزير العلي القدر يا عبد الله تمام أمرك وإنكشاف مضمون خبرك ذهابك مع رجلين إلى حضرة ملك الخافقين من شعاره السودد والوقار ومعالمه التقوى والأنوار، سيد ملوك الأمم وسلطان العرب والعجم المحفوف بعنايةِ الرب الودود حضرة مولانا السلطان محمود نصره الله ولا بد لك من ذلك ولا محيص عن مسيرك إلى هنالك، ثم أرسله مع أحد أتباعه من طريق البحر، فكانت عاقبته عند وصوله النحر[٢]، ولم يمكث بإسلامبول سوى بعض أيام، ثم قطع عنقه مع رفيق له وهو له إمام، وأرسل حضرة السلطان يثني ثنا جليلاً ويشكر شكراً جزيلاً[٣] (ص١١١)

---

[١] - حضر في ١٨ رجب سنة ١٢٣٤هـ/١٣ مايو ١٨١٩م حوالي ٤٠٠ فرد من الأسرة السعودية وأسكنوهم بالأزبكية عند شارع الساحة الحالي، وسكن عبد الله بن سعود بدار عند جامع الست مسكة، ثم حضرت جماعة أخرى في محرم ١٢٣٥هـ/أكتوبر-نوفمبر ١٨١٩م، وأسكنوهم في دار بحارة عابدين، كما حدث تمرد من بقية العائلة السعودية في نجد في سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م سيطر عليه حسين بيك وقبض عليهم وأرسلهم إلى القاهرة في شوال من نفس العام وأسكنهم في خط الحنفي. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٣٠٣، ٣٠٥، ٣١٩.

[٢] - وصل خبر قتله في استانبول عند باب همايون مع بعض أتباعه في جماد أول ١٢٣٤هـ/ فبراير-مارس ١٨١٩م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٣٠٢.

[٣] - كان ضمن هذا الشكر منح محمد علي في ١٠ محرم ١٢٣٠هـ/٢٤ ديسمبر ١٨١٤م المنطقة من الحجاز إلى ساحل القصير، ثم وصلت في ٢٧ جماد أول ١٢٣٤هـ/٢٤ مارس ١٨١٩م هدايا عبارة عن خنجر وساعة لكل من محمد علي وابنه إبراهيم، مع العفو عن من بقى من الوهابيين، وإعطاء محمد علي الحق في منح إمريات وقبجيات. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢١٦، ٣٠٢.

لحضرة أفندينا صاحب العز والهمم وسيد سادات أعيان سروات الأمم، فارس الدهر المحوط بالنصر، الشهير لدى الوزرا والملوك، مرضي الشأن ومحمود السلوك شكرته الدولة إبتهاجاً به، حتى صار ملهج لسانها وحل من عينها على الحقيقة محل إنسانها، فعدته لها حساماً مسلولاً وأيقنت أن ترد به صعب الخطوب ذلولاً، فهو الهمام حميد الطباع، والضرغام مهيب الأوضاع، الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي، سيدنا المحفوظ[١]، الذي هو بسر العناية ملحوظ، أدام الله تأييده، وكمل قواه وتسديده، فهو الذي أبطل مذاهب الوهابية وأبادها وأخلى من الأرض فجورها وعنادها، ولم يبق لهم من يشاحن ولا يفاقم، وإذلهم كما أذل سليمان الشياطين في القماقم حتى خمدت نيرانهم بعد إشتعالها[٢] وسكنت قلوب الموحدين بعد تقلبها من مكرهم وإشتغالها، فياله من رئيس رد كتائب الأعدا وصدها وأعدّ لهم جيوش أبطاله وبهمته وآرايه أمدّها ووالى عليهم سطوات عزمه الساطعة بروقها وفتق رتق إتفاق (ص١١٢) كلمتهم، فإتسعت عليهم من النكبات خروقها، فكم لحقهم من سيفه محقهم الذي إعتراهم وأخرجهم بما أخرجهم، ومن درع درعتهم[٣] عراهم، ولم يوجد من منذ خمسماية سنة طايفة غيرت الشريعة مثلهم في اليقظة والسنة، فكم لهم من رذائل لا ينفك أحدهم عنها ولا يزايل، فلله الحمد على هذا الصنع بأوليك الأرذال، وله الشكر على إضمحلال فجورهم الذي زال، فهى حسنة له على جبين الدهر مسطرة، وحديقة زهر بشميم عرفها أفئدة المؤمنين ووجوههم مبتهجة معطرة باقية مخلدة بوجه الزمان غرة لاتزال بفضل الله مستمرة عنواناً للمسرة والبهجة[٤].

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] "المعلوم".

[٢] - في نسخة [دار الكتب] "إشتعالهم".

[٣] - في نسخة [دار الكتب] "درعيتهم".

[٤] - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة بخط مخالف للخط السائد بالمخطوط.

الفصل الثالث

في قمع شوكة المفسدين من طوائف أجلاف الفلاحين والعربان بقطر مصر وإذلالهم

وهذا الفصل من العجايب، والـذي تضمنه يذكر في الوقايع الغرايب، وحاصل مضمون هذا الفصل وما أذكره فيه من القول الفصل، أن في دولة الغز الإبراهيمية والمرادية (ص١١٣) كان ببلاد مصر ونواحيها وقراها وضواحيها رجال موصوفون بالقوة، مذكورون بالكرم والفتوَّة اسماً بلا مسَمى، وخيالاً ما ألما، ونفصل مساكنهم ونذكر أماكنهم.

فمنهم ببلدة تلا[١] بفتح المثناة واللام بعدها كذلك مخففة رجل اسمه شيخ العرب رَسْلاّن[٢] برا مهملة مفتوحة وسين كذلك ساكنة، ثم لام ألف ونون بعدها، وكان رجلاً ربعة جسيم البدن أسمر اللون له قوة شديدة وأتباع كثيرة، وكان من الفرقة المعروفة بسعد، لأن جميع الفلاحين والعرب فرقتان سعد وحرام كما هو شهير[٣]، ورسلان هذا كان من سعد، وكان يلبس الثياب النفيسة من الهندي الجليل،

---

[١] - **تَلا**: بلدة قديمة من إقليم الغربية، أصبحت بعد ذلك أحد أقسام مديرية المنوفية سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣م، ثم سميت مركز تلا في سنة ١٨٧١م، محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق٢، ج٢، ص١٨-١٩، ١٧٣-١٧٤.

[٢] - **شيخ العرب رسلان**: وفي أواخر القرن ١٨م كان ابن رسلان قاطع طريق بالمنوفية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص١٠٢، ١٥٩.

[٣] - **فرقتا سعد وحرام**: جماعتان من المماليك والبدو أظهرتا كثيراً من التحدي لسلطات الحاكم في النصف الأول من القرن ١١هـ/١٧م، وقد أطلق على الأولى نصف سعد الفقارية، وضمت مماليك وعناصر من أهل الحضر والبدو، وظهرت كجماعات قوية هدفها السيطرة على أكبر ما يمكن من دخل مصر. وعرفت الجماعة المنافسة لها بأسم نصف حرام القاسمية، وضمت المماليك المنافسين

إلا إنه لا يضع على رأسه إلا لبدة من الصوف المعهود لبسها لفقرا الفلاحين وخدمهم وأتباعهم، فكان هو لا يلبس الطربوشة مثل غيره من أعيانهم، بل مستديم لبس اللبدة من دونهم، وكان يتعمم عليها بالشال الكشمير العظيم الكراخانة وله عذبة طويلة، وكانت فتحات أكمامه متسعة، وهو ساكن متوطن بقرية تلا، له دار جليلة متسعة، وله بها الخيول (ص١١٤) الجيدة، والعبيد العديدة والجمال والمزارع الجليلة، وكان على الدوام يركب ويصحبه الألف من الفرسان والألفان والثلاثة آلاف ويغير على بلاد حرام ويقع بينه وبينهم الحرب والطعن والضرب حتى يهزمهم ويقتل الرجال ويذبح على صدور النسا الولدان والأطفال، ويفعلون الفواحش المنكرة وينهبون الأمتعة والأموال الفاخرة،ولا يدعون كبيرة ولا صغيرة إلا فعلوها، ولا يغادرون خصلة من القباحة إلا أحصوها، ويرجعون بالأغنام والجمال آلافاً مؤلفة، وبالدجاج والأوز والثياب والغلال أصنافاً مصنفة، فيأخذ من ذلك اللعين رسلان لنفسه ما يريد ويعطي باقيه لعسكره الأجلاف ولمن معه من طوائف الفلاحين والعبيد، ويتوجه إلى بلده فيمكث بها مدة فيتفق أن يقع بين الفلاحين كرب وشدة، فيستنجد به أناس فينجدهم ويحارب بجيشه أعداهم ويخذلهم، وكان له رجال يقفون بطريق المسلمين ويؤذون المارة من سَاير الطوائف (ص١١٥) أجمعين، فيسلبونهم ثيابهم ويأخذون أموالهم وأسبابهم، وكل من لم يسلم لهم بالإذعان قتل أو جرح، ولرسلان فيما يأخذونه قسطاً كبيراً متكاثراً.

وإتفق أن مراد بيك ركب من مصر بعساكره ورجاله وصناجقه وأبطاله، وأراد حرب رسلان وقتاله وصدامه ونزاله، ولا يعود إلا بعد قتله لرسلان وإذاقته الذل

وعناصر حضرية وبدو نصف حرام، وإنتهى الأمر بإسقاط أسم الجماعات البدوية وعرفوا ببساطة بالقاسمية والفقارية، وهى الجماعتان السياسيتان اللتان تنازعتا على زعامة مصر حتى منتصف القرن ١٢هـ/١٨م، حيث عزز القازدغلية سيطرتهم على مصر. أنظر:

Holt, Egypt and the Fertile Crescent, 84.

والهوان، فسار وبلغ الخبر رسلان فجمع رجاله وحشر أبطاله وتقابل مع فرسان مراد بيك في واسع البر، فلما فهم أن لا خلاص له في حربهم، أمر رجاله ففروا وفرّ، فأمر مُرَاد بيك مماليكه الشجعان وصناجقه وكشافه الفرسان أن لا بد من لحاقهم برسلان، وأن يحضروا به قتيلاً أو أسيراً، فإكبت الشجعان رؤسها في قرابيس السروج وكروا كراً شديداً في تلك الأرض والمروج، وبقى رسلان منفرداً، وفي ذلك البر متوحداً والفرسان جميعاً تسوق خلفه الخيول وكلهم يرمح جواده وما لهم أبداً إليه دنوّ ولا وصول، لأنه كان (ص١١٦) تحته فرس يضرب بها الأمثال، وهى من أصايل الخيل، عديمة المثال، ففر عليها رسلان وهو من الفراسة بمكان، ومازال كذلك حتى إنقطعت عنه الخيول وردت بالتعب الشبان والكهول و لم يبق خلفه يكر عليه ويريد أن يوصل كيده إليه سوى أحد كشاف مراد بيك وكان يسمى مراد كاشف، وهو من الشجعان المعروفة والفرسان المذكورة الموصوفة، وهو المعروف الآن بمحمد بيك المبدول[١]، وتحته جواد أحمراً صم محجل بسواد معدوداً من خيار الخيل الجياد، ومازال

---

[١] - **محمد بيك المبدول**: كان أسمه مراد كاشف، أمير الحاج سابقاً، تابع الأمير حسن بيك الأزبكاوي حاكم ولاية جرجا، وعندما رقي في شوال ١٢٠٠هـ/يوليو-أغسطس ١٧٨٦م إلى رتبة البكوات سماه حسن باشا القبطان محمداً كراهة في أسم مراد بيك فصار يكتب في الإمضاء محمد بيك حسن، إشترك في محاربة إبراهيم بيك ومراد بيك في الصعيد مع قوات حسن باشا، كما إشترك في الهجمات على عربان أولاد حبيب بالمنوفية سنة ١٢٠٣هـ/١٧٨٩م، وعند رجوع المماليك إلى القاهرة بعد حادثة حسن باشا ذهب إلى إبراهيم بيك ورجع معه، وإنضم إلىمراد بيك في منازعاته مع إبراهيم بيك. كان متديناً ومحباً للعلماء فبنى للشيخ سليمان الفيومي المالكي داراً بحارة عابدين، كما بنى جامعاً بحارة المبدول بعابدين سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٨م وألحق به قبراً له لما مات في سنة ١٢٢٣هـ/١٨٠٨-١٨٠٩م دفن به، وقد أخذ الخديو إسماعيل هذا الجامع عند بنائه سراي عابدين وتخطيط منطقة عابدين في القرن الماضي وبنى بدلاً منه جامعاً أخر على نفقته بجوار السراي من الجهة الجنوبية الغربية ونقل إليه مدفن محمد بيك المبدول الموجود الآن، وألحق به مدرسة للأطفال وسبيل، وانتهى البناء وأقر له وقفاً في ٥ جمادى الأولى ١٢٩٢هـ/٩ يونيو ١٨٧٥م.

يكر خلف رسلان فريداً لا يرافقه إلا قربانة[١] وسيف هندي مصان حتى صار بحيث إذا ضربه بالقربانة وصلت إليه فصمم حينئذ بتحريرها عليه، وضربها فخرجت كالمدفع الكبير ولها صوت له دويّ وهدير، فوصلت إلى رأسه فأحرقت عمامته، وكان تأجج شعيلها في دخان شاله عمامته ولم تصل إلى إضرار جسمه ولا أثرت تغيير وسمه، فرق رسلان إنه إذا رجع لضرب الكاشف وصده وتغيره عنه وقوّة رده ربما أدركته رفقته الفوارس (ص١١٧) فيكون في هول عابس، وكان قد وصل إلى ترعة مملؤة بالما فخفق نحوها الأبصار والإيما، وكانت متسعة الأخدود بحيث لا يتمكن من شاطيها الثاني أحد تلك الجنود، ولا يتمكن من ذلك جواد مشهود ولو كان داحساً أو أبجر عنترة الجسور، فأقبل إليها رسلان بفرسه الشهيرة وصاح بها النجاة يا حميدة السيرة، ولكزها في الجنبين بركابه فهمزت بقوتها حتى وقفت بذلك الشاطي ورحابه وحجزت بينهما سعة ذلك المجرى، وبقى منفرداً آمناً لا يرهب أمراً، ثم ذهب من هناك إلى مأمنه وإختفى أسبوعاً ثم عاد إلى أهله ووطنه، ورجع مراد بيك بعساكره ودخل مصر متظاهراً بمناكره، وكانت عاقبة رسلان التوبة، فرجع إلى ربه بأحسن أوبَة، وترك ما كان لديه من المنكر وندم على ما فرط منه وإستحقه وأنكره، وبقى على ذلك مدة قليلة وتوفاه الله، وصار رهين عمله عند من تولاه.

الجبرتي:عجائب الآثار، ج٢، ص١١٥، ١١٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٧٨، ١٩٤-١٩٥، ج٣، ص٦٥، ٩٣، ٢٠٧، ٢٨٧، ج٤، ص١٠٥ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٣، ص٨٨، ٩٠، ج٥، ص٤٦، ١٠٨، ١٠٩ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٣، مج٣، ص١٢٣٤ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٢٨٣-٢٨٦.

[١] - **قربانه:** بندقية قصيرة من طراز قديم، وهي واسعة الفوهة، كان يحملها المشاة والفرسان. أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في الجبرتي، ص١٦٦.

وكان من مشاهير المفسدين ومن كبار الخاسرين، رجل يقال له ابن زغلول[١]، أضر فعلاً (ص١١٨) من الشيطان والغول، يقف مع رجاله على شاطي البحر ولا يتركون سفينة إلا وألحقوا بمن فيها الضر والقهر من النهب والقتل للمخالف، وكل من سار بذلك المحل كان بشأن التالف، لا يستحي ولا يعرف الوقار ولا يخشى من القبيح بالنسا ولا بالصغار، كأنما هو صاعقة في الفساد والظلم محرقة أو بلية من عذاب الله لسرور المؤمنين مغرقة، طال ما أضر العباد وأظهر الشر والعناد، لا مرؤة له معروفة ولا فتوة لديه موصوفة ولا كرم ينقل في سيرته ولا ذرة خير في باطن سريرته لعين ذميم شيطان رجيم، لم يزل في عتوه وفجوره وظلمه وتعديه وجوره حتى أرسل إليه حضرة أفندينا أيده الله من أحضره سريعاً، فصعدوا به إلى القلعة وقد أنكر ما صنعه جمعه ومنعه، وندم اللعين ولا ينفعه الندم، فقد زلت منه القدم وبقى كالعدم، فأمر حضرة صاحب السعادة بحذف عنقه وسد جميع سبله وطرقه، فأنزلوه مصاحباً للمذلة مقروناً بالصفع ملزوماً بالعلة، (ص١١٩) فقطعوا رأسه الخبيث وزال شره الحثيث ونقل روحه إلى النار وبئس القرار، فأراح الله العباد والبلاد وفرحت بقتله السفار في كل واد وناد، وأمنت المراكب في البحر وإرتاحت السايرون في البر، وخلت تلك الطريق من الأوباش وحسن فيها السير لطلاب المعاش، وهذه من حسنات أفندينا الكبيرة التي هى مخلدة وفي ذكرها شهيرة، جزاه الله على ذلك خير الجزاء وأجزل له من الخيرات والمسرات أعظم الأجزاء.

---

[١] - **ابن زغلول:** أحد قطاع الطرق بناحية القليوبية، كان هو وعصابته يقطع الطرق على المسافرين في النيل سنوات ١٢٢٢-١٢٢٣هـ/١٨٠٧-١٨٠٨م، وذكر الجبرتي أنه حينما توجه الأمراء للقبض عليه صالح على نفسه بثلثمائة كيس ورجع الحال إلى حاله. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٥٦-٥٧.

ومن جملة شياطين الفلاحين الملازمين لإضرار عباد الله في كل حين، رجل يقال له الأشقم[١] من شرقية المنصورة، كان آفة من الآفات وبلية من أكبر البليات، قاطع للطريق مستحل دم الرفيق، لا يرهب من الفرسان ولا يخشى صولة الشجعان، وله جماعات يتبعونه وعشاير يرهبونه ويطيعونه، وكلهم بلا شديد وإضرار لا يزول ولا يبيد، يسلب وينهب وليس له دين ولا مذهب، لا رغبة له في صوم ولا صلاة ولا راحة تمتد بالرفد والصلاة، قرين الشيطان (ص١٢٠) يشتت السكان عن الأوطان، أرسل له حضرة أفندينا سريعاً من قطع عنقه وسد طرقه، فذهب كأمس الدابر ولحق سكان المقابر وخرجت روحه إلى السعير بعدما لقيت هول منكر ونكير، وهذه كذلك من الحسنات المشهورة التي هى على جبين الزمن مسطورة، وهذه أشيا متكاثرة معروفة عند أهل القطر ظاهرة بحيث لو تتبعت أفراد هؤلاء الشياطين طالباً حصر عددهم أجمعين لطال الكلام مع شهرته حتى للعوام.

وإن لم يكن لحضرته إلا إخماد شوكة العربان وقمع صولتهم على أهل القطر في كل مكان حتى كأنهم هم أمرا الزمان وحكام ذلك الأوان، ولاسيما ما كان يفعله عرب البحيرة مما أورثوه لأهلها من الخلل والحيرة، حتى كانت كل قرية لها صاحب منهم فهو أميرها ويسمونه بالصديق، وما هو في الحقيقة إلا زنديق يأخذ من القرية ما إحتاج إليه وما كان من الغلال والسمن مفتقراً إليه بغير ثمن وغير محمدة بل الضرر المستديم منه بكل مفسدة، وفي بعض الأحوال (ص١٢١) يدعي أنه غضبان منهم لما بلغه عنهم من كراهته وذلك من أكاذيبه وكبير خباثته، فيخرج من القرية إلى الغيطان ويتباعد بالبادية إلى نحو المزارع الخارجة عن الأوطان وبهايم أهل تلك القرية في المرعى فيكر عليهم بقوة المسعى ويضرب الرعاة ويقتل بعضهم فيهربون ويتركون ما معهم، فينهبون البهايم والنوارج والمحاريث، ويمرحون في تلك الأرض أشباه الجنّ والعفاريت، ويسيرون بذلك المنهوب إلى قبايلهم فيتوجه أرباب تلك المواشي لأصحابهم وأقاربهم

---

[١] – **الأشقم:** لم نعثر على أي معلومات عنه.

ويذهبون جميعاً للقبايل مستجيرين وضارعين مستغيثين ويستشفعوا لهم بأحبابهم وأولادهم، ويدفعون إليهم الأموال مقدار النصف من أمثالهم، ويتضرعون إليهم ويخضعون لديهم، فتارة يقبلوا ذلك منهم وتارة يدفعون بعض ذلك إليهم ويأخذون الباقي، ويرجع الفلاحون تدمع منهم الأماقي، وكان لهم في ذلك شئون كثيرة وأصناف من المكاره شهيرة، وطالما قتلوا الرجال (ص١٢٢) بل وذبحوا الأولاد والأطفال، وكان بعض البلاد بها الشياطين أصحاب القوّة وأرباب الفراسة والفتوّة من كبار مشايخ الفلاحين، فكانوا يحمون جهتهم وينتقمون هم من أهلها بدل أوليك الشياطين قبحهم الله أجمعين.

وناهيك بطايفتي سعد وحرام، وكانت جميع الفلاحين في القطر وجميع الأعراب من جميع الجهات فيه يفترقون على فريقين، وهما المذكوران من الطايفتين، وقد يكون نصف البلد الواحدة سعداً ونصفها الآخر حرام، وكل من ملك منهم صاحبه قتله ولا يخشى الله ولا الملام، وتارة يجتمع جمعان كل جمع منهم خمسة آلاف وعشرة آلاف ويزيدون تارة بأضعاف الأضعاف، ويقع بينهم الملاحم ويقتل من الفريقين ما لا يحصى ويصيرون على الأرض عدد الحصى[١]، ويتفرع من ذلك إنقطاع الطرقات وإرهاب السفار في كل الجهات ويرتفع الأمن من الأوطان وتقلق القطان والسكان، وهذا كان غير منقطع أبداً بل يزداد كثرة وتجدداً، (ص١٢٣) فإختل بهذا السبب القطر خللاً كبيراً وعم الإضرار ساير الناس كبيراً وصغيراً، وبقى ذلك من[٢] أكبر العجايب وأشد المتاعب والمصايب لكون الأمرا الأولين لهذه الأحوال وما يلزمها مهملين، فقل إيراد الجبايات الخراجية وتعطل معظم الأموال الميرية وتعبت الرعية وقويت البلية، فجعل الله سبحانه وتعالى حضرة هذا الصدر الجليل الوزير المهاب ذي المكارم والتفضيل سبباً

---

[١] – في نسخة [دار الكتب] "الحصا".

[٢] – في نسخة [دار الكتب] هذا الحرف مكتوب في الهامش الأيسر من الصفحة، وغير موجود في نسخة [سوهاج].

لإزالة ذلك كله، وأراح الرعية على العموم من تحمل كله وقمع هؤلا الفجار وصدّهم بقوة سيفه البتار، ووالى عليهم الهزايم وجعلهم في ذل أصحاب الجرايم وآتى منهم بكل شهم وبطل و لم يبق منهم صاحب خطر ولا خطل، وصارّ يجي المشهور من أوليك الأوباش وينادي عليه بمصر فتحصل المسرة والإنتعاش، ويذهبون به تارة للرميلة فيقطعون هناك[١] عنقه وتذهب منه الحيلة وتنفذُ قوته وتزداد ندامته وتهرب منه أنصاره وجماعته.(ص١٢٤)

[وإن لم يكن لحضرة الصدر إلا قتله للرجل العنيد المارد العتيد المسمى بسلامة شديد[٢] فإنه كان من مصايب الدهر ومن أكبر الأضرار في العصر فتاك هتاك لدما المسلمين سفاك قاطع طريق للطرق يسيء الفعل والخلق، كان ذلك اللعين من طايفة أعراب بَلِيّ[٣] من كل شر وسو ممتلي قطع الله دابره بحضرة الصدر العلي حذف عنقه وسدّ طرقه وأراح الله العالم من شره وآمنت السفار من ضره.

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيمن، وقد وضع الكاتب علامة في النص للدلالة عليها.

[٢] - **سلامة شديد**: كان سلامة بن شديد شيخ عرب الحويطات، وإشترك عرب الحويطات مع طوسون باشا في حرب الوهابيين في سنة ١٢٢٦هـ/١٨١١م، وكان ابن شديد يشترك مع حكومة محمد علي في الحروب إلى سنة ١٢٣٥هـ/١٨١٩-١٨٢٠م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٥٦، ٢٨٢، ج٤، ص١٠، ٥٨، ١٣٦، ١٧٢، ٣٠٧.

[٣] - **أعراب بَلِيّ**: واحدة من أكبر القبائل التي إستوطنت في غربي الجزيرة العربية، وأحد فروعها عرفت بأسم "الحمداني" تمركزت حول منطقة أخميم بصعيد مصر. وقد حبسوا شيخهم ثم خوزقوا بالقرب من قبة العزب في ربيع الثاني سنة ١٢٣٠هـ/مارس ١٨١٥م. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢١٩ ؛ كحالة: معجم قبائل العرب، ج١، ص١٠٤-١٠٧. وأنظر أيضاً:
Description de l'Egypte, Etat Moderne, Vol. XVIII, 25-26.
حيث ذكر أن بلي أحد قبائل قطاع الطرق بإقليم الشرقية.

وهذه الحسنات المشهورة المسطرة المذكورة فجزى ا لله حضرة الصدر كل خير عن صنايعه، فكل سرور معدود للرعية من بضايعه، وكذلك فعل بنصار شديد[١] الزنديق العنيد، كان من[٢] الدواهي العظمى والبلايا الكبرى ضاراً بالعباد والبلاد، قطعت رأسه وزال ذلك الإفساد، وذلك أيضاً من حسنات الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي.

وكذلك فعل بإسماعيل الزعلوك شيخ العرب بدسوق[٣]، مع أنه صعلوك كان آية في الإيذا (ص١٢٥) كبيراً في الفحش والبذا، أضراره كالخمر والميسر، موسر من الشر ومن الخير معسر، بل ليس فيه ذرة من الخير والإيمان، فهو خبيث وقرين للشيطان، قطعت رأسه في أسرع زمن، وذلك لحضرة الصدر من أعظم المنن، أراح بقتله الناس وأزال بحتفه الضر عن ساير الأجناس.

ولو أردت الإكثار من تعداد أمثال أوليك الضالين والوصف لتلك الفرق الخاسرين لأجهدت الأنفاس وملأت القرطاس، فقد كانت أرض قطرنا مملوة من أمثالهم، مضطربة بكثرة أشكالهم، فكم أرتاعت الموحدون من أفعالهم وأغلقت أبواب السفر للتجارة من إيذايهم وسلبهم، حتى منّ ا لله على القطر وسكانه بحضرة هذا الصدر فإستظلوا بإمانه، أطمأنت منهم القلوب وأزيلت عنهم بحضرته أصناف الكروب، ولعمري أن الأمن الموجود في هذا العصر المسبب عن وجود حضرة الصدر[٤] لم

[١] – **نصار شديد**: شيخ عرب قبيلة الحويطات البدوية، أحد فروع بدو سيناء، وهى من القبائل التي تعاونت مع القوات المصرية في حملتها ضد الوهابيين. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٣٦–١٣٧، ٣٠٧.

[٢] – في نسخة [دار الكتب] تبدأ هنا صفحة ١٠٧.

[٣] – **إسماعيل الزعلوك**: لم نعثر على أي معلومات عنه.

[٤] – في نسخة [دار الكتب] تبدأ هنا صفحة ١٠٨.

يتحدث به من منذ مئين من السنين، فا لله تعالى يقر أعيننا بحضرته][1] (ص١٢٦) ويديم آمانه ووجوده علينا أجمعين.

وزير علا متن الأثير شهامة   فلا ينثني عن قوله حين يعزم
فيا حسن أرض حل فيها ركابه   وأنعم بواد سار فيه المعظم
وبشرى لمصر حيث فيها محمّد   عزيز له العليا والسعد خادم
فكم من ذليل جا فيها مروّعاً   حياه بعزّ فهو فيها منعم
مكارم هذا الصدر لم تر شكلها   عيون و لم ينطق بمثل لها فم
وأخلاقه قد عطر القطر عرفها   كروح الصبا إذ جا بالند ينسم
فما الأمن إلا صورة هو روحها   ولا البشر الأمن سجاياه يعلم
وما الجود إلا خاتم في يمينه   وفي نقشه نفْس لحاتم ترسم
(ص١٢٧)
وبمجلسه العالي عليه جلالة   فحظة نادية الحطيم وزمزم
وحسبك أن الأسم منه محمد   عليّ فكل السرّ فيه متمّم
وزير براه ا لله للأمن مظهراً   وطالعه يمن وبشر وأنعم
تخر له رأس الجبابر خضعاً   وتطرق إجلالاً له وهم هم
إذا سار في وسط الجنود كأنما   هو البدر قد دارت حواليه أنجم
يضيء عجاجَ الحرب بَرْق سيوفه   وتبكي أعاديه الدما وهى تبسم
وينفر منه جمعهم ولو آنه   بقوة عاد إذ تواليه جرهم
فيا أيها الصّدر العزيز الذي إرتقى   سما المعالي والعناية سلم
أمولاي سَامحني فإني مقصر   (ص١٢٨)
ومازالت تعفو عن ضعيف وتكرم[2]

[1] - ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج].

لي العذر ما للقول نحوك مرتقى　　وكل فصيح في مديحك أعجم
فما كل قول في ثنايك يرتضي　　ولا كل لفظ في مديحك ينظم
أدامك ربي في الكنانة بدرها　　على رغم حساد بغيظهم عموا
ودانت لك العليا ما هبت العبا　　وما طاف بالبيت المشرف محرم

[٢] – إختلف من هنا ترتيب شطرات بيوت الشعر في نسخة [سوهاج]، والتصحيح هنا من نسخة [دار الكتب].

المقالة الثالثة

في ذكر تعمير حضرة أفندينا للقطر المصري وإحيا أرضه وبلاده بالزروع والثمار

لما تولى مصر أسعده الله وجد أكثر بلادها ومعظم قراها ونواحيها خربَة عاطلة من الزروع، مع أن أراضيها لا يماثلها أرض في نجابة الثمار بها وكثرة ما يتحصل من الغلال من سَاير الأصناف، لأن ما النيل المبارك يعمها في كل عام، ويمكث عليها مدة فتحسن ويعلو بوجهها (ص١٢٩) الزبد من طينه المتخلف عليها حتى تكون[1] لها رايحة كالمسك، وهذا أمر ظاهر للعيان وقد شحنت به الكتب والسير، فلما وجدها حضرة أفندينا وقد إضمحل أمرها بسبب ما كان بها من إفساد أمرايها والمقيمين بها من الأعراب وطوايف الفلاحين، بادر أسعده الله وأمر بإعادة الجسور المحيطة بالبلاد والقرى، وأن يتقنوا صناعتها، متينة ثابتة بحيث لا يحصل بها خلل من إستناد مياه النيل عليها لتكون حصناً على البلاد، فلا يصل إليها الما بغير قانونه فيتلف دورها ويعطل الطرق ويهدم الأبنية كما كان يقع قبل ذلك، وليأخذوا المياه عند الحاجة بقدر الغرض فيحسن بذلك حال الأرض وحال البلاد والقرى وتصلح المزارع، فبادرت العملة في ذلك وعملت الجسور في ساير الجهات وأتقنت على كمال الثبات،

[1] - في نسخة [دار الكتب] "يكون".

بحيث تمر عليها السفار في أوقات عموم النيل لأراضي القطر، ولا تنقطع الطرق على المارة بدوابهم من الحمير والبغال والخيل والأبل بإهمالها.

وكذلك أمر بإصلاح الترع التي تنصب فيها المياه (ص١٣٠) من النيل وترتوي منها أراضي كل بلاد مخصوصة، ففحروها على القانون القديم النافع[١] وصار ما النيل بمجرد الوفا يجري فيها جميعها للنفع المرتب عليها، وكذلك أمر برم[٢] كل سد كان قد ترك حتى كانت المياه تزيد وتكثر، ولا تزال حتى يطغى الما بكثرته وحدته وشدة جريانه فينصب بلا قانون على البلاد قبل الحاجة، أو زيادة كثيرة على الحاجة فتفسد الأرض ويحصل بطء أهلها عنها[٣] حتى لا تكون صالحة كحالها لو إنصب[٤] الما بقانونه، فبادروا كذلك وأتقنوا السدود وأحكموها، فإذا إرتوت الجهة القريبة للسد أو المطلوب إيصال الما إليها يرسلوا منه كفايتها، فإذا تم ذلك يرسلوا منه لغيرها حكم العوايد المعلومة، فإنتظمت الجهات وصلحت الأرض، وأمر حضرته لسَاير الحكام

---

[١] – من أمثلة الترع التي حفرها محمد علي الترعة البولاقية القبلية التي تمت في سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م، حفرها محمود أفندي الميارجي مدير القليوبية والمهندس ثاقب باشا، وكانت تمتد من منطقة قصر النيل الحالية الى شبرا بطول ١٨٣٠٠ متر، لري أراضي ضواحي القاهرة وبولاق كجزيرة بدران ومنية السيرج وشبرا في وقت الفيضان، ومكانها الآن شارع الجلاء وشارع الترعة البولاقية. علي مبارك: الخطط، ج١٩، ص٤٣، ٤٤.

[٢] – في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيمن، وقد أشار الكاتب في النص إليها، وهى غير موجودة في [سوهاج].

[٣] – في نسخة [سوهاج] "ويحصل بطو عليها"، وفي نسخة [دار الكتب] "ويحصل بطء أهلها عنها"، وكلمة "عنها" مكتوبة في الهامش الأيسر ومشار إليها في النص والهامش برقم "٣". والتصحيح هنا من نسخة [دار الكتب].

[٤] – في نسخة [دار الكتب] "إنصبت".

والملتزمين ومشايخ البلدان[١] أن لا يدعوا[٢] قطعة أرض صالحة للزراعة بدون زرع، ومن فعل ذلك جوزي بالعقوبة الشديدة، ومن كان عاجزاً أو محتاجاً لشي من الغلال للبذر أو لشي من البهايم للحرث ونحوه أمر بإعطايه جميع كفاية أرضه التي يخشى عليها أن تبور، (ص١٣١) فأخذوا من غلاله أبقاه الله ما يكفي تقاوي الأراضي ومن بهايمه أو ثمن البهايم ما يكفيه، فحصل بذلك العمار الكامل والخير الشامل، وأهل مصر يضربون مثلاً بقولهم الفلاح ابن زرعه، يعني أن الفلاح الفقير الذي[٣] لا يجد قوته ولا مؤنة عياله وليس عنده ما يعتاض شيأ من ذلك إذا أعطى له تقاوي أرضه سلفاً ووضعها في الأرض بعد نزول ما النيل عنها وحرثها بورك له في ذلك، فإنه عند نمو زرعه يعطي التقاوي التي إقترضها ويدخر مما خرج له منها أيضاً تقاوي العام القابل، ويخزن كذلك ما يكفيه ويكفي عياله وأتباعه مع السعة طول سنته، بل ويبيع أشيا مما

---

[١] - **الحكام والملتزمين ومشايخ البلدان**: كانت الولايات الرئيسية في مصر يعين لها بكوات صناجق من ذوي رتبة طوخين (ذيل حصان)، ويطلق عليهم لقب حكام، وكانت تلك الولايات هى جرجا والغربية والشرقية ومنفلوط، كما كانت ولاية البحيرة كثيراً ما يعين لها صنجق بيك وخاصة عندما تجري بها عمليات عسكرية ضد بدو ذلك الإقليم، وكانت الولايات الأخرى يعين لحكمها أمراء من المماليك عادة ما يكونوا وكلاء للصناجق، ويطلق عليهم "كشاف"، وكل ولاية أو إقليم أو قرية كانت تقسم إلى عدة وحدات ضرائبية عديدة يطلق عليها إلتزامات، ويديرها "الملتزمون"، وكل قرية بدورها يديرها "شيخ بلد"، عادة ما يكون أحد أهلها البارزين، يضمن زراعتها وجمع ضرائبها في غياب الملتزم، أي إنه كان يمثل الجهاز التنفيذي في البلد، وقد إستعاد مشايخ القرى إمتيازاتهم السابقة وأصبحوا أكثر نفوذاً نتيجة لإصلاحات محمد علي فيما يتعلق بالإدارة الزراعية. أنظر: الروزنامجي: ترتيب الديار، ص٣٦-٣٧ ؛ ليلى عبد اللطيف: الإدارة، ص٣٨٠، ٣٩٢ ؛ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الريف المصري، ص١٨-١٩ ؛
Shaw, Organization, 60-61; Kenneth M. Cuno, The Pasha's Peasants, Cambridge, Cambridge University Press, 1992, 145.

[٢] - في نسخة [دار الكتب] "يدعو".

[٣] - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيسر ومشار إلى مكانها بالنص.

خرجت له من الأرض، ويشتري بثمنها بهايم وآلاته التي يحتاجها كالمحراث والنورج والحمير والثيران والبقر والجاموس والغنم، فتأكل من موجود أرضه من بركتها ويحصل له منها الدر والنسل وينتفع باللبن والسمن والجبن أكلاً وبيعاً وبأصواف الغنم لبساً، ويصير الفلاح بعد شدة فقره غنياً في خصب من العيش هو وأهله وعياله ويحسن (ص١٣٢) حاله ويبقى في نعمة جليلة[١]، وهذا كله يحصل له من زراعة سنة واحدة بل في السنة يزرعون زرعات عديدة، وكان ذلك لا وجود له لخراب الأرض والجهات، فلما صنع حضرة أفندينا ما ذكرناه عمرت البلاد وصارت الفلاحون في عدد ومدد من الغلال، يدفعون الخراج ويأكلون ويشربون، وإستقام شأن القطر، ودخلت سنة ثانية وثالثة ورابعة وحضرته ملازم لهذه الأوامر، ثم صار ذلك أمراً معلوماً مواظباً عليه[٢] بقوانين وكيفيات في كل عام يعرفها ويفعلها الحكام ويأمرون ساير المزارعين من المشايخ فيأمرون الفلاحين، بل صارت الفلاحون يبادرون إلى هذه الأعمال ويرغبون فيها لثمرتها، ثم أن الكثير من الفلاحين ومشايخ البلاد إتخذوا تجديد البساتين وإنشاها وإظهارها بعد العدم وإفشايها، وزرعوا النخيل والأعناب والفواكه المختلفة كالتفاح والرمان والخوخ والموز والبرقوق وغير ذلك من الثمار في الأشجار، وأكثروا من ذلك ومن تجديد ما دثر من السواقي لعمارة تلك البسَاتين، فصارت البلاد (ص١٣٣) الآن من سنة ست وعشرين إلى وقتنا هذا وهو عام ثمانية وثلاثين بعد المايتين وألف[٣] على غاية العمارات، وإمتلأت الأقطار من الزروع بحيث إذا جاء وقتها

---

[١] - يصف هنا الرجبي أحوال الفلاحين الحسنة من وجهة نظره فقط. أنظر: بريس دافين، ترجمة أنور لوقا، (أدريس أفندي في مصر)، مذكرات بريس دافين (١٨٠٧-١٨٧٩)، القاهرة سنة ١٩٩١، ص٨١.، حيث ذكر أن الفلاحين يسمون محمد علي "ظالم باشا" من كثرة جوره وتعنته في أخذ المحاصيل والضرائب منهم.

[٢] - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة في الهامش الأيسر ومشار إلى مكانها بالنص.

[٣] - ١ محرم سنة ١٢٢٦هـ/٢٦ يولية ١٨١١م، و٣٠ ذي الحجة ١٢٣٨هـ/٦ سبتمبر ١٨٢٣م.

لا تجد أرضاً خالية منها، وكثرت البساتين والمنازه، وصار أمراً مبهجاً وحالاً حسناً جميلاً يسر النفوس ويشرح الصدور ويقر العيون، فلا تخلو بلد ولا قرية ولا مدينة من البسَاتين الجليلة المشتبكة أشجارها الكثيرة ثمارها المُغِرّدَة أطيارها السايلة كالفضة الصافية مياه سواقيها بحياضها، وعادت مصر إلى حالها الأول وعظيم إيرادها الذي عليه المعول، فكل جهة من أيّ بلد أو قرية ولو كانت في غاية الصغر كالكفور الصغار إلا وبها المزارع الجميلة والبساتين المثمرة الجليلة، وإمتلأت شوارع مدينة مصر وخططها وحاراتها من ساير أصناف الفواكه في كل وقت وزمن، فنسأل الله سبحانه أن يديم هذا العمار والأمن والراحة بهذه الأماكن والديار، ويحفظها من أضرار الحوادث ومن كل ضار عابث عايث، ويوفق أفندينا للخيرات (ص١٣٤) ويحفه بالمسرات آمين.

وقد ظهر البرهان وبدا في الحس بالعيان كثرة الخيرات وتزايد النعم في جميع الجهات، فالقمح ونحو الفول والشعير والعدس والحمص وغيرها تجده في كل مكان، وكل شون وساحل من ذلك ملآن، والرقع المعروفة بمصر مشحونة ومزدحمة بالميرة والمؤنة، لاتخلو جهة ولا حانوت معدود لذلك إلا وهو مبهج للناظر[١] والسالك بتلك المسالك، وأما مثل أنواع البطيخ الأخضر فهو شي لا يعد ولا يحصى، البلدي والريفي وما يقال له السلطاني والجبلي، وكذلك أصناف القثاء الرومي والقأون وسائر البطيخ الأصفر الشهير بالعبدلي وأيضاً الكرداسي والبساتيني والحلواني والشهير بالبرلسي الذي فاق الحلوى الشيبي، هذا وأشكال البلح لا تحصى ولا تدخل تحت الحدود والإستقصا كالحياني وأنواعه المتكاثرة، وناصر الدين بأصنافه الفاخرة، وأما المسمى بالزغلول فمدح السكر الهندي بالنسبة له نوع من الفضول، وأما المعروف بالأمهات (ص١٣٥) فهو الحقيق بما ورد في الحديث أنها العمات، ولا ضير أن يقال الأمهات بل هو سلطان البلح كما قيل، وأطبقت أرباب المأكل ذلك عليه في الأقاويل، وبالجملة

---

[١] – في نسخة [دار الكتب] "للناظرين".

والتفصيل إذا سافر الرجل في البحر أو البر الطويل لا يرى إلا مزارع مختلفة الأشكال، ومعظمها كلون الزمرد الأخضر العال، ولا يتعدى[١] نظره عن الرياض والبساتين في سائر جهات المدن والبلدان والقرى أجمعين جميع الأرض بالمزارع والأزهار منقوشة وببسط الزمرد والذهب الأصفر مفروشة، والنيل المبارك يسيل مدة كالذهب اللامع طولاً وعرضاً، وباقي السنة يجري صافياً كالفضة البيضاء، فسبحان الذي أتقن هذا الصنع العجيب وأبدع ذلك الأمر الحسن الغريب، تقدس وجهه الكريم وجل شأنه[٢].

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] "ينفك".

[٢] - بالرغم من الإصلاحات العديدة في مجال السياسة الزاعية في عصر محمد علي، حيث تسلم البلاد ومعظم أراضيها الزراعية غير صالحة للزراعة لإنسداد المجاري المائية أو عدم صلاحيتها للري من جهة، وهروب الفلاحين من قراهم وترك أراضيهم لتضررهم من المعارك والسلب والضرائب، إلا أن الفلاح لم يستفد من ذلك كثيراً، ولم تزداد حالته إلا بؤساً نتيجة للسياسة الإحتكارية التي إتبعها محمد علي في إحتكار المحاصيل الزراعية، وأيضاً نتيجة للضرائب العديدة التي فرضت على الأراضي الزراعية، لإن الزراعة كانت المصدر الرئيسي للحياة الإقتصادية في البلاد. أنظر عن سياسة محمد علي الزراعية: كلوت بك: لمحة، ج١، ص٨٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٤-١٧١، ١٧٤، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣، ج٤، ص١٨، ٢٢، ٢٥، ٧٥ ؛ شكري: بناء دولة، ص٢٨-٧٩ ؛ ريفلين: الاقتصاد والادارة، ص٧٢-٩٠، ١٧٣-١٧٥، ٢٢٣-٢٢٦، ٢٣٧-٢٣٨ ؛ أحمد عبد الرحيم مصطفى: عصر حككيان، القاهرة سنة ١٩٩٠، ص٣٣-٦٩ ؛
Gabriel Baer, A History of Landownership in Modern Egypt: 1800-1950, London, 1962; Kenneth Cuno, The Pasha's Peasants, 103-120.
وأنظر أيضاً عن أحوال الفلاحين في تلك الفترة تقريراً لقنصل الولايات المتحدة بمصر سنة ١٨٣٥م:
The National Archives of the United States, Despatches from United States Consuls in Alexandria, Roll 1, Volume 1, report of August 28, 1835, (microfilm copy at California State University, Los Angeles).

المقالة الرابعة

في ذكر بعض آثار لحضرة أفندينا من الأبنية والعمارات بمصر وسائر جهاتها

إعلم أيها الناظر في هذا الكتاب الواقف على سماع ما فيه من نكت الخطاب أن من منذ (ص١٣٦) مبين بل منذ آلاف مضت من السنين لم يتفق لأمير ولا وزير ولا ملك من سائر الماضين السابقين أنه أظهر من العمارات المستحسنة بل ولا خطر ببال أحد منهم في اليقظة ولا في السِّنَةْ أنه فعل غريباً أو أظهر بنا عجيباً، أو أحدث حصناً منيعاً أو أبدع في ذلك سريعاً ما يضاهي فعل حضرة أفندينا لا في البحر ولا في البر ولا بالمدن ولا بالوادي القفر، فإنه لم يكن له في هذا مناظر، ولا إبتهج أحدهم بمثل هذه المباهج والمناظر و لم تسمع إلا بمثل كسرى أنوشروان، حيث كمل في البحر جبل الفتح وبنى الإيوان، ومعلوم أن الأبنية الجليلة النافعة الجميلة لا ينقضي أمد ذكرها ولا ينقص معنى سرها، بل مذكورة في كل أوان ومحكية بكل لسان، فهى أعظم دليل على عظم بانيها وأجل برهان على قوّة نفاذ أمر منشيها، هكذا قال العقلا وإتفق على ذلك جميع الحكما والنبلا وأجمع عليه أرباب الفهوم ونطقت به الأخباريون في كل حديث مرقوم، ولا دليل على العقل الكامل (ص١٣٧) والقوة الشديدة والهمة العلية والقدرة الأكيدة مثل الآثار المخبرة عن صاحبها والمعالم المنبية عن عزة مبتكرها

ومرتبها، ولحضرة أفندينا أبقاه الله من ذلك ما هو العجب العجاب والأمر العظيم الذي ليس في جلالته شك ولا إرتياب، فمآثره كثيرة ومعالم إبداعه شهيرة كادت أن لا تحصى وقاربت أن تجل عن الإستقصا، ولنذكر منها طرفاً نزهة للسامع وبهجة لمن ينقله في المجامع، فمن ذلك الطريق الذي أوصله من باب قلعة الجبل وسار به ممتد إلى المقطم بإتقان العمل[1]، وكان الطريق قبل ذلك بين القلعة والجبل فاصلاً ولا يتمكن من بالقلعة إلا أن يكون من ذلك الطريق للجبل واصلاً، وهذا الطريق في غاية الإتساع يزيد مقداره عن ألف ذراع، وربما أن بعض الأعدا إذا إتفق له صعود الجبل ووقف تجاه القلعة أن يوصل إليها الخلل، لإن الجبل عال جداً وسفحه يراه الجالس فيه فوق القلعة ممتداً، وقد إتفق سابقاً صعود العدوّ بإعلاه وأوقع الإيذا على من بالقلعة ووالاه، فمن تمام تدبير حضرة أفندينا (ص١٣٨) بثاقب فكرته ومعرفته بعواقب الحوادث بصادق فراسته أنه رغب في أن يجعل القلعة متصلة بإعلا ذلك الجبل حتى لا يخشى أحد منه ولا يقع في الوهم منه وجل، ويحكم ذلك ببنا عجيب متقن مهندس غريب، فأمر بإحضار العملة والصناع وجمعهم في هذه المحال والبقاع[2]، فحضروا حسب أمره، وشرع فيما يثني عليه به طول دهره، فأمرهم بنحت الأحجار وإتقان الصخور المهندمة الكبار، وبإحضار كل ما يحتاجونه من جص وغيره، وكل عامل منهم في شأنه وسيره

---

[1] – **الطريق الصخري**: بدأ محمد علي في ٢٣ رجب سنة ١٢٢٤هـ/٣ سبتمبر ١٨٠٩م في عمل طريق صاعد "*زلاقة*" ممتد من باب القلعة المعروف بباب الجبل الى أعلى جبل المقطم، وذلك ليجد له منفذاً الى خارج القاهرة عند حدوث أي موامرة ضده واحكام الدفاع عن قلعة الجبل من الجهة الشرقية، وهو طريق واسع منحدر من أعلى الى أسفل سهلاً في الصعود والانحدار، وقد قطع شارع صلاح سالم جزءاً منه الآن، ثم بنى القلعة التي بنهايته على شكل نجمة (أثر رقم ٤٥٥) يتوسطها برج مستدير وبأسفلها صهريج لخزن الماء. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٩٩، ١٠٤، ١٠٨؛ عبد الرحمن زكي: الحصون والقلاع، مجلة العمارة، مج٣، سنة ١٩٤١، ع٣-٤، ص٩٠-٩٥.

[2] – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٠٨.

فإبتدأوا من حذا باب الجبل تجاهه وأحكموا عملهم متانة بهجة ووجاهـة، وبـالغوا في قوة البنا وثباته وإحكامه متقناً في كل جهاته، ولازالـوا سـايرين في ذلـك البنـا المحكـم حتى إلتصق بـالجبل وإستقام وإستحكم، ومـن رفقـه بالمـارة هنـاك جعـل فيـه قنـاطر للإستدراك يمرّ الساير في ذلك الطريق الراكب على الجواد إذا خـرج مـن بـاب القلعـة ماراً في الطراد لايزال يكر في طلق واحد حتى يصير بأعلى الجبـل والعيـون لـه تشـاهد بحيث يصير (ص١٣٩) الواحد والجمـع العديـد بـلا تعـب في ذلـك المسـلك السـديد، فحبذا هذا الإختراع والتجديد ونعِمّاً طالعه الجميل السعيد، وقد كان قبل ذلك يصـير الصاعد في تعب شديد وقلق بحال جهد جهيد.

وبعد أن فرغوا من الطريق وإيصاله وإلتزاقه بالجبل وتمام إتصاله أمر أن يبـني بـذروة الجبل قلعة حصينة تصد بجللها كل وجل، وأن يتخذ به سبيل جليل لخـزن المـا العـذب ليكـون ثـم كالسبيل، فبنيـت بـه القلعـة مـع إتقـان التحصـن بـالأبراج، وهـي هنـاك كالكوكب السامي[١] الساطع الوهاج، وظهر بناؤه مظهراً جميلاً، وأقام به قيمـاً رئيسـاً وكمياً وكيلاً، وتم إحكام ذلك السبيل المتين وإمتلأ من صافي[٢] العذيب المعين، ثم أعـد به أجناد الحراسة وأمدهم بأسرار الهمة والحماسة، وشحنه بالذخـاير الكاملـة والمدافـع المريعة لمن أمّ لَهُ، فصار بهجة للناظر وحجـة لإرغـام أنـف المنـاظر، وهـو لعمـري مـن أعظم لوازم حفظ القلعة وأكبر المنـافع لهـا في القـوة والمنعـة، وكـانت الأمـرا والملـوك (ص١٤٠) من السـابقين في غفلـة عـن صنـع مثلـه أجمعـين، ولكـن للمظـاهر أربـاب وللمعالي رواد وطلاب، وحضرة أفندينا الجديد بهذا لازال معاذاً وملجاً وملاذاً.

ومن أخلاقه وآثاره العظيمة الكبيرة الجسيمة التي لم يتفـق نظيرهـا لسـواه ولا تـأتى لغيره، أنه في ذلك قاربه فضلاً عن أن يقال ساواه، أنشاؤه بستانه الشهير ومرج منزهـه

---

[١] – هنا إشارة إلى أن تخطيط هذه القلعة على شكل نجمـة. أنظـر: عبـد الرحمـن زكـي: الحصـون والقلاع، ص٨٩، ٩٠.

[٢] – في نسخة [دار الكتب] "صيافي".

الكبير بناحية شبرا بساحل البحر[١]، فهنـاك أبـدع البسـتان وشـيد القصـر، أمـا القصـر فالعيان عنوانه، وأما البستان فواجب ذكره وبيانه لأنه لا يدخله كل أحد، وكثير بـل معظم الناس لا يصل إليه إذا ورد، فينبغي تبيينـه مـع الإجمال لأن تفصيل شأنه بعيـد المنال، وحاصل إجمال القول فيه وتلخيص ما أحصى به ورسم فيه أنه بسـتان في غايـة الإتساع يسير فيه الذاهب مبتهجاً بتلك الأوضاع ينوف عن خمسين فداناً في المساحة، لا يضاهيه أبداً بستان في تلك الساحة، مهندس بطرق على خطـوط مستقيمة وطـرق أيضاً مربعة ومخمسة ومثلثة (ص١٤١) ومسدسة قويمة، والزروع باديـة والثمـار ناميـة والأغصان مايِسة، وأجفان جداول مياهها كأنها من الصفا ناعسـة، وبذلـك البسـتان البركة المعلومة التي هى من الرخام الشفاف مرصوصة مرقومة، وعلى دايرها المساطب بالقوايم والسواعد الرخام كلها محكمة، وبجنباتها المجالس العالية المرتفعة، وبهـا النقـش الجميل الأصفر الذهبي واللازوردي المشرق عن الأحمـر اللهـبي، رفعت تلـك المجـالس على سباع تامة الأشكال، مصنوعة من الرخام الشفاف بديع المثال، تخرج من أفواهها

---

[١] - **سراي شبرا**: بدأ في بنائها في منتصف ذي الحجة سنة ١٢٢٣هـ/ينـاير ١٨٠٩م على شـاطيء النيل في منطقة شبرا، في متسع من الأرض يمتد الى بركة الحاج، استولى فيه علـى عـدة قـرى ورزق واقطاعات، وغرس بها البساتين والأشجار ثم سقط سقف السراي بعد انتهـاء بنـاؤه في ربيـع ثـان سنة ١٢٢٤هـ/مايو ١٨٠٩م وأعيد بناؤه، وفي سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م أنشأ سـواقي -تهدمـت في ذي القعدة سنة ١٢٣١هـ/سبتمبر ١٨١٦م من قوة ماء النيل- أمام القصر وبستان من الجهة القبليـة وزرع به أنواع من الخضروات والبقول والزهور التي استورد بذورهـا، وجعـل هـذا البسـتان تحـت مباشرة ذو الفقار كتخدا، ونقل الى حوارها اصطبلات للخيل،.وقد تم انارتها بالغاز (لأول مـرة في مصر) في سنة ١٢٤٤هـ/١٨٢٩م، آلت هذه السراي بعد ذلك الى ابنه عبدالحليم فبنـى قصـراً آخـر بالحديقـة. الجـبرتي: عجـائب الآثـار، ج٤، ص٨٤، ٩٢، ١٥٦، ٢٥١ ؛ علـي مبـارك: الخطـط، ج١٢، ص١٢٠؛ عبد الحميد نافع: الذيل علـى المقريـزي، ورقـة ٥٧؛ أمـين سـامي: تقويـم النيـل، ج٢، ص٣٤٥.

وأنوفها المياه العذبة الصافية وتصب في تلك البركة، فهى أبداً ملآنة وافيه[١]، وبالبركة الزورق المذهب يصعد فيه من لتلك المجالس يذهب، جمعت فيه أصناف الفواكه والثمار، كما إنتظمت بطرقه أنواع الرياحين البديعة والأزهار سرور للناظر وبهجة لخاطر الخاطر، وهو في الحقيقة بستان لم يسبق إليه، ولا ناظره ملك ولا خمارويه، مجموعة به أنواع الطيور اللطيفة وهى تسجع بالحانها الظريفة، كل يسبح ربه القدوس (ص١٤٢) وينزهه بما يبهج النفوس، فهو بستان جميل نضير فاق ببهجة مجالسه الخورنق الشهير، يبري المرور بساحته كلّ دا وعلّة، فآني يذكر معه منازه نهر الأبلة كل المحاسن فيه وبه منوطة، فلا تسمع معه مباهج الغوطة تجاهه النيل المبارك يجري تارة ذهبياً وتارة فضياً، وبدايرته المزارع مرقومة كبُسُط الزمرد لايزال مغناها مشرقاً مضياً[٢]،.هذا وصفه بإيجاز إذ التفصيل بإطناب صعب الإنجاز، وناهيك بإن من شاهده وهو مجتاز حكم بإن هذا المقال المجمل ضرب من المجاز وإلا فحقيقته يملأ تفصيلها دفاتر ويرجع عنها اللسان، وهو كليل وطرف إفصاحه فاتر.

ومن آثاره الجليلة إنشاؤه للقناطر المحكمة البنا المتينة الكاملة في الإتقان والإعتنا، بها ينضبط ما النيل فيعم نفعه بهذا السبب كل حقير وجليل، وكانت مياه النيل قبلها تذهب هدراً وتتلف الأرض من قلة مكث الما بها أو ضياعه بدواً وحضراً، فكانت الأرض المحتاجة للما لا يأتيها لعدم إنضباطه، وغير المحتاجة يكثر بها مكثه (ص١٤٣)

---

[١] - أنظر عن هذه السراي: حسن عبد الوهاب: العمارة في عصر محمد علي، ص٢١-٢٧.

[٢] - إستخدم محمدعلي حدائق هذا القصر كحقول تجارب زراعية، كما نقل إليه مدرسة الزراعة سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٣م، و المدرسة البيطرية سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م، كما أنه من المعروف أن هذا القصر كان أول مبنى يضأ بغاز الإستصباح في مصر. أنظر: علي مبارك: الخطط، ج١٢، ص١٢٠، ج١٧، ص٣ ؛ عبد الحميد نافع: ذيل المقريزي، ورقة ٤٦ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٣٤٥، ٣٦٣، ٣٧٣، ٣٩٠، ٤٤٩، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٨١.؛ أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في عصر محمد علي، القاهرة سنة ١٩٣٨، ص٣٠٩-٣٢٤، ٣٤٥-٣٥٨.

فتتلف من كبير إفراطه، فكانت الأرض ضايعة بين الإفراط والتفريط، فبلد مقفرة أرجا بواديها، وآخرى أضرّ بها طول مكثه حيث هو بها محيط، فلما أمر حضرة الصدر العلي بإنشا تلك القناطر عم النفع بها كل أرض وبدا مزهراً كل مرج عاطر، وإرتاحت قلوب المزارعين وقرت عيونهم بذلك أجمعين، فصلحت الأرض التالفة وذهبت يبوستها السالفة وكثرت أنواع الزروع والثمار وطابت أراضي تلك البلاد والأمصار، وتمم نظام القناطر بإحيا موات الجسور، وسارت الركبان مطمينة بعد أن كان لا يمر بها سوى الرجل الجسور، ثم دارت تلك الجسور بكل أرض وبلد، وصارت لمتانتها لها على رد طغيان المياه قوّة وجلد، فصار النيل مضبوطاً ماؤه ظاهراً في كل أرض خيره ونماؤه، وهذه القناطر كثيرة العدد، وهى بكل جهة لحفظ المياه نعم العون والمدد، فإستقام قوام النظام للقرى والبلاد، وإنتفعت بكثرة موجود الزروع (ص١٤٤) جميع العباد، فلا يرى إقليم من قطر مصر إلا وهو بالقناطر معمور وبما النيل المبارك مُرْتوٍ مغْمور، فإسفر ذلك عن همم عليه وصحة تدبير أفكار نظرية جليه وقوّة لا يضاهيها أحد ومحاسن آثار لا يمحوها طول أمد[١].

---

[١] – أنشأ محمد علي وجدد عدة قناطر، كقناطر التسعة بالزقازيق، حيث أصدر أمراً بعمل قناطر على بحر مويس لري أراضي الشرقية، وإنتهى العمل بها سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م، وبدأ في إنشاء القناطر المجيدة الخيرية –نسبة الى السلطان عبد المجيد– في سنة ١٢٤٩هـ/١٨٣٤م للاستفادة منها في تنظيم مياه فيضان النيل والتحكم في توزيعها على أراضي الدلتا، والاستفادة بالمياه في الصعيد بعد الفيضان، وأصدر أمراً بأرسال طلاب المهندسخانة الى موقع العمل للتدريب العملي أثناء المشروع، ثم توقف العمل سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م لانتشار الطاعون، ثم استأنف العمل ووضع حجر الأساس في ٢٣ ربيع ثان سنة ١٢٦٣هـ/١٠ ابريل ١٨٤٧م، ولكنه لم يستطع انهاء هذا المشروع في حياته ولكن إنتهى بنائها في عصر حفيده إسماعيل. أنظر: علي مبارك: الخطط، ج١١، ص٩٣-٩٤، ج١٩، ص٢-٣ ؛ الياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا، من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩، القاهرة سنة ١٩٢٣، ج١، ص٨٩ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٤١٨، ج٣، القاهرة سنة ١٩٣٦، مج٢، ص٧٨٨، مج٣، ص١٢٣٢ ؛ جورج جندي وجاك تاجر: اسماعيل

ومن آثاره الكبيرة المتعددة الكثيرة إنشاؤه أبنية متسعة للصناعات النافعة، وهي بمدينة مصر وبغيرها من مداين القطر الواسعة، كمدينة المحلة[١] ورشيد[٢] وإسكندرية[٣] ودمياط[٤] وفُوّة[٥] وقليوب[٦] وطندتا[٧] وغيرها من البلدان بالأقاليم البحرية والقبلية[٨]،

كما تصوره الوثائق الرسمية، القاهرة سنة ١٩٢٣، ص١٥٢، ١٦٥ ؛ حسن عبد الوهاب: قناطر محمد علي، مجلة العمارة، مج٣، سنة ١٩٤١، ع٣-٤، ص٨٧-٨٨؛ علي شافعي: أعمال المنافع العامة الكبرى في عهد محمد علي الكبير، القاهرة سنة ١٩٥٠، ص٤٧-٦٠.

١ - كان بها صناعة غزل القطن ونسجه. كلوت بيك: لمحة عامة، ج٤، ص٣٥ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٥، ص٩١ ؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس الحربية في عهد محمد علي باشا، الاسكندرية سنة ١٩٣٥، ص٩، ١٦ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤٤١.

٢ - كان بها صناعة غزل القطن ونسجه وصناعة قلوع المراكب، وضرب الأرز ومدبغة للجلد. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٥٥ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج٤، ص٢٦ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٥، ص٩١ ؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص١٧ ؛ حسن عبد الوهاب: المصانع، مجلة العمارة، مج٣، سنة ١٩٤١، ع٣-٤، ص٤٨-٤٩ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤٤١.

٣ - كان بها صناعة السفن. كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص٢٣٨ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٧، ص٥٣ ؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص١٤،٢٣ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤٨١.

٤ - كان بها صناعة غزل القطن ونسجه، وضرب الأرز. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٥٥ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج٤، ص٣٥ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٥، ص٩١ ؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص١٦ ؛ شكري: بناء دولة، ص٨٤، ٤٤٢.

٥ - كان بها صناعة الكتان والطرابيش، ولا زال هناك بقايا لمصنع الطرابيش ومصنع الكتان ومسجلين كآثار إسلامية، وكان رئيس المصنع رحل مغربي وصناعه من التوانسة وبعض الأهالي، كما أنشأ محمد علي بها مصنعان لغزل القطن. كلوت بيك: لمحة، ج٤، ص٣٨ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٥، ص٩٢ ؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص١٤-١٥ ؛ حسن عبد الوهاب: المصانع، ص٤٥-٤٨ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤٤٢-٤٤٣.

٦ - كان بها مصنع كبير لغزل القطن ونسجه، كان به عدد كبير من العمال بينهم بعض الأوروبيين، كما أنشأ بها مسبك ومصنع لصنع أنوال النسج. كلوت بيك: لمحة، ج٤، ص٣٤ ؛

فبعضها بها صناع حياكة القماش الكتان من سَائر الأصناف[١]، وبعضها به صناع الثياب من الحرير والقطن بسائر الأشكال والأوصاف[٢]، حتى كثرت أصناف الأقمشة

علي مبارك: الخطط، ج١٥، ص٩١ ؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص١٥ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤٤١.

[٧] - كان بها صناعة غزل القطن وصناعة قلوع المراكب. شكري: بناء دولة، ص٤٥٣.

[٨] - كالمنصورة و دمنهور و شبين الكوم و زفته و منية غمر في الوجه البحري التي أنشأ بها مصانع لغزل القطن ونسجه ومصانع لصنع للكتان، وبالوجه القبلي في بني سويف وأسيوط والمنية وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا لصناعة غزل القطن ونسجه أيضاً. كلوت بيك: لمحة، ج٤، ص٣٤-٣٥،٣٧ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٥، ص٩١ ؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص١٥-١٨ ؛ حسن عبد الوهاب: المصانع، ص٤٩ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤٤١-٤٤٣.

[١] - **صناعة القماش الكتان:** أصدر محمد علي أمراً في ٧ شعبان سنة ١٢٣٣هـ/١٢ يونيو ١٨١٨م بتأسيس وتنظيم مصلحة الأنوال والغزل في سائر الأقاليم، كما أصدر أمراً آخر في ٤ شوال/٧ أغسطس من نفس العام لكاشف الغربية للاشراف على أعمال غزل الأقمشة وعمل عينات منها لتنظيم ورش لها، ثم أصدر أمر في ٨ جمادى ثان ١٢٣٦هـ/١٣ مارس ١٨٢١م بمنع الأهالي عموماً من تشغيل أنوال الغزل والدوبارة. كما استورد محمد على الأغنام من أوربا لتحسين السلالة المصرية ليستخدم صوفها في صناعة الجوخ والطرابيش بدلاً من استيراد الصوف من أوربا وأنشأ محمد علي مصانع نسج الصوف لعمل الملابس العسكرية والأغطية، كما أنشأ في بولاق مصنعاً للجوخ وأرسل الى وكلائه في مرسيليا لاختيار الصناع المهرة له، وأحضر لادارته خمسة فرنسيين دربوا العمال المصريين على تلك الصناعة، كما أرسل عدداً من الشباب الى فرنسا للتدريب ضمن البعثات العلمية التي أرسلها إلى أوروبا. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٥٧ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٥، ص٣٠، ٣١، ٩٢.؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٦٤، ٢٩٠ ؛ شكري: بناء دولة، ص٢٣٠، ٣٣٠، ٤٤٣، ٤٤٤.

[٢] - **صناعة الحرير والقطن:** أنشأ في جميع أنحاء مصر مصانع لنسج القطن تحت اشراف جومل وأخذ صناع المصانع الأهلية للعمل بالمصانع الجديدة، وأنشأ بالقاهرة أيضاً مصنعاً لحبال المراكب، وأنشأ في بولاق مصنعاً الجوخ وأحضر لادارتها فنيين فرنسيين لتدريب المصريين، كما أرسل بعض العاملين بتلك الصناعة الى فرنسا للتدريب، وكان نتيجة ذلك عدم استيراد المنسوجات من أوروبا

والهند، بل وأخذ في تصدير المنسوجات، وأنشأ ورشة خميس العدس أو ورشة الخرنفش بشارع خميس العدس في سنة ١٢٣٢هـ/١٨١٦م وانتهى من البناء في ذي الحجة سنة ١٢٣٣هـ/أكتوبر ١٨١٨م، وكانت من أكبر مصانع الغزل والنسيج بعد مصنع مالطة ببولاق، وأحضر للعمل بها صناع من أوروبا لصناعة القطن والحرير والأقمشة المقصبة، وأفرد مكاناً لكل من هذه الصناعات، وألزم مشايخ الحارات بجمع ٤٠٠٠ غلام للعمل تحت اشراف الصناع ليتعلموا هذه الصناعات وخصص أجوراً لهم، ثم صدر الأمر في ٥ ربيع أول ١٢٣٤هـ/٢ يناير١٨١٩م بتأسيس مصنعي الخرنفش وبولاق بمعرفة الخواجات نجني وجوميل وهو الذي نشر زراعة وصناعة القطن في مصر، وعين من لهم المام بصناعة أنواع المنسوجات والدوبارة لمعاونتهم، وألحق بها ورشاً للحدادة والسباكة والبرادة والخراطة والنجارة لاصلاح آلاتها، ثم اغلقت مع مصانع محمد علي الأخرى إعتباراً من سنة ١٨٤١م، وظلت تابعة للحكومة تستخدم لاعداد كسوة الكعبة، ولازالت الى الآن تستخدم لاعداد كساوي الأضرحة، كما تحتفظ بأخر كسوة صنعت في مصر للكعبة ولم تسافر. وأنشأ مصنع مالطة الذي عرف بمصنع مالطة لأن أكثر عماله كان من مالطة، والمبيضة ببولاق الذي كان أكبر المصانع التي ينسج فيه القماش الرفيع وغيره صدر أمر تأسيسه في سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٩م وتلاه مصنع الخرنفش، وألحق به ورش لصيانة الآلات كما ألحق به مسبك للمعادن به عمال من مصر وسوريا، وكان بجواره مصنع ابراهيم أغا ومصنع السبتية لغزل القطن، كما أنشأ مبيضة بين شبرا وبولاق بالقرب من جزيرة بدران إلى الغرب من شارع شبرا بجوار قصر محمود أفندي، لتبييض مقاطع الكتان وبصم أقمشة الشيت والمناديل للنساء، ولازالت تلك المنطقة محتفظة باسم هذا المصنع. وأنشأ مصنع البركال بالقرب من المبيضة، في سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٣م، مكون من طابقين، مخصص لغزل ونسج قماش رقيق يسمى *"البركال"*، تحت ادارة أربعة من الانجليز ومعهم عدد من العمال المصريين لتدريبهم. الأوامر والمكاتبات الصادرة من محمد علي باشا، ج١، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٨٤ تاريخ تيمور، المجلد الأول، ص١٩ ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٦٧-١٦٨، ٢٥٧، ٢٩١-٢٩٢ ؛ كلوت بك: لمحة، ج٤، ص٣٤، ٣٦ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٣، ص٥، ج٩، ص٢٢، ج١٠، ص٥٤، ج١١، ص٢٣، ٩٥، ج١٢، ص١٤٧، ج١٤، ص١١٥، ١٢١، ج١٥، ص٩١، ٩٢، ج١٦، ص٥٥ ؛ عبد الحميد نافع: ذيل المقريزي، ورقة ٤٨ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٥٨، ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٤ ؛ عمر طوسون:

والثياب، وإمتلأ منها القطر بلا إرتياب، وتعلم أهل القطر من الصناعة ما لم يكونوا يعلموه وعرفوا بتوقيف رؤسا الصنائع ما لم يكونوا يعرفوه، وجلب لهم رؤسا الصنائع وأرباب المعارف من الأقطار[١]، حتى صار أهل مصر عارفين بكل فن جليل من الصناعات (ص١٤٥) الكبار، فمنهم من صار يدري عمل المدفع ومكاحل البارود[٢]،

الصنائع والمدارس، ص٥-٢٠ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤٣٧-٤٤٠ ؛ ريفلين: الإقتصاد، ص٢٨٤.

[١] - أنظر عن الخبرة الأجنبية. محمد فؤادشكري: بناء دولة، ص٤٥٤.

[٢] - **مصانع المدافع و البارود:** بدأ محمد علي في صناعة العتاد الحربي بتعيين محمد أفندي طبل الودنلي ناظر المهمات الذي أعد في بيته -الذي كان في الأصل بيت سليمان أفندي ميسو بعطفة أبو كلبة بالدرب الأحمر- مصنعاً، كان يصنع به الخيام والسروج والبيارق والعتاد الحربي، فلما لم يكف هذا البيت لكل هذا اشترى بيت ابن الدالي باللبودية بالقرب من قنطرة عمر شاه بميدان السيدةزينب وجدده وجدد ما حوله من الدور والرباع والحوانيت ومسجد وكتاب تمراز الأحمدي (أثر رقم ٢١٦)، وسكن هذا البيت وجعل به ورشاً لصناعة سبك المدافع والذخيرة والعربات والخيام، ثم عزله سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م وقلد صالح بن مصطفى كتخدا الرزاز بدلاً منه، ونقلوا الورش من بيته الى بيت صالح الرزاز بالتبانة، ثم أنشاء معمل البارود بالروضة في سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م بالقرب من المقياس وكان تحت ادارة مسيو مارتيل الفرنسي ومعه ٩٠ عاملاً، ثم أعيد بنائه على يد المهندس بسكال كوست في سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٩م وتم بنائه بعد عام، وكانت صنعته متقنة كالمستورد من انجلترا، وأنشأ ستة معامل أخرى في مختلف أنحاء مصر، وأنشاء مصنع المدافع بالقلعة في نفس الوقت، وكان قد بدأ في عمل آلات الحرب من حلل ومدافع وجمع الحدادين بالقلعة في سنة ١٢٢١هـ/١٨٠٦م للدفاع عن وجوده في مصر ضد رغبة الدولة العثمانية، ثم أنشأ مصنعاً بالقلعة عند باب الانكشارية لصناعة وسبك المدافع والقنابل والبنادق والسيوف والرماح وغير ذلك "الطبخانة" (طوب في التركية بمعنى المدفع، وخانة تعني البيت بالفارسية، أي أنها تعني دار صناعة المدافع) تحت ادارة أدهم بك قائد المدفعية، وبه ٩٠٠ عامل ومعهم عدد من الأجانب للاستفادة بخبراتهم، وكان هناك أيضاً مصنع لألواح النحاس تحت ادارة توما حالوي الانجليزي، وقد جدد هذا المصنع سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢٠-١٨٢١م، وأنشأ محمد علي كذلك ورشة ببولاق في

ومنهم من عرف كيفية إيجاد جواهر البارود[١]، ومنهم من يدري صناعة الأقمشة الثمينة، ومنهم من إختص بإدراك صناعة آلاتها، فكمل لهم بذلك الجمالة والزينة، وهذه الأشيا لها مواضع متسعة الجهات ومساكن[٢] فيها كبيرة بديعة قريبة المسافات ينبي عنها العيان، إذ هو كاف في البيان لأن تفصيلها يحتاج لمجلدات وتبيين أجزايها طويل الشرح وهيهات، وبالجملة فهو أمر عجيب وشأن بديع غريب صارت به مصر

الفضاء الواقع بين وكالة الأرز والنيل عرفت ب "الدقمخانة" لصب الحديد والنحاس، وكان انتاجها مخصصاً لورش الاسطول وتدار بالآلات البخارية، وتكلفت ١,٥ مليون فرنك، وقد وضع تصميمها المهندس الميكانيكي حالوي كنموذج لمسبك لندن، وعين رئيساً لها رجلاً انكليزياً وعين معه خمسة من الانكليز و٣٠ من مالطة وخمسون مصرياً، وكان هذه الورشة تحت ادارة أدهم بك مدير مصانع القلعة، وأعد في ترسانة بولاق آلات لجلخ النحاس المستعمل في المراكب، كما أنشأ ورشة الحوض المرصود بشارع مرسينا بالقرب من جامع لاجين السيفي (أثر رقم ٢١٧)، وعرفت بورشة الأسلحة ومعمل البنادق حيث كانت معدة لصناعة الأسلحة، أنشأها بعد مصنع القلعة حوالي سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣١م، وجعلها تحت ادارة الايطالي مارنجو -الذي عرف بعد ذلك بعلي أفندي أحد صناع مصنع القلعة- ومعه ١٢٠٠ عامل، ثم جعلها محمد علي ورشة لعمل الأسلحة والزخيرة *"الكلل والكبسون"* المصنوع من المواد الكيماوية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١١، ١١٠، ١٥٥، ١٦٥-١٦٩، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٨٢ ؛ كلوت بك: لمحة، ج٤، ص٤٠، ٤١ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١، ص٥٢، ج٢، ص١٢٠، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ج١٥، ص٩٢، ج١٦، ص٥٨، ج١٨، ص١١٩ ؛ عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨ ؛ عبد الرحمن زكي: الجيش المصري، ص٨٢، ٣٤٧ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٣٤٨-٣٥٥ ؛ عبد الرحمن زكي: قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق، القاهرة سنة ١٩٥٠، ص١١١ ؛ حسن قاسم: المزارات الاسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية، القاهرة سنة ١٩٤٢، ج٤ص١٨٩ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤٥٩ ؛ أحمد السعيد سليمان: تأصيل، ص١٤٤ ؛ محمد حسام الدين اسماعيل: منطقة الدرب الأحمر، ص١٠٧،٣٧٣-٣٧٩.

[١] - عمر طوسون: الصنائع والمدارس، ص٣٨ ؛ محمد فؤاد شكري: بناء دولة، ص٤٣٠.

[٢] - في نسخة [دار الكتب] "كمساكن".

تفتخر على الشين، وتعلو بصُناع أهلها على الهند والصين، فلا يرى إنسان بها خلياً عن المعارف ولا يلمح الطرف رجلاً من أهلها إلا وهو ملي بالعوارف[١]، وهذه هي الآثار التي لا تبيد والمحاسن الظاهرة بعنوان السعد والتأييد.

ومن آثاره التي فاق بها من سلف وبقى الفخار له بإيداعها فيا نعماً ذلك الخلف، وهو تجديده بل إنشاؤه لما إندرس من الزوايا والمساجد الجامعة[٢]، وكانت أجناد همه (ص١٤٦) في إنشا ذلك متواصلة متتابعة، ففي بلاد كل قطر مساجد عظيمة جليلة البنا محكمة قويمة، كثر بها ذكر الله القدوس الرحيم، وتوالت بها العبادة لجناب حضرة القيوم العظيم، يتلى فيها كتابه الجليل ويقرأ بها علم العبادات من كل عالم فضيل، مقامة فيها الشعائر الإسلامية ومرفوع بها منار الملة المحمدية الحنيفية، وقد فرض بها وظايف للقايمين بها وعمم إحسانه وبره إذ هو للمبرة أهل لها.

ومن محاسن آثاره جعله لإرباب الخدم بمزارات الصالحين من سادات آل البيت وأوليا مصر أجمعين مرتبات من الدراهم في كل عام ينتفع بها منهم الخاص والعام، كخدام سيدنا الإمام الحسين و كريمة الدارين و الإمام الشافعي وكثير من المزارات

---

[١] – إهتم محمد علي إهتماماً فائقاً بكافة مستويات وأنواع التعليم، وأرسل البعثات العلمية إلى عدة أنحاء من العالم تشتهر بما يريد من تعليم لصناعة محددة، بل أنشأ بمساعدة جومار مدرسة في باريس للتعليم العالي ويتدرب من يتخرج منها في العلوم العسكرية بوحدات الجيش الفرنسي، وقد بدأ بإنشاء مدرسة الهندسة بالقلعة في سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م على يد حسن أفندي المعروف بالدرويش الموصلي. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٥٥، ٢٦٢ ؛ أحمد عزت عبد الكريم: التعليم في عصر محمد علي ؛ شكري: بناء دولة، ص٦٣٦-٦٨٣.

[٢] – أنظر عن تجديدات وترميمات ومساجد بمعسكرات جهاد آباد بالخانقاة شمال القاهرة والزقازيق وغيرها من المدن المصرية. علي مبارك: الخطط، ج٢، ص٨٦، ج٣، ص١٠، ج٤، ص٢٢، ج٥، ص٨٨، ج٦، ص٢٥-٢٦، ج١١، ص٩٣ ؛ حسن عبد الوهاب: مسجد الخانقاه، مجلة العمارة، مج٣، سنة ١٩٤١، العدد٣-٤، ص٥٤-٥٦ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٢٩٢-٢٩٣ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٨٢.

المعلومة، فكان له بذلك صحيفة ثواب بالبر والرضوان مختومة[1]، ولاسيما ما جدده من أنواع الأسبلة الجميلة المخزون بها المياه العذبة الجليلة، فقد أنشأها بمصر إنشاءً ملوكياً وأتقنها بهجة نضيرة إتقاناً عليّاً، (ص١٤٧) وعلى الخصوص فساقي المياه المجتلبة من النيل إلى أرض القرافة[2]، فعم نفعها الحقير والجليل، مع ما أنشأه من الدايرة المباركة تجاه سيدنا الإمام الشافعي، وجعل بها محكم البناء و المقابر[3] المعروفة بالنفع لكل المعي،

---

[1] – يفسر لنا هنا الرجبي ما جاء بكتاب الجبرتي من تظلم الأهالي والملتزمين من فرض محمد علي لضرائب على الأراضي الموقوفة على مصالح المساجد في ربيع الأول سنة ١٢٢٧هـ/ابريل ١٨١٢م، وأن هذا الأمر سيؤدي إلى خراب المساجد، ورده عليهم "وأين المساجد العامرة، الذي لم يرض بذلك يرفع يده وأنا أعمر المساجد المتخربة وأرتب لها ما يكفيها"، ثم إستولى محمد علي بعد ذلك على هذه الأراضي في ربيع أول سنة ١٢٢٩هـ/فبراير ١٨١٤م وأصبح المالك الوحيد لكل الأراضي. ولكن لم يثبت أن محمد علي أعد أي مرتبات إضافية أو خلافه كما يذكر الرجبي. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٤٣-١٤٤، ٢٠٣-٢٠٤ ؛ شكري: بناء دولة، ص٣٠-٣١.

[2] – قناطر محمد علي التي كانت تصل المياه من مجرى عيون فم الخليج إلى الإمام الشافعي، ولا زالت بقاياها موجودة إلى الآن، أنشأها محمد علي في سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٥م تقريباً، تبدأ من مجرى عيون القلعة (أثر رقم ٧٨) الى قبة الامام الشافعي، وأجرى فيها ماء النيل الى ميضأة جامع الامام الشافعي ودورة مياهه، وكان السبب في ذلك أنه عندما بنى مقابر لعائلته بالقرب من قبة الامام الشافعي، وبنى حولها عدة أماكن أجرى اليها الماء عن طريق تلك القناطر، فطلب منه الشيخ حسن القويسني أن يوصل الماء الى جامع الامام الشافعي أيضاً، واستمر استعمال تلك القناطر الى سنة ١٢٨٩هـ/٧٢-١٨٧٣م حيث جدد ديوان الأوقاف ميضأة جامع الشافعي وأوصل اليها ماسورة المياه العمومية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٨٦ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٥، ص٢٢ ؛ حسن عبد الوهاب: قناطر محمد علي، ص٨٧ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٨٧-٨٨.

[3] – مدافن الأسرة المالكة خلف قبة الإمام الشافعي: تقع خلف قبة الامام الشافعي بالقرافة الصغرى، أنشأها محمد علي قبل سنة ١٢٣١هـ/١٨١٦م، حيث دفن بها في تلك السنة الأمير مصطفى بيك دالي باشا شقيق زوجة محمد علي كما دفن بها أحمد باشا طوسون ابن محمد علي،

وبها مدفن السيدين الجليلين الكوكبين اللامعين المحفوفين بالرحمات المملوين بالرضوان وجزيل الكرامات الغنيين عن التصريح عنهما بالإعلام الظاهرين ظهور الأعلام بغير إعلام[١]، مع ما يتلى عندهما على الدوام من قراة كتاب ا لله الملك العلام بالقراة المتتابعة في الليل والنهار لإجتلاب غيوث الرحمات من كل وابل مدرار، مع ما يصرف عليهم من أنواع الصدقات والصلات المتواصلات، هذا مع إحكامه للأثر الباهر البديع الحسن الظاهر الذي يعم نفعه هاتيك الجهات، ويحمد أثره في تلك المواضع الطاهرات، ويفوق على كل صنيع من سلف ويظهر به فضيلة وهمة الخلف وهو إجتلاب الما العذب على القناطر من النيل وجعله (ص١٤٨) في مجاري متواصلة لينتفع بعظيم خير ذلك السبيل متصلة هذه المياه ضمن المجرى، حتى تكون تجاه دايرة الحوش المبارك وهى أهنى وأمرى، وتظهر هناك للعيان وينتفع بها سكان ذلك المكان، وتمتلي منها جهات زاويتي الشافعي والليث بن سعد وما حولهما من تلك الأماكن التي قبل وبعد، وهذا شي لم يصنَعْه أمير ولا وزير، بل إختص به هذا الصدر الشهير، ولعمري إنها صورة نفع عامة، ولازالة الوصب عن تلك البقاع آمّه، وهذا هو الخير الذي لايزول والبر الذي شرح نفعه يطول والصدقة الجارية التي لا تفنى، ولصاحبها في الدارين عطية الحسنى، فسبحان المنعم الوهاب يعطي من يشا بغير حساب.

ومن آثاره الجميلة العظيمة التي يضرب بها الأمثال بنا سد إسكندرية، حيث أن الإفرنج الإنكليز لما هزمهم وطردهم بقوته المشهورة وردهم أذلا بعد تمكنهم من ثغر

ويوسف باشا، وبها مقابر لابناء محمد علي وأزواج بناته وأحفاده وأحدى زوجاته وبعض أقاربه، وقد سجلت ضمن الآثار الاسلامية سنة ١٩٨٥م. الجبرتي:عجائب الآثار، ج٤، ص٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٩ ؛

Gaston Wiet, Nicolas Turc: Chronique d'Egypte: 1798-1804, Le Caire, 1950, 259-264.

وأنظر أيضاً: محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٨٢-٨٣.

[١] – هما طوسون وإسماعيل أبناء محمد علي المدفونين بمدافنه.

رشيد وعمهم قتلاً وأسراً في واقعة الحماد[1] التي لها أكبر صورة، ورجعوا مدبرين إلى ثغر (ص١٤٩) إسكندرية، وخافوا من وصوله إليهم بشجاعته العلوية قطعوا المقطع المعلوم من البحر المالح حتى إختلط ببحيرة إتكو ودار محيط بإسكندرية بحيث لا يتأتى الوصول إليها من طريق البر بالكلية[2]، وأمنوا على أنفسهم في الثغر وإتقنوا عدة الحصار

---

[1] - **موقعة الحماد**: كانت في ١٠-١٢ صفر سنة ١٢٢٢هـ/١٩-٢١ ابريل ١٨٠٧م بقيادة حسن باشا طاهر وأخوه عابدين بيك و عمر بيك و حجو بيك و محمد بيك دبوس أغلي كتخدا بيك و اسماعيل كاشف الطوبجي و أحمد أغا لاظ و أحمد أغا الخازندار بونابرته أمام الإنجليز بقيادة القائد العام البريجادير جنرال وليام ستيوارت William Stewart ومعه الكابتن ديلانسي Delancey والميجور أوكيف O'Keefe والكابتن رديل Riddle والكولونيل ماك ليود Mac Leod، حيث انتصروا بمعاونة أهالي رشيد ودمنهور على الانجليز وأسروا كثيراً منهم وفر من استطاع الفرار الى الاسكندرية، واغتنم جيش محمد علي ما كان معهم من الأسلحة والذخيرة، ووصل الخبر إلى محمد علي بالقاهرة في ١٤ صفر ١٢٢٢هـ/٢٣ ابريل ١٨٠٧م، وأرسلوا آذان القتلى وأسيرين من القادة إلى استانبول. وكان هذا لقلة قوات الإنجليز وإعتمادهم على قدوم المماليك إليهم لمساندتهم بفرسانهم ضد قوات محمد علي، ولكن هذا لم يحدث لتفرق كلمة المماليك ونجاح محمد علي في إستقطابهم، وكان هذا خطأ الإنجليز، حيث أن الحملة كانت مكلفة من البداية بإحتلال الإسكندرية فقط وإنتظار المماليك ثم مساعدتهم في إستعادة سيطرتهم على مصر، فقد كانت الحملة مكونة من ستة آلاف جندي فقط، ولكن حاجتهم إلى المؤن الغذائية إضطرتهم للتفكير في السيطرة على إقليم ومدينة رشيد، بل طاف في خلدهم السيطرة على دمياط لإيقاف الإمدادات الحربية التي كانت ترسلها الدولة العثمانية إلى مصر. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٤٨، ٥٠، ٥١، ٤٩، ٥٣، ٥٤-٥٥، ٥٦ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٦٥٣-٧٢٤ ؛ وأنظر أيضاً:

G. Douin and C. Fawtier-Jones, l'Angleterre et l'Egypte: La Campagne de 1807, Cairo, 1928.

[2] - عند إنسحاب الإنجليز من رشيد إلى الإسكندرية قطعوا الجسر عند إبي قير بين بحيرَتي المعدية ومريوط حتى يغمر المنطقة ماء البحر ولا يتمكن جيش محمد علي من الوصول إليهم. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٥٦ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج٢، ص٧٣٠.

فيه وفي البحر[١]، وصارت مراكبهم تحرسهم من جهة البحر ولا أحد يتمكن من المجي إليهم لحيلولة ما البحر، ولا زال حضرة الصدر العلي يدبر ذلك الأمر بفكرته الإياسية ويسدده بهممه المحمودة العباسية، وهو يراسلهم ويحذرهم ويحاورهم في كتبه وينذرهم حتى أجابوا إلى الخروج من الثغر[٢]، فخرجوا من هيبته وإنقضى هول ذلك الأمر، فتسلم الثغر وأحكمه تحصيناً، وجعله في التحفظ والحرس من الأعدا شيأً بديعاً متيناً، فأدار به السور الجديد وأنشأ الأبراج والطوابي[٣] مشحونة بكل شجاع صنديد، مملوة

---

١ – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٥٥، ٥٧ ؛ شكري: مصر في القرن ١٩، ج٢، ص٧٣٠–٧٣١.

٢ – كان أول شروط الصلح وقف القتال بين الطرفين وإخلاء الإنجليز للإسكندرية، وإسترجاع الأسرى الإنجليز وكان جنود محمد علي قد إستخدموهم كعبيد وباعوهم وتفرقوا في أنحاء البلاد، ورد ما إستولى عليه جيش محمد علي من مدافع ومهمات، وصدور العفو عن أهالي الإسكندرية والأجانب عموماً للخشيتهم من بطش محمد علي وتأمين أمين بيك الألفي والسمح له بالذهاب إلى جماعته بالصعيد، كما أتفقوا على رعاية المصالح التجارية الإنجليزية في مصر، والتعهد بمنع أي جيش أوروبي من غزو مصر أو السماح له بالمرور في الطريق إلى الهند، وأرسل لهم محمد علي أحد القادة ليردوا له ابن أخي عمر بيك الذي كان بالإسكندرية وقت دخول الحملة، فأرسلوا القائد مرة أخرى لسفر ابن أخي عمر بيك، وأرسل الإنجليز رسول إلى القاهرة في ٥ جماد ثان سنة ١٢٢٢هـ/١٠ أغسطس ١٨٠٧م، وسافر محمد علي إلى جسر أبي قير بالقرب من الإسكندرية ودارت هناك مفاوضات الصلح حتى ٤ رجب/٧ سبتمبر وتم توقيع المعاهدة في ١١ رجب/١٤ سبتمبر من نفس العام، وأرسلوا الأسرى إلى الإسكندرية، ودخل كتخدا بيك إلى المدينة ثم دخل محمد علي وتسلم قلعة الإسكندرية من قائد الحملة أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٥٥، ٥٦، ٥٧–٥٨، ٦٣–٦٤، ٦٥، ٦٦ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر، ج٢، ص٧٨٠–٨٥٨.

٣ – جدد محمد علي أسوار الإسكندرية ولم يبن أسواراً جديدة، كما جدد الطوابي التي تحيط بها من الشرق والغرب. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٣، ٧٥، ١٢٤، ١٣٣، ١٤٤، ٢٥٨ ؛

من الذخاير التي لا تحصى، وجعل مكاحل البارود مستحضرة تفوق العد والإستقصا، وهيأ بها المدافع (ص١٥٠) والبنبَ الكبير، وصار أمر التحصين بذلك الثغر لا يدانيه نظير حتى صار أمر يرهب كل من تكبر، وشأناً يخيف الباغي متى توهم أن يتجبر، وإطمأن أهل الثغر بتلك الحماية، وملئت صدورهم بالسرور بهاتيك الرعاية، ثم بادر حضرة الصدر العلي صاحب العز والفخر الجلي إلى تدارك سدّ ما فتحه الإفرنج الإنكليز من البحر، وصمم على إعادة الطريق الذي يسلك من البر، وقد كان ما البحر الملح زاد عن الحدّ وفاق بطغيانه إلى غاية طرف الجد حيث إحتد، وكان بعيد العمق في تلك البقاع وسال مضطرباً لا يدرك غوره لإنخفاض القاع، وهال أمره على الناس وظنت أن لا يرجع الطريق الأول ولا يعرف لتداركه إلتماس لإنه أمر خرج عن معنى القياس وحوقل مسترجعاً فصحا الأجناس، وإنقطع طريق البر إلى جهة ثغر رشيد[١] ولقى الناس من ذلك التعب الشديد، فبادر حضرة الصدر بهممه الكسروية، وإنتدب بقوته وعزيمته الساسانية وأحضر الرجال وإستَنَهَض أرباب الأعمال ولاحظهم (ص١٥١) بتدبيره في التفصيل والإجمال، فحضرت الآلاف من الصناع وإزدحمت

عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص٤٩٧-٥٠٦ ؛ عبد الرحمن زكي: الحصون والقلاع، ص٩١-٩٦.

[١] - إستعمل هذا الطريق منذ أواخر العصر المملوكي لإنسداد خليج الإسكندرية منذ عصر الغوري، وعلى سبيل المثال في العصر العثماني كان الباشا العثماني عندما يصل إلى مصر عن طريق البحر ينزل في ميناء بالإسكندرية، ثم كان يمر بعدة محطات فيذهب إلى رشيد ويأخذ مركب في النيل إلى ميناء القاهرة في بولاق، ثم إلى العادلية في شمال القاهرة قبل أن يستقر أخيراً في قلعة القاهرة. وهذا الإجراء كان يستغرق أسابيع عدة، إذ يحتفى به في كل من تلك المحطات، حيث يتقابل مع أمراء المماليك وكبار موظفي الدولة العثمانية في القاهرة، ويتم تبادل الهدايا مع الباشا. والفترة التي تستغرقها الإستقبالات المذكورة تعطي سلطات القاهرة الفرصة لمحاسبةالباشا المعزول وإعداد قائمة بحساباته لتقديمها للباشا الجديد. أنظر. أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي: الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق عبد الوهاب بكر ودانيال كريسيليوس، القاهرة سنة ١٩٩١م.

العملة لأمره المطاع، فكانوا يأتون بالصخور والأحجار والأطيان والتراب بما يدهش من كثرته الأفكار ويزيغ الأبصار، ويرمونه في الما العجاج ويوالون بكثرة الرمي المتواصل في ذاك الأجاج بعدما جاؤا بالعظيم الطويل من الأخشاب ما يزيد عن مراتب الآلاف في فنّ الحساب، وجعلوه بجانبيه يميناً ويساراً، ونظموه ثابياً محازياً بعضه البعض أستاراً، وجعلوا الرمي بينهما جهاراً وكثروا وإسترسلوا ليلاً ونهاراً، ولايزالون حتى يضمحل الما ويظهر الحجر ويحجز بين المابين ويحسن الأثر، وإستداموا على ذلك نحو عامين حتى تم محكماً بلا مين، ثم أرادوا لتقويته خشية طغيان الما عليه إذ ربما أضرّ به من أحد جانبيه، فجعلوا سداً ثانياً موازياً للأول ليحسن التمام الذي عليه المعوّل، وألصقوا كلاهما بالآخر فأحجم ما البحر وتأخر ذلاً بعد أن فاخر، ولما كمل[1] السدين المتواصلين (ص١٥٢) وإستحكم أمرهما متحاذيين متوافقين حَجرَّوُا أعلاه مرصوصاً، وتقهقر الخِضَمّ بمايه المتهوج مغصوصاً، وصار الطريق على غاية الإستقامة في السلوك يسير فيه الضعيف كالقويّ من الدلوك إلى الدلوك يتبختر فوقه البعير بحمله الثقيل ولا يبالي من البحر سوا في البهيم أو الضحوة أو الأصيل، وإستراح الناس من ذلك الأمر المنكر وقرت أعين المارة وكل إمرء بما رآه إستَبْشر، وصارت التجار والسفار يسيرون هناك لنيل قضا الأوطار، وإشتهر ذلك وتسامعت به الركبان وجات لرؤيته إذ ليس الخبر كالعيان، وكنت في ذلك الزمان ممن سافر لرؤيته مع رفقة من الإخوان، فشاهدته ومررت عليه فتأملته من جانبيه ومكثت سايراً راكباً نحو ساعتين ثم نزلت في آخره للراحة وتحريك الماضغين، فلما إطمأن بنا المجلس في ذلك المكان خاطبت من معي من معشر الإخوان وقلت حيث أخذني العجب وعمني السرور ومليت من الفرح (ص١٥٣) والطرب لعمري لو كان هذا السد قديماً ومررت عليه الآن وشاهدته مستقيماً لقلت أنه من صناعة الجن أو من فعل سابق دول الجِنّ والبن، وما أظنّ أن الإنس تفعل ذلك في بعض الأزمان، اللهم إلا من مثل ذي القرنين

---

[1] - في نسخة [دار الكتب] "أكمل".

إسكندر أو سيدنا سليمان، وغير هذين لا يتمكن من ذلك ولا يقدر على الوصول إلى ما هنالك، وما هذه إلا عناية ربانية وحالة بالتـأييد مصحوبـة، فهـي عليـه، فأجـابوني أليس هو من صنيع صاحب العزم والزعامة والقوة والهمم والحماسة والشهامة الصـدر العلي ذي العزم الجلي، فقلت نعم وكرامه، حصنته بجاه صاحب العقيق ورامه آمين[١].

ومن آثاره التي لا تضاهى ومحاسن صنايعه التي يفتخـر بهـا القطـر ويتبـاهى، وهـى أكبر عجايب الإقطار وأغرب ما يسمع في الممالك والديار، إنشـاؤه لنهـر المحموديـة[٢]،

---

[١] – كان هذا السد يرمم من وقت لآخـر عـبر العصـور، وفي فـترة الإضطرابـات حـدث بـه شـرخ فتسربت مياه البحر المالحة للأراضي الزراعية بين الإسكندرية ورشيد حـوالي سنة ١٢٠٢هـ/٨٧-١٧٨٨م، وإستمر الشرخ في الزيادة حتى مجيء الحملة الفرنسية، وعندما جـاءت الجيـوش العثمانيـة والإنجليزية لطرد الفرنسيين كسره الجنرال هتشنسون من الناحيـة الشـمالية لقطـع الطـرق ومحـاصرة الفرنسيين بالإسكندرية، فإندفعت المياه المالحة إلى قرب دمنهور وإختلطت بخليج الأشرفية وخربـت الأراضي وأتلفت الزرع، ولم يصل الماء العذب إلى الإسكندرية، وبعد إستيلاء العثمانيين على مصـر أرسلت الدولة صالح أفندي مع المهندس السويدي رودن **Rhoden** لترميم هذا السد ومعه المعـدات اللازمة مـن أخشـاب وخلافـه وإستغرق العمـل سـنة ونصـف حتـى قـرب مـن الإنتهـاء فحدثـت الإضطرابات بين علي باشا وأمراء المماليك فكسر علي باشا الجزايرلي هذا السد مرة أخرى في جماد أولى سنة ١٢١٨هـ/أغسطس ١٨٠٣م ليتحصن بالإسكندرية، ووصل بعد ذلك فرمان سـلطاني في ١ ذي القعدة ١٢١٨هـ/١٢ فبراير ١٨٠٤م بتعيين محمد صالح من رجـال الدولـة ومعـه مهندسـون لسد قطع هذا الجسر على أن تكون نفقات ذلك من خزينة مصر. وبدأ محمد علي في إعـادة الجسـر الذي يربط الإسكندرية برشيد في ٧ ذي القعدة ١٢٣١هـ/٢٩ سبتمبر ١٨١٦م لإنعـاش حركـة التجارة إلى الخارج لحاجة محمد علي الماسة للأموال لتلبيـة طلـب الدولـة العثمانيـة في إرسـال حملـة للحجاز للإنهاء على الوهابيين، وللبدء في بناء دولة مستقرة. أنظر: الجبرتي: عجـائب الآثـار، ج٣، ص٢٦٢، ج٤، ص٢٥٨ ؛ أمين سـامي: تقويـم النيـل، ج٢، ص١٧٣ ؛ شـكري: مصـر في مطلـع القرن ١٩، ج١، ص٣٥، ٢٠٠، ٢٠٩ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤١.

[٢] – سميت بذلك نسبة للسلطان محمود، وكان موقعها هـو نفـس الخليـج النـاصري (نسبة للنـاصر محمد بن قلاوون) و الخليج الأشرفي (نسبة للأشرف برسباي)، فأعاد محمد علي حفـره مـرة أخـرى

وإبرازه هذه الكيفية العظيمة المزية، فإنها من أعظم المفاخر المصرحة بكم ترك الأول للآخر، وسبب إنشايها أن أهل الأقطار من سَاير السفار والتجار يسافرون (ص١٥٤) في البحر العجاج ويخرجون من أوطانهم فيرون به الهول والإختلاج، فإذا وصلوا ثغر إسكندرية إرتاحت منهم الطوية ومكثوا فيه حسب راحتهم، ثم يرومون السير إلى مصر لنجاح بضاعتهم، فيكون طريقهم من البحر إلى رشيد نحو أربع ساعات أو أزيد بحسب الريح في الترديد، ثم لابد لهم من المرور بالبغاز المعروف، فيمر به المسافر وهو من الفزع مشغوف، لأن السلامة فيه غير مضمونة والأرواح حالة مرورها منه ليست مأمونة، فكثيراً ما تغرق به السفن والركاب[١]، وطال ما شاهدوا من هوله العجيب

إبتداء من جمادى ثان ١٢٣٢هـ/ ابريل-مايو ١٨١٧م ليختصر الوقت للوصول بالبضائع من داخل البلاد إلى الإسكندرية والعكس لخدمة التجارة وزيادة الانتاج الزراعي، وكان محمد علي يسافر لتفقد الأعمال بنفسه من وقت لآخر، وانتهى حفرها في ٤ ربيع أول ١٢٣٥هـ/٢٠ يناير ١٨٢٠م، وعين كثيراً من المهندسين لمباشرة أعمال الري وحفر الترع وعمل الجسور، وكان هذا الحدث من أهم أسباب إزدهار الإسكندرية وأفول نجم رشيد، وظهور مدينة جديدة هى مدينة المحمودية. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٧٦، ٢٧٧، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٦-٣٠٧، ٣١١ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج٢، ص١٢، ٣٢، ٣٨-٣٩، ٤٠-٤١، ج٣، ص١٦٥ ، علي مبارك: الخطط، ج٧، ص٤٥، ٥٠-٥١، ج١٩، ص٧٥، ٨٦، ٨٧-٩٣ ؛ عمر طوسون: تاريخ خليج الإسكندرية، ص٥٩-٧٢، ٧٧-٩١، ٩٥-١٥٢ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٥٩، ٢٦١-٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٤.؛ علي شافعي: أعمال المنافع، ص٢٨-٣١، ٧٧ ؛ حسن عبد الوهاب: قناطر محمد علي، ص٨٥ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤٠-٤٣، ٦٩، ١٣٩، ٢٢١، ٢٩٩، ٤٩٣، ٥٠٣-٥٠٤، ٥١٧ ؛ ريفلين: الاقتصاد، ص٣١٣-٣٢١ ؛ السروجي: تاريخ الإسكندرية، ص٣٥٨-٣٦١ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص٥٨، ٦٠.

[١] - كان لإضطراب هذا البوغاز أكبر الأثر في تبادل الإزدهار بين مدينتي فوة ورشيد، لإضطرار السفن للرسو تارة في تلك المدينة وتارة في الأخرى حسب حالة إتجاه الريح بهذا البوغاز. أنظر:

العجاب، فكان البعض من السفن يَسْلم والبعض يتلف غرقاً ويحف بالراكب لها الندم، وكان هذا البغاز متلفة للمتجر ومشقة على كل بار وفاجر ولا طريق لمصر سواه، فسبحان من خلقه وسواه، فكان من أجل تدابير الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي أن بادر بعزمه المعروف وطلب أن يصنع مع العالم البر والمعروف حفظاً للتاجر والتجارة وحرصاً على (ص١٥٥) نجاتهم من الغرق أو الخسارة وطلباً لراحة قلوب الناس وعناية من حضرته بالرأفة لسَائِر الأجناس، وصمم بعزمه الجليل وجزم بإراحة كل قبيل وأمر وأمره المطاع وإستنهض الأشياع والأتباع وطلب إحضار الرجال والدواب الرافعة للأثقال، وأن يحضروا مساحي الحديد [آلات الهندسة لإتقان هذا الإنشاء بالتحديد][١] وأن يأخذوا إرتفاع النيل السعيد وموازنة نزوله في وسيع البيد، وأن يَحْفِرُوا من شاطي بحر النيل إلى ثغر إسكندرية في البر الطويل، ويبتدوا بذلك من بلد العطف[٢] المعلومة، ويجعلوا سعة المجرى أربعين ذراعاً مقسومة، والعمق بحسب ميزان الأرض ونسبتها إلى ما النيل في الرفع والخفض[٣]، فبادرت الرجال من أقطار

محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق٢، ج٢، ص١١٣-١١٤ ؛ طاهر الصادق وآخرون: مدن مصر ذات التبادل الحضاري، التقرير الثاني، أغسطس ١٩٩٤م، ج١، ص١٢-١٤.

١ - في نسخة [دار الكتب] ما بين الحاصرتين مكتوب بالهامش الأيمن للصفحة، ومشار إليه برقم "٣" في النص وفي الهامش.

٢ - **بلدة العطف**: قرية بالقرب من فوة على فرع رشيد من النيل، أصبحت منبعاً للترعة الجديدة التي أنشأها محمد علي قبل كتابة هذا المخطوط بسنوات قليلة. أنظر: محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق٢، ج٢، ص٢٦٨ ؛

Helen Anne B. Rivlin, The Agricultural Policy of Muhammad 'Ali in Egypt, Cambridge, Harvard University Press, 1961, 219-221.

٣ - بدأ الحفر المهندس التركي شاكر أفندي وهو الذى قام بتصميمها وإدارة أعمال الحفر، ثم لما وجد خلل في منسوب الترعة عين المهندس الفرنسي بسكال كوست لإتمام العمل وإصلاحه في جماد أول سنة ١٢٣٤هـ/مارس ١٨١٩م، وأكمل الحفر إلى ميناء الإسكندرية الجديد. عمر طوسون: تاريخ خليج الإسكندرية، ص٥٩-٧١ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤١.

الكنانة وإفتتحوا ذلك مع المهندسين بغاية الإتقان والمتانة، وكنت في ذلك الحين بإسكندرية أخرج للتفرج على هذه الكيفية، فشاهدت همماً تعجز عنها الأكاسرة وأفعالاً لا تدرك (ص١٥٦) القياصرة، فإن مسافة ذلك النهر يوم وليلة بالسير المعتدل، وقدمت بجانبه الأخشابّ خشية وقوع جرف منخزل، والعملة نحو الثلاثماية ألف أو يزيدون وحولهم الأمرا وكشاف الأقاليم إستنهاضاً لما يعملون[١]، وكانت الرجال حين جات من البلدان معهم الطبول من كل بلد ومكان، والزمور تصحبهم مع الكؤسات ليضربون بذلك في ساير الأوقات، فكل أهل بلدة أتت بهذه الصورة حتى صارت الكيفية في غاية العجب مشهورة، فكان إذا أسفر ضو الصباح تضرب الطبول من باب إسكندرية وتنفخ الزمور من كل أهل بلد سوية ويتواصل ذلك ويمتد إلى العطف من ذلك الحد، فيكون ذلك أمراً مستغرباً وشأناً يستغرق البال، بحيث لا يدرك شرحه معرباً حتى يتخيل للسامع أن الدنيا كونت من طبول وزمورْ، وربما ظن من لا يدري أن هذا هو النفخ في الصور، وهؤلاء الأمم متفرقون في الأعمال لا يفترون عن الحفر والحمل في حال من الأحوال، ولكل قوم خيم وخيام يأوون (ص١٥٧) إليها وقت النيام، ثم أفرز حضرة الصدر رجالاً مخصوصة وعدداً من الآلاف منصوصة من أهالي إقليم القليوبية وضم إليهم فرقة من خدمة إسكندرية وخصهم بحفر مينه[٢] متسعة الدايرة تكون غاية لإنصباب مياه الترعة الهامرة، وتقف بها المراكب التي تجي من بحر النيل ويحمد الإستقرار بها لمن يأتي من أبنا السبيل[٣]، ففحروا دائرة في السعة ماتيمة وفي وقوف المراكب بها ملايمة ومنتظمة، وأتقنت في شكلها البديع وكمل بفحرها حسن

---

١ – الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٧٦.

٢ – في نسخة [دار الكتب] "مينا".

٣ – لازالت بقايها موجود عند كوبري التاريخ بالإسكندرية.

ذلك الصنيع[١]، فإنه أمر لا يدرك معناه إلا من شاهده بنظره وليس الإخبار به كالعيان بل هوشي من أثره.

وها أنا أصف لك بحملاً صورة المجموع فيه في الأناس وأقرب لك فهم شكله بالقياس، فإني أخبرتك أن طول الترعة أعني النهر أربع وعشرون ساعة، وذكرت لك تقريباً كيفيته وأوضاعه، فإعلم أن الفحر من شاطي النيل أربعون ذراعاً مجعولة عشرة أقصاب إتساعاً فهذا سعة مجرى المياه مملوة بالرجال العملة بالمئاه، ومن الجانبين رجال (ص١٥٨) يأخذون منهم مقاطف الطين ليرفعوه في أعلى وجه الأرض لإحكام الجرف المتين، فالذين من الجانب الأيمن صاعدون ونازلون والذين في قرار النهر لا ينتقلون بل للفحر ماكثون، والذين بالجانب الأيسر يصعدون كذلك وينزلون، ثم إذا أخذوا ممن يحفر وصعدوا لا يرمون ما معهم على الشاطي الملتصق بممر الماء[٢] الجاري بل يمشون عشرة أقصاب ثم في نهايتها يرمون هناك ما بإيديهم من الطين الذي هو في المقاطف والبداري، فقد عرفت أن سعة المجرى أربعون ذراعاً وبالجانب الأيمن ما يقاربها للصعود إتساعاً، وبالجانب الأيسر مَا يضاهيه في موازنة السعة، فتم حينئذ من الجانبين ثمانون ذراعاً متوزعة وأربعون سعة المجرى، ومن كل جانب في السطح عند الجرف أربعون أخرى، وقد كملت مائتي ذراع بالتقريب، فهذه المايتا ذراع مشحونة بلا ترتيب مملوءة بالرجال العملة الفحارين والفعلة، فلست ترى إذا تأملت في قرارها محلاً خلياً من الرجال ولا بإحد الجانبين ولا بناحيتي (ص١٥٩) السطح العال بل تمدّ بصرك مايتي ذراع فلا يقع إلا على أجسام البشر مزدحمين صعوداً ونزولاً وسيراً وفحراً إزدحام قطر المطر، وهذا الإزدحام من شاطي النيل عند العطف التي ذكرناها، وهكذا ممتداً ذلك الإزدحام موصولاً ببعضه بعضاً إلى إسكندرية للمينا التي حررناها، فظهر أن موضع وقوف الرجال الذين لهم دخل في ذلك الصنع مقدار مايتي ذراع،

---

[١] - علي مبارك: الخطط، ج٧، ص٤٥، ٥١.

[٢] - في نسخة [دار الكتب] هذه الكلمة مكتوبة بالهامش الأيسر للصفحة ومشار إلىمكانها بالنص.

وهذين المايتي ذراع مبدؤهما من شاطيء العطف إلى باب إسكندرية، ومقدار ذلك بالسير المعتدل يوم وليلة.

إذا فهمت ذلك وتخيلت الكيفية على النمط الذي قلناه حققت إنه أمر كبير جداً وشأن لا يتأتي لغير الصدر العلي فعله، وكيف يمكن السوا أن يصنع ما يقرب من هذا ولو عرف مستعداً، وهكذا فلتكن الهمم وإلى النظر لعظيم آثاره يسعى على الرأس لاالقدم.

ثم إنه أسعده الله بعد أن تم حفر المكان كله وذهب عن الصانع فيه وصبه وزال كنه أمر بفتح الباب الذي هو من جهة النيل ليدخل الما ويظهر مقدار (ص١٦٠) جريانه الجميل، ففتحوه ودخل الما منصباً قوياً وسارت فيه السفن سيراً مرضياً وإمتلأت جميعها بالما العذب اللطيف، وكان ذلك يوماً مشهوداً بإسكندرية وخيراً عاماً للقوي والضعيف، وكان قد أمر الصدر بصنع محلات ينصرف الما منها عند وصوله للمينا ووقفوه خشية من حبسه، فربما كثر في أوقات الزيادة وطغى من الجانبين فتتلف من النهر جروفه، فصنعوا تلك المصارف وأحكموها وجعلوها بالحجارة مقنطرة وجوفوها وثبتوا الأساسات بقوة وقوسوها ونزلوا بحجارة الأساس على الأرض الصحيحة وغَوَّصُوها، فإعتدل الما في سيره وبدأ عنوان سره[١] وخيره، وبقيت إسكندرية مضروباً بها الأمثال، وصارت في المداين بديعة المثال، وناهيك بمدينة أحد جانبيها على البحر المالح وجانبها الآخر على العذب الفرات فسبحان المانح وعم أهلها السرور وذهب عنهم الكدر المدحور، وإرتاحت سائر السفار وإطمأنت على أموالها التجار، لأن التاجر الآن يأتي ببضاعته من أي مكان كان ويصعد من البحرالمالح إلى ثغر إسكندرية (ص١٦١) فيجدها معمورة مشحونة بالخيرات بهية سنية، فيمكث بها ما أراد من الزمان، ثم ينزل مع تجارته من جانبها الآخر في مراكب النيل في غاية المسرة والأمان، وكفى الله الناس شر البغاز وإضمحل التلف الذي كان يجي من جهته

[١] - في نسخة [دار الكتب] "سيره".

مع الإنجاز، وطالما مسني النصب والتعب وحف بي الكرب والوصب في سابق سفري إليها من مصر إلى رشيد، ثم بعد خروجي من رشيد يعمّني كل شأن مكيد، إن كان سيري لإسكندرية من البحر المالح فلا بد لي من المرور على البغاز وأنظر وجهه الكالح، ثم إذا خرجت منه بعون الله سالماً تَضِربُ[١] رأسي من رائحة البحر وصنانها دائماً، ولا خلاص إلا بالوصول لإسكندرية، وهذه صورة كرب لعمري إنها شديدة قوية، وإن كان سيري من رشيد بطريق البرّ فذلك عندي أضرّ وأدهى وأمرّ لأن الطريق عسر طلوعاً في الرمال ونزولاً ومروراً بجانب البحر على شاطيه زلقاً ووحولاً، ولا سيما وبه مكان تمر منه السفار يعرف بسبخة حليمة تبدوا به من كثرة الزلق والوحول (ص١٦٢) الأكدار، وبالجملة والتفصيل فطالما شاهدت في سيري إليها الأمر الوبيل، فذهب ذلك جميعه وبدا الخير معروفاً سببه وصنيعه، فالحمد لله على هذه النعمة التامة، وله الشكر على أفضاله العامة، فإن الواحد من الرجال في هذا الحين ينزل من ساحل بولاق مطمئناً مضطجعاً في سفينته وهو مسرور أمين ولا يبرح مطمئناً مستريحاً خاطره حتى يصل إلى نهر المحمودية إلى إسكندرية قريراً العين ناظره، فإرتاحت كافة العباد وكثرت المكاسب للمجاورين لها وللبعيدين من البلاد، فجزى الله الصدر العلي أعظم الجَزَاء، وجعل خاصته من قسم الخيرات أكبر الأجزا، و لله درّه من سيد عظيم ووزير عارف بموطن إصلاح كل أمر جسيم، وأطال الله بقاه وتأييده وأحكم نظامه وسدد تشييده، هكذا هكذا وإلا فلا لا، طرق الجد غير طرق المزاح.

ولو أردت حصر ما أنشأه من بساتين وقصور ومواضع كرخانات المصالح العامة النفع لضاقت الأوراق (ص١٦٣) وإزدحمت السطور، وكيف ولا يخلو مكان من بلاد القطر ومداينه من معالم معانيه، فأنى يماثله مماثل في أيّ وقت أو يقاربه ويدانيه، هذا مما لا يخطر بالبال ولا يمر بفكر ولا خيال، اللهم إلا أن يَكون ذلك خطرات أوهام أو خرافات مخيلة تجي بها أضغاث أحلام، ومن هو الذي أنشأ إقليماً مستقلاً، فقد صرت

[١] – في نسخة [دار الكتب] "يَضِرب".

به أيده الله على ذلك مستدلاً، وهذا مسطر في هـذا الكتـاب ومذكـور، فـأنظره أيهـا الطالب الراغب لمحاسن كل خير مدخور.

ومن هو الذي أنشأ السـفن الحربيـة في البحـر المـالح والمراكـب النيلاويـة في البحـر العذب لعامة المصالح مقدار بعض الذي أنشأه أو قارب شيئاً ممـا أظهـره وأنشـأه، فـإن مقادير ذلك جاوز الألوف، فأنظره في هذا الكتاب فهو مسطور فيه وموصوف، فـأيد الله ذلك الصدر وأدامه بالعز سامي القدر.

المقالة الخامسة

في إعادة دولة كتبة المسلمين

بعد إبعادهم عن (ص١٦٤) خدم الأمرا حتى إفتقروا وصاروا في عدد الضعفا المساكين، بحيث أن كفار الأقباط إنفردوا بخدمة الأمرا وتملكوا بيوتهم وحلوا في قلوبهم محلاً كبيراً، وصار الفقير من الكفار غنياً بل أميراً، وألقوا عندهم أكاذيب وإفتروا على كتبة المسلمين بأعاجيب، ولازالوا بهم حتى تمكنوا منهم غاية التمكن، وأوقعوا كراهة الكتبة المسلمين في قلوبهم وحل بهم التمسكن، وصاروا بغاية الذل والمهانة وإنحطت أقدارهم للحضيض بعد رفعة المكانة، و لم يبق بمصر منهم عند أحد الأمرا سوى رجلين أو ثلاثة: كاتب الحرمين بمنزل الوكيل، لأن كتابة الحرمين وظيفة ووراثة[١]، وكاتب الصرة مع أمير الحاج في السفر[٢]، وبعضهم طلب المعيشة بالقبانة[٣]

---

[١] - **كاتب الحرمين:** هو أحد كتاب قلم الروزنامة، وهو الكاتب المسئول عن سجلات مال الصرة المرسل سنوياً لإهالي الحرمين الشريفين وهى المبالغ النقدية والعينية التي يقوم بتوصيلها أمير الحاج في موسم الحاج. أنظر: ليلى عبد اللطيف: الإدارة، ص٣٠٩ ؛

Suraiya Faroqhi, Pilgrims & Sultans, The Hajj Under the Ottomans, London, 1994, 164.

وإستقر، والبعض الباقي عند الأمرا لا بد له من مدارات ومواسات الأقباط وإلا فلا يقدر على أن ينتفع بدانق ولا قيراط، وكانت الكتابة بمصر منقسمة أقساماً ثلاثة:

القسم الأول كتاب الأمرا المتكلمون على البلاد المتحكمون على المدن والقرى[١] وجميع المزارعين (ص١٦٥) من العباد المباشرون بيوتهم المسْتَرسِلون على جميع أموالهم، وهؤلاء هم الأقباط، فالرئيس منهم مقيم بمصر يتكلم على بيوت الأمرا وتحت يده جماعة من كفرة القبط يفرقهم في ضبط حساب الجهات، مقيمون عنده بمصر ساكنون[٢] بالنهار بدار الأمير، ويتوجهون لمنازلهم بعد العصر جماعات بعد جماعات، ومنهم طائفة يرسلهم الرئيس المباشر للبلاد يعرفون بالصيارفة[٣]، وهم الذين يكتبون

---

[٢] – **كاتب الصرة:** هو كاتب الحاج، مسئول عن المبالغ النقدية المرسلة من القاهرة سنوياً لمعاشات سكان الحرمين الشريفين، وقد كانت مبالغ الصرة المرسلة للحرمين سنة ١٢١٢هـ/١٧٩٧-١٧٩٨م ١٦,٢٠٤,٦٦٦ بارة. أنظر:

Shaw, Organization, 254-258, 268.

[٣] – **القبانة:** طائفة القبانيين (الوزانين) طائفة كانت تقدم خدمات عامة في الأسواق والوكائل ومراكز الجمارك في مصر كلها، كما قاموا بوظيفة تسجيلية أيضاً، حيث كانوا يقومون بضبط الأوزان والأحمال التي ترد إليهم، ويتلقون أجرهم مباشرة من أولئك الذين يتلقون خدماتهم. أنظر:

Shaw, Organization, 109-112, 128 (8-9).

[١] – **كتاب الأمراء:** كان لكل أمير من أمراء المماليك كتبة من الأقباط لحفظ حساباتهم الخاصة بإيرادات الإلتزامات الزراعية أو المقاطعات الحضرية، وقد كانوا مؤتمنين على أدق أسرار أسيادهم المالية، وبالتالي فقد كان لهم نوع من التأثير في دوائر أسيادهم، ومن أمثالهم المعلم بقطر المحاسب كاتب البرديسي بيك، وغالي كاتب الألفي بيك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٨٣.

[٢] – في نسخة [دار الكتب] "ماكنون".

[٣] – **الصيارفة:** كان نظام الصيارفة جزءاً هاماً من إدارة حصة الملتزم أو الأمير المملوكي، حيث يقوم الصراف بتحصيل الأموال المقررة على الفلاحين، كما يقوم أيضاً بدفع النفقات الإدارية الخاصة بالإلتزام، ومن ثم فقد كان الصراف جزءاً من إدارة القرية ذو دور هام، حيث يقوم بتعيين موعد جمع الضريبة أيضاً. أنظر: عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري، ص٢٥-٢٧ ؛

Shaw, Organization, 53, 56.

حسابات البلاد ويضبطون إيرادها ويقبضـون جميع الأمـوال مـن الفلاحـين والمشـايخ المتكلمين عليهم بها، وهذا معلوم معروف محقق موصوف.

القسم الثاني: كتاب الميري المسمى بالرزنامة، وكبيرهم يعرف بـالرزمنجي[١]، وهـو رجل من المسلمين من أعيانهم ومن مشاهير العـارفين بـالقوانين السـلطانية في أحـوال البلاد جميعهم، وله أتباع من طوائف الكتبة المسلمين ورؤسا من كبـارهم، وتحـت يـد كل رئيس أتباع من المسلمين يكتبون الأموال السلطانية في دفـاترهم (ص١٦٦) ولهـم مرتبات معلومة ودراهم يأخذونها محسوبة مرقومة، وهم من أعيان مصر علـى الـدوام ومن المعلومين بكتابة القرمة[٢] والتركية في سـاير الأيـام، وهـم معروفـون عنـد الخاصـة والعام ومعلوم أمرهم على توالي الأيـام، إلا أن الأقبـاط غلبـت عليهـم أيضـاً، فكـانوا يحتاجون لمداراة الأقباط ويواسونهم أخذاً بالحزم والإحتياط خوفاً مـن مكرهـم القبيـح ورعباً من كذبهم المكنى لا الصريح[٣].

[١] - **كتاب الميري/ الروزنامة:** هـم كتـاب الروزنامـة الذيـن يقـع عليهـم مسـئولية تدويـن وحفـظ حسابات ضريبة الأراضي الزراعية (الميري) الواجبـة الدفـع للحكومـة. الروزنـامجي: ترتيـب الديـار المصرية، ص٢٥-٢٦.

[٢] - **كتابة القرمة:** نوع من الخط الرمزي السري، كان يحفظ به كتاب الروزنامة حساباتهم، حيث تستخدم فيه رموز معينة للإشارة إلى الأسماء أو المصطلحـات الإداريـة. أنظـر: ليلـى عبـد اللطيـف: الإدارة، ص٤٦٠.

[٣] - يذكر هذا الوصف في مخطوطتان من القرن ١٨م وهما:

Ahmed Cezzar, translated and annotated by Stanford J. Shaw, Ottoman Egypt in the Eighteenth Century, Cambridge, Harvard University Press, 1962; Huseyn Efendi, translated with notes by Stanford J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Cambridge, Harvard University Press, 1966.

والقسم الثالث شهود البلاد[١]، وهم فقرا المسلمين في العباد، جعلتهم الأقباط مكراً منهم مع الصيارف، وهم في الحقيقة شهود لهم لا عليهم عند كل عارف، وهؤلاء يرتزقون من أيدي الصيارفة ولهم بعض أشيا فارغة في البلد وزايفة، وبقيت بعض أناس من المسلمين يكتبون للتجار وهم قليلون جداً لأن أرباب القبانة يكفونهم عن الأغيار.

وبالجملة فقد كانت الأقباط هم الأمرا في الحقيقة، المتمكنون من الأموال بكل طريقة لا يساويهم فيما تقدم كبير ولا صغير (ص١٦٧) ولا يناظرهم إلا مثل أمير كبير، فلما أراد الله وهو الملك الفعال ذو الكرم والجلال والأفضال إستولى على قطر مصر حضرة أفندينا المؤيد بالجلال المحفوظ بعناية الرب المتعال طلب المسلمين وأمر بإحضارهم أجمعين، فكان منهم بقية باقية يستمدون من الأقباط كما يرد المارّ على الساقية، وبعضهم ملفوف في ثياب الخمول والفقر يفرون من الأقباط فرار العصفور من الصقر، فألزمهم حضرة أفندينا بتعاطي الخدمة فيما له من المصالح ليكون أمرهم مستقيماً بالوصف الناجح، ورتب لكل خدمة رجالاً لا يفرطون في شي ولو عقالاً[٢]، وعليه رئيس منهم يجمعهم للخدمة وبلوازمها يأمرهم، فلقلة المسلمين الحساب وكثرة الأقباط في العدد بغير حساب لزم الأمر لمشاركتهم وملازمتهم معهم ومطارحتهم، وجعل لكل كاتب كغايته، ورتب له من الأموال ما ستر حالته، وجعل للرئيس ما

---

[١] – **شهود البلاد:** من رجال الإدارة في القرية، والشاهد هو المسئول عن تسجيل أطيان القرية في سجل خاص يحفظ لديه، ويسجل به مساحات الأراضي في القرية وأسماء الفلاحين اللذين يقومون بزراعتها وحصة كل منهم منها وأسماء الملتزمين، كما يسجل أيضاً المال المقرر على كل فلاح، وفلاحين كل شيخ من مشايخ البلد على حدة، ويعتبرسجل الشاهد هو الأساس الذي يقوم عليه عمل الصراف في جمع الضرائب المقررة. وتعيين الشاهد كان يتم بإختيار فلاحي القرية، وموافقة الملتزم على ذلك الإختيار. أنظر: عبد الرحيم عبد الرحمن: الريف المصري، ص٢٣ ؛ ليلى عبد اللطيف: الإدارة، ص٤٤٩.

[٢] – هم رجال الدواوين الإدارية التي أنشأها محمد علي. شكري: بناء دولة، ص٩-١٣.

يقوم به بحسَب حاله، وأعطاه من الخرج[1] و الجامكية[2] ما يقوم بأمثاله، فحسن (ص١٦٨) حال كتبة المسلمين وإستغنوا بعد الفقر المستنين وصاروا من الأعيان وممن يشار إليه بالبنان، وشاركوا في كل الأعمال كتبة الأقباط، وبعضهم إنفرد بإتباعه المسلمين خاصة أخذاً بالضبط والحزم والإحتياط، وتفرقوا بمدينة مصر وغيرها من البلاد وبقى لهم صورة جليلة بين ساير الأمرا والأجناد، ولهم بمصر الرتبة العلية والمكانة المرضية السنية، ولهم الخدم والأتباع وإستقامت لهم الأمور والأوضاع، فلا تخلو منهم قرية ولا بلد وكثروا وصار أمرهم يزيد مع الأيد والمدد، وضبطوا الخِدَم الضبط الكافي وقاموا فيها القيام الوافي، حتى صاروا أرباب عز ووقار وأصحاب كرم وفخار ولاحظتهم رعايته وأعزتهم عنايته وأقبل عليهم قبوله وأثمر غصن مظهرهم وذهب ذبوله وبدا شعار سعدهم وولى حموله ودرّ غيث خصبهم[3] وفاضت سيوله، فإستقاموا في ضبط ما لإجله أقيموا، ولذلك ثبتوا في مجال التكريم وأديموا، ومن المقولات المشهورة (ص١٦٩) والأمثال السايرة المدخورة الناس على دين ملوكهم، هكذا شأنهم في سبل سلوكهم، فلما شاهد أعيان مصر وظهر لهم ما أزيل عن كتبة المسلمين من الإصر وعاينوا إقبال حضرة الصّدر عليهم وإنه قد أقامهم لضبط المصالح بالميل إليهم قلدوه في ذلك وساروا بسيرة في تلك المسالك فقلدوهم كتابة إيرادهم وراوا ضبطهم المسُعف بمرادهم، فحسن حال الجميع وكمل شعارهم البديع.

---

[1] - **الخرج**: هو المرتبات العينية. أنظر:

Rivlin, The Agricultural Policy of Muhammad ʻAli in Egypt, 317, note 27.

[2] - **الجامكية**: جمعها جوامك، وهى كلمة فارسية من "جامكي"، وأصلها مرتب يصرف لشراء ملابس، وقد إستخدمت في سجلات الروزنامة العثمانية بمعنى المرتب أو المعاش الذي يعطى للموظف أو التابع من الخزينة العامة، مادام أسمه مسجلاً في دفتر الأوجاقات. ليلى عبد اللطيف: الإدارة، ص٤٤٣.

[3] - في نسخة [دار الكتب] "خصبيهم".

وهذه لحضرة الصدر من أكبر المفاخر، يشهد بذلك كل مؤمن با لله ورسوله واليوم الآخر، ولعمري إن صحيفة ثوابه في هذه القضية مملوة بالحسنات مشرقة مضيئة سنية، فهى من أجل موضوع في ميزانه، حيث لا يضاهيها صنع تكون على وزنه، كيف لا يكون كذلك وقد صير المخفوض رفيعاً، وغير خفي أن من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً، فلله دره من سيد ألمعي خبير بمواطن الرقايق لوذعي كامل في رتبتي الذكا والشهامة، ثابت في مضماري الشجاعة والزعامة، مشهود له (ص١٧٠) بالسؤدد والسداد، معين لأهل الوفاق مهين لأرباب العناد، وبالجملة والتفصيل فإن كتاب المسلمين في كل قبيل رجع لهم ما كان قد ذهب، وصاروا في رونق الفضة البيضا وصفا الذهب، أحياهم ا لله بعد الممات وأعادهم للنضارة بعد الذبول، بل للوجدان بعد عدهم من الرفات، وسبب ذلك همة أفندينا العلية ومعرفته بمصالح البلاد ومنافع الرعية، وتَفَطّنه أن كتاب القبط لا ينبغي تفردهم لما يلزم ذلك من الأضرار كما سبق تمردهم، ولا يصدقون في رعاية خدمه ولا يتركون قبضة بل ولا ذرة فضلاً عن حزمه، فا لله تعالى يديم عزّ أفندينا ويجعله ملاذاً دُنْيا وديناً آمين.

المَقَالَةُ السَّادسَة

في ذكر بعض أحوال تنبيء عن عظيم همته وكبير قوته من إنشاء مراكب بحرية وآلات حربية، وما أنشأه من الترع والأنهار والبلاد والديار والأقطار

فمن ذلك أن حضرة الصدر العلي لما رأى أن مصالحه لابد من (ص١٧١) إنفاذها وهى متفرقة أنواعاً وأشكالاً، ويحتاج الحال في إمضائها إلى كثير من المراكب، وحصل بذلك قلة كفاية لمشاركة مصالح العامة في تجهيزها للمراكب أيضاً، فحصل بسبب ذلك بعض تعطيل في المصالح الخاصة والعامة، فتأمل حضرة الصدر العلي في ذلك ودبر بفكرته الصحيحة ما هنالك، فأمر بإحضار الأخشاب والآلات وتنجيز صناعة المراكب البحرية النيلاوية والحربية لتكمل المصالح في سائر الجهات ولراحة الرعايا كذلك في مصالحهم جميع الأوقات، فحصل إمتثال أوامره الكريمة وتنجيز مضمونها من المعاني الجسيمة، فصنعت المراكب من سائر الأشكال ونجزت في أقرب وقت على أتم الأحوال وكثر عددها وظهر نفعها ومددها، وتحصل منها في كل قطر وبلد ما يزيد عن الحصر والعدد، فمنها ما صنع وهيىء بمصر

ورفعت على الجمال بلا إصر وذهبوا بهـا إلى ثغـر السـويس[١] لعمـل البحـر وأشـغاله، فتمموها هناك سهلة كما سبق وصف مثاله وهـى مراكـب (ص١٧٢) عظيمـة تحمـل الغلال وسائر الأشياء من الأمتعة الثمينة، فعم النفـع بهـا هنـاك لزيادتهـا عـن مراكـب العامة في سابق الإشتراك، وأما التي صنعت بإسكندرية[٢] فهى مراكب بكل غرض وفيّه

---

[١] - فيما يتعلق بسفن محمد علي التي أرسلها لمحاربة الوهابيين، فقد بنـى في تسـعة أشـهر ترسـانة في بولاق -التي أنشأها في سنة ١٢٢٤هـ/١٨١٠م- ١٨١١ عدة سفن حمولة كل منهـا مـن ١٠٠ إلى ١٥٠ طن، وهى التي نقلت مفككة على ظهور الجمال إلى السويس في ربيـع أول سـنة ١٢٢٥هـ/ ابريل ١٨١٠م. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٠٢-١٠٣ ؛ شـكري: بنـاء دولـة، ص١٣٠-١٣١ ؛ الرافعي: عصر محمد علي، ص٣٦٣-٤٨٠ ؛

Georges Durand-Viel, Les Campagnes Navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim, Paris, 1937, Vol. I, 96-102.

[٢] - إشترى محمد علي البارجة الأمريكية المسماة واشنطن من مالطـة سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م مـع سفن تجارية عديدة، وبحلول سنة ١٨١٧م إكتمل له ٥٠ سفينة كبيرة، وفي سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٨م أمر ببناء ثلاث فرقاطات كبيرة بالإسكندرية، وفي سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢٣م كان له ٢٩ سفينة تحمل ٥٤٦ مدفعاً، ثم أصدر أمراً إلى باغوص بيـك الترجمـان في ٥ صفـر سـنة ١٢٤٣هـ/٢٨ اغسـطس ١٨٢٧م بطلب مهندسين فرنسيين ذوي خبرة من القنصل الفرنسي المسيو دروييتي لتأسـيس حـوض لإنشـاء السـفن بالإسـكندرية، ثـم إكتمـل لـه أنشـأ دار صناعـة الإسـكندرية في المحـرم سـنة ١٢٤٥هـ/يوليـو ١٨٢٩م حتـى سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م، وأحضر المهنـدس الفرنسـي Cerisy سـريزي لإدارتهـا. وذكـر بورنـج Bowring أن حالـة الأسـطول المصـري كـانت جيـدة، وأن الأسطول المصري لم يكن يختلف كثيراً عن أقـوى الأسـاطيل الأوروبيـة. أنظـر: كلـوت بـك:لمحة، ج٣، ص٢٣٦ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٧، ص٥٢ ؛ أمـين سـامي: تقويـم النيـل، ج٢، ص٣٢٩، ٣٤٩، ٣٦٦، ٣٨٣، ٣٨٦ ؛ شـكري: بنـاء دولـة، ص٤٨٤-٤٨٥ ؛ السـروجي: تـاريخ الإسكندرية، ص٣٦٤-٣٧٥ ؛

Georges Durand-Viel, Les Campagnes Navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim, Vol. II, 230-270; John Bowring, Report on Egypt and Candia, London, 1840, 53, 56-59; Georges Douin, Les Premieres Fregates de Mohamed Aly (1824-1827), Cairo, 1926.

منها مراكب الحرب الشهيرة وما بها من العساكر والميرة مشحونة بآلات الحرب والقتال، مملوءة بالجبخاناة وكل ما يلزم بوقت النزال، فله أيده ا لله من الغلايين العظام ما يسر الناظر ويشرح الصدر ويريح الخاطر.

والفرقطون[١] الذي أنشأه بإسكندرية، فقد إحتوى على كل معنى رقيق من الصناعة البهية، كامل المعاني محكم المباني متين إلى الغاية، جميل السير في اللحج، فإليه النهاية، به من آلات الحرب وعدد الطعن والضرب من البارود والمكاحل والبنب والمدفع الذي هو لصد العدوّ كافل، ثم إنه بعد تمامه وإحكامه وإنتظامه أرسله إلى جهة الإفرنج الإنكليز فصفحوه من سائر جوانبه بالنحاس[٢]، وخدموه بذلك إستجلاباً لخاطره نحوهم وطلباً للتودد إليه دون الناس، فأتموا (ص١٧٣) صناعة ذلك الفرقطون الكبير وبقى كل قابدان إليه بالعظم والإجلال يشير، وله غيره من المراكب الجليلة المقدار التي بلغت غاية الإكثار والإشتهار ما يقارب الستين، وأما النقاير والمعلي منها فشيء كثير والأمر فيه باد شهير.

وحاصل الأمر أن المراكب الحربية الكبار مع الأوساط والصغار بالسوية نحو مائة مستعدة كاملة الأدوات والعدة، فهى زينة للنظار وبهجة للأبصار وصادة للأعداء من الكفار، قولاً معروفاً بغير إنكار، وقد ظهر للعيان وإشتهر عند جميع العامة والأعيان ما صنعه من الهمة الكبيرة والقوة والحماسة الشهيرة من إرساله تلك المراكب مشحونة بالأبطال ملآنة بالذخائر من سائر المأكولات وأنواع الغلال والأرز والأسمان والزيتون

---

١ - **الفرقطون**: تحريف لكلمة فرقاطة، وهى كلمة إيطالية Fregata، وهو اسم طائر مائي سميت هذه السفينة بأسمه. طوبيا العنيسي: تفسير الألفاظ الدخيلة، ص٦، ٥١.

٢ - بنى محمد علي فرقاطة بالإسكندرية وهى التي أرسلها إلى لندن في ربيع أول سنة ١٢٢٥هـ/ ابريل ١٨١٠م وعادت إلى الإسكندرية في يناير ١٨١٢م وقد سلحت بثلاثين مدفعاً وأطلق عليها اسم افريقيا. أنظر: شكري: بناء دولة، ص١٣٢-١٣٣ ؛ Durand-Viel, 100-102.

والزيت والأجبان والبن وجميع ما يلزم في طول الأزمان مع البرود والجبخاناه ما كثر جداً وإزداد معناه، وتوجيه ذلك كله إلى مدائن إقليم الجريد (ص١٧٤) نحو كنديا[١] وخانيا[٢] وغيرهما حرصاً عليهم من كيد كل كافر عنيد، وذلك في وقت هيجان الروم وخروجهم ونقضهم طاعة الخليفة وشقاق علوجهم[٣]، فأرسل حضرة الصدر العلي صاحب العز والفخر الجلي أتباعه وأمراءه يصحبهم إشراقه[٤] حسن باشا طاهر عليه الرحمة والرضوان وأفيض على برزخه محاسن تلك المآثر ولم يزل حضرة الصدر العلي كل وقت ينجدهم بالرجال والذخائر ما لا يحصيه كتب ولا دفاتر ولو لم يكن منه

---

[١] - هي جزيرة كريت الحالية.

[٢] - أنظر: زينب راشد: كريت تحت الحكم المصري ١٨٣٠-١٨٤٠، القاهرة سنة ١٩٦٤.

[٣] - كتب هذا المخطوط سنة ١٢٣٨هـ/١٨٢١م، حيث يتضح أن الشيخ الرجبي لم تكن لديه معلومات كافية عن الحرب ضد اليونانيين التي كانت قد بدأت في نفس العام تقريباً أنظر عن بناء محمد علي لإسطوله بشراء سفن حربية من أوروبا وبناء أخرى بترسانة الإسكندرية، وعن حربه ضد اليونان:

Georges Durand-Viel, Les Campagnes Navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim.

[٤] - **إشراق:** جراك كلمة فارسية أدخلت إلى التركية ثم عربت بعد ذلك إلى "شراق" وتجمع "إشراقات". وتعني في الأصل التابع أو الخادم، ولكنها في التركية أصبحت تعني أيضاً الصبي أو المبتديء، أي الغلام في الحرفة تحت إشراف معلمه. وقد دفع ذلك بعض الباحثين إلى الإعتقاد بإن ذلك المصطلح عندما إستخدم في النظام المملوكي كان يعني المملوك الشاب، أو الغلام المملوك. غير أن الدمرداشي في الدرة المصانة قد إستخدم هذا المصطلح في العديد من المواقع كمرادف لمصطلح "تابع"، حيث يشير إلى أن أحد المماليك رقي إلى رتبة الصنجقية من سيد آخر غير الذي إشتراه، حيث يدين المملوك الذي رقي إلى مثل تلك الوظيفة أو غيرها من المناصب بالولاء للسيد الذي رفعه إلى المنصب المذكور. أنظر: الدمرداشي: الدرة المصانة، ص٤٦، ٢٢٨ ؛

Sir James Redhouse, Redhouse Yeni Turkce-Inglilizce Sozluk, Istanbul: Redhouse Yayinevi, 1968, 256 ;

أحمد السعيد سليمان: تأصيل، ص١٦-١٧ ؛

Ayalon, "Studies in al-Jabarti I," 321-322.

وفقه ا لله هذا الصنيع لتملك الكفار مدائن الجريد وحل بالمؤمنين هناك الهول الشديد، وكذلك فعل أيضاً بناحية جزيرة قبرس المعلومة، فأرسل هناك عساكره كما صنع بالجريد فهى من الكفار مأمونة فلله در ذلك الصدر كامل المجد عالي القدر، فقد أصرف على هذه المآثر ما لا يحصى من النقود الخارجة عن الحد لقمع كل عدو وكافر، فأطال ا لله بقاءه عريق الفخار ولا برح محوطاً بالعناية حامي الذمار. وقد خرجت عدة المراكب الآن البحرية الحربية والنيلاوية عن الحسبان، فإنها جاوزت الألوف (ص١٧٥) وهذا كله مشاهد ومعروف.

وأما ما أنشأه من الترع الكبار والصغار[١] لإصلاح القرى ومدائن الأمْصَار فهو شيء لا يعد وصنع محاسن آثاره لا تحد، ففي كل جهة وقطر تفصح فيه آثاره بالحمد والشكر، بحيث أن العاقل اللبيب والذكيّ الفطن الأريب إذا أراد تقريب ما صرف على ذلك من الأموال داخله الدهش وحل بفكره إضطراب وظن أنه في خيال وداخله العجب المفرط، فيرجع عن الحساب وييأس ويقنط.

وأما ما أحدثه من الديار بمصر وبغيرها من مداينها الأمصار فشيء لا يقدر عليه سواه ولا يخطر بسر عظيم فيما ظنه ونواه، لأنها عمّائر بالمحاسن مصوّرة ومباني تقرب الأماني بإتقان الهندسَة محررة، تعجز عن مثلها أرباب الهمم ولا تحوم حول حمى مقاربتها عظما الأمم، والعيان أعظم شاهد يجعل المعاند مقراً بالعجز فلا يوجد له جاحد، وقد إتفق للسلطان الظاهر بيبرس البندقداري أنه بنى القناطر المعروفة (ص١٧٦) عند نهر أبي المنجا[٢] فله بها ذكر جميل إلى وقتنا هذا، مع إنك إذا تتبعت ما أنشأه حضرة الصدر العلي من القناطر المفردة المتعددة، فإنك تراه شيأً كثيراً وأمراً

---

[١] – علي باشا مبارك: الخطط، ج١٩ ؛ علي شافعي: أعمال المنافع، ص٢٣-٣٤.

[٢] – **قناطر أبي المنجا:** تقع إلى الشمال من القاهرة، أنشأها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، ثم جددها السلطان قايتباي في نهاية القرن ٩هـ/١٥م. المقريزي الخطط، ج٢، ص١٥١؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٣٣٠ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٩، ص٤٦.

كبيراً ولا سيما ما صنعه من القناطر المتصل ماؤها بما بحر يوسف في قصر الفيوم[١] فإنها قناطر تشرح الصدر وتجلي الغموم، محكمة البناء بادية المتانة والإعتناء، وهذا إجمال سببه العجز عن التفصيل، وكيف يفصل ما لا يحد ولا يدرك له مثيل.

وأما ما أنشأه من الأقاليم، فمن ذلك إحياؤه لإقليم البحيرة بعد إندراسه وخراب معظم بلاده سوى السواحل وإنطماسه، فلأن يقال أنشأه وأحياه أولى من أن يعبر بأنه جدده وأعاد مفناه، فقد كانت بلاد الحاجر بهذا الإقليم نقضت آثارها وهي الشهيرة سابقاً بالتعظيم، فإنه إقليم عديم[٢] النظير حوى كل مرج ومنزه نضير، جددت به الترع والمساقي وكثرت فيه البسَاتين والسواقي، وصار جلاء للأذهان وراحة من كلال الأبدان.

وأما إحياؤه لما لم يكن له سَابق ذكر (ص١٧٧) ولا خطر ببال ولا مرّ بفكر فذلك إنشاؤه لإقليم رأس الوادي[٣] حتى صار منزهاً للرائح والغادي، فجر به السواقي العذبة فكمل بذلك حّن تلك الأرض والتربة، قسمه أقساماً وأتقنه إنتظاماً وجعل كل جماعة

---

[١] – هذه القناطر كانت في الأصل من عمل السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ثم جددها محمد علي سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م وبنى قنطرة أخرى إلى الشرق منها سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م. علي مبارك: الخطط، ج١٩، ص١٣٥.

[٢] – في نسخة [دار الكتب] "عظيم".

[٣] – **اقليم رأس الوادي**: هو ببلبيس من إقليم الشرقية، عاينه محمد علي في أواخر سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م لعمل مزارع لإشجار التوت لتربية دودة القز، وأشجار الزيتون لعمل الصابون من زيوته، وأمر بحفر نحو الألف ساقية، وتم عمل مساكن وإستصلاح هذه الأراضي، وإكتملت السواقي في ربيع ثان سنة ١٢٣٢هـ/فبراير ١٨١٧م، ونُقل إليه الفلاحين المعدمين بإقليم الشرقية للإستيطان به وزراعته وتعلم تربية دودة القز وصناعة الحرير، وأحضر متخصصين في ذلك من الشام لتعليمهم، وإكتمل إستصلاح أراضيها وزرع أشجار التوت لإستخراج الحرير على طريقة أهل الشام وجبل الدروز، وكان كل ذلك تحت إشراف محمد علي المباشر. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٥٦، ٢٧٤، ٢٨١، ٣٠٨ ؛ شكري: بناء دولة، ص٤١٥ ؛ ريلفين: الاقتصاد، ص٢٤٢.

من المنازل والدور مختصين بأرض للزارعة بها السواقي[1] تدور، وغرس به أنواع الأشجار المثمرة بمحاسن أشكال الثمار[2]، فإشتهر وظهر وعلى غيره من الأقاليم إفتخر، فهو الزاهي بأصناف الزهَر الباهي منظره حيث إنه للفكر بهر[3]، تنوعت فيه اللطائف وإنشرح به صدر كل سائر وطائف عمرت أوطانه وغمرت بالخيرات قطانه، كثر به الخصب وحسن المعاش وسكن بسكناه إضطراب الجاش كله مَنَازه ومروج ومن دخله لا يحدث نفسه بالخروج رقصت أغصانه وتلاعبت بالصبا أفنانه، أزهرت بساتينه وأينعت بالثمر العجيب أعنابه وتينه سجعت حمائِمه وتفتحت عن الزهر كمائِمه، كثرت سكان جهاته وإستأنست بلطائف منتزهاته وقد بنيت فيه المدينة (ص١٧٨) الأمينة المستكملة لكل حسن وزينه، عمرت أسواقها بالمتاجر من كل شيء نفيس فاخر، وإنتظمت دورها وعلت قصورها وإنضمت مساكنها مع الإتساع، وجمع بها نفائس الصنائع وجهابذة الصناع[4].

ومن لطائفها العديمة النظير إحداثه أيده الله بها صناعة الحرير، أسكن في محلات بها جليلة صناع الحرير وأرباب الخبرة بهذه الفضيلة، فكثر الحرير بأرض مصر وقطرها[5]، كما إمتلأت بلاده من أشجار قطنها، وهذا بأمره المطاع لكافة الناس في

---

[1] – كانت تصنع هذه السواقي الخشبية بالقاهرة ببيت الجبجي بالتبانة (هو بيت الرزاز، أثر رقم ٢٣٥)، ثم تنقل على ظهور الجمال إلى هناك. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٥٦، ٢٧٤.

[2] – جلب هذه النباتات من مناطق مختلفة من العالم، وجلب معها أناس من أهلها لتعليم الفلاحين كيفية زراعتها. شكري: بناء دولة، ص٤٢٧-٤٢٩.

[3] – في نسخة [دار الكتب] "بهَى".

[4] – هى مدينة الزقازيق الحالية، ولازال بها جامع له بجوار قناطر التسعة التي بناها لتنظيم الري بهذا الإقليم. علي مبارك: الخطط، ج١١، ص٩٣-٩٤ ؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي، ق٢، ج١، ص٢٤، ٨٩-٩٢.

[5] – **صناعة الحرير**: حاول محمد علي أن ينشيء صناعة الحرير بمصر بإعطاء توجيهات بزراعة أشجار التوت في كل الأقاليم، فأمر محمد علي سنة ١٢٣١هـ/١٨١٥-١٨١٦م بانشاء بستان

القرى والبلاد والبقاع أن يغرسوا شجر القطن الهندي[١]، فبادر الكل وهو للطاعة مبادر ومبديء وجلبت من هذا الأقليم إلى مصر أنواع الفواكه والثمار، وهذا كله من تمام

برأس الوادي ببلبيس وغرس أشجار التوت لتربية دود القز، وذكر بورنج Bowring أنه زرع عشرة آلاف فدان من أشجار التوت، كما أمر بإحضار شوام وأتراك لتعليم الفلاحين المصريين أسرار صناعة حرير دودة القز، أصدر أيضاً أمراً في ٧ شعبان ١٢٣٣هـ/١٢ يونيو ١٨١٨م بتأسيس وتنظيم مصلحة الأنوال والغزل في سائر الأقاليم، وأصدر أمراً في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٣٦هـ/٢١ ديسمبر ١٨٢٠م بتأسيس أماكن لتربية دودة القز بالقطر المصري، واحضار ما يلزم لصناعة الحرير، وأمر باستدعاء الفلاحين من بلاد الشرقية الذين ليس لهم أطيان ولا عمل ليستوطنوا هذه الجهة وأن تبنى لهم كفورا لسكنهم لزراعة هذه المنطقة، ثم أصدر أمر في ٨ جماد ثان ١٢٣٦هـ/١٣ مارس ١٨٢١م بمنع الأهالي عموماً من تشغيل أنوال الغزل والدبارة. وقد أنتجت هذه التجربة ٧ مليون أقة سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١-١٨٣٢م، غير أنها لم تكن حتى كافية لتغطية الإحتياجات المحلية، كما أن تكاليف إنتاجها في مصر لم تستطع منافسة نفس المنتج ذو التكلفة المنخفضة والمصنوع في سوريا. وقد إنتهى إحتكاره لصناعة الحرير في مصر في رمضان سنة ١٢٥١هـ/ديسمبر ١٨٣٥م، وأيضاً في سوريا بعد ذلك بوقت قصير، وبحلول سنة ١٢٥٥هـ/١٨٤٠م كان قد تخلى عن تجربة إنتاج الحرير. وقد إنتقد Bowring سياسة محمد علي الصناعية ذات التكاليف الباهظة، وأنه كان من الأكثر نفعاً توجيه تلك العمالة إلى الزراعة، وقد لاحظ Bowring أيضاً أن التوجه الرأسمالي في سياسة محمد علي الزراعية، وإن كان قد زاد من محصول الأرض الزراعية إلا أن الفلاح لم يستفد من ذلك على الإطلاق. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٧، ص٣٦٧، ٣٦٨، ٤٠٠-٤٠١، ٤٦٥ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٦٤، ٢٩٠.؛ عمر طوسون: الصنائع والمداس، ص١٠؛ شكري: بناء دولة، ص٤١٦ ؛

Rivlin, The Agricultural Policy of Muhammad ‘Ali in Egypt, 165-166; Bowring, Report on Egypt and Candia, 21, 30, 145-146.

[١] - **القطن الهندي:** كانت المنتجات المصنوعة من القطن الهندي معروفة في مصر منذ أمد بعيد، حيث كانت تصلها عبر طرق التجارة العديدة المارة بالبحر الأحمر، وكان شجر القطن طويل التيلة في مصر من أشجار الزينة، وإكتشف في حديقة منزل محو بيك بحارة عابدين وعممت زراعته، وأنشأ في جميع أنحاء مصر مصانع لنسج القطن تحت اشراف جومل وأخذ صناع المصانع الأهلية

السداد وإستقامة العمار. وبالجملة فهذا الأقليم يحتاج تفصيل شرحه لكتاب يخصه يقص فيه خبره ويفصله وينصه، وهذه النبذة قطرة من وابل وبلالة من منهمر سيل هامل، فهو من المآثر الكبيرة المفصح عن الهمم الشهيرة، فأطال (ص١٧٩) الله بقاء ذلك الصدر وأيده بالتأييد سامي القدر، وقد كان هذا الوادي في سابق الزمن قلّ أن يمر به أحد وينجو من المحن لإجتماع الأعراب هناك من كل فاجر وفتاك، وكثيراً ما إنقطعت المارة من طريقه لإضرار السائر منه بعوائق تعويقه، وطالما قتلت فيه الرجال وضاق فيه على السفار المجال، وكم نهبت هناك القوافل وهزمت بالحرب فيه كبراء المحافل، وكان الحاكم بإقليم الشرقية لا يقدر على المرور به ولو كثرت رجاله وكانت شوكته قوية، حتى أن محمد بيك الألفي[١] نذر على نفسه المرور به ثم أراد أنه بالنذر

للعمل بالمصانع الجديدة، وكان نتيجة ذلك عدم استيراد المنسوجات من أوروبا والهند، بل وأخذ في تصدير المنسوجات، وأصدر أمراً في ٤ شوال سنة ١٢٢٣هـ/٧ أغسطس ١٨١٨م لكاشف الغربية للاشراف على أعمال غزل الأقمشة وتنظيم ورش لها. أنظر: الأوامر والمكاتبات الصادرة من محمد علي باشا، مج١، ص١٩ ؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج٧، ص٣٦٩ ؛ علي مبارك: الخطط، ج١٠، ص٥٤، ج١١، ص٢٣، ٩٥، ج١٢، ص١٤٧، ج١٤، ص١١٥، ١٢١، ج١٥، ص٩١، ٩٢، ج١٦، ص٥٥ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٥٨، ٢٨٢، ٢٨٤ ؛ شكري: بناء دولة، ص٣٨.

[١] - **محمد بيك الألفي**: إشتراه أحمد جاويش المعروف بالمجنون سنة ١١٨٩هـ/١٧٧٥-١٧٧٦م، ثم باعه لسليم أغا الغزاوي المعروف بتمرلنك الذي أهداه لمراد بيك، فأعطاه في المقابل ألف أردب من الغلال لذلك سمي بالألفي، أحبه مراد بيك وجعله جوخداره ثم أعتقه وجعله كاشفاً بإقليم الشرقية، وأنشأ محمد بيك داراً وحماماً له في خط الشيخ ظلام في تلك الفترة، ثم نفاه مراد بيك إلى الوجه البحري، فعسف بأهالي فوة وبرنبال ورشيد وما جاورها وأخذ منهم الأموال، ثم قلد الصنجقية في سنة ١١٩٢هـ/١٧٧٨م، وكان يخافه الناس لفجره هو ومماليكه، وهدم داره القديمة ووسعها، وإشترى المماليك وقلدهم الإمارة والكشوفية، وإلتزم بإقطاع فرشوط وما جاورها بالوجه القبلي، وتقلد كشوفية الشرقية وأخضع عربانها، ثم طرد مع باقي المماليك إلى الوجه القبلي عند حضور حسن باشا الجزار إلى مصر سنة ١٢٠٠هـ/١٧٨٥م ثم رجعوا ثانية سنة ١٢٠٦هـ/

١٧٩٢م، وإهتم في تلك المدة بكتب الفلك والعلوم وإنعزل ببيته، وعمر قصراً بمصر القديمة أمام مقياس النيل، وقصراً أخر شمال باب النصر بالقرب من قبة الدمرداش، كما بنى قصراً خارج بلبيس، وصنع قصراً من الخشب ليسكنه عند تنقله بين البلاد، وأخضع عربان الشرق كلهم له، وبدأ في إنشاء قصره بالأزبكية سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م وسكن بها في أخر شعبان ١٢١٢هـ/يناير ١٧٩٨م لمدة ١٦ يوماً ثم سافر إلى الشرقية، وجاءت الحملة الفرنسية في ١٨ محرم سنة ١٢١٣هـ/١ يوليو ١٧٩٨م وإشترك في مقاومتها وسكن نابليون داره المذكورة، وإستمر في مقاومتهم ولم يستطع الفرنسيون إصطياده حتى جلاء الحملة، ولم يتفق مع مراد بيك في صلحه مع الفرنسيين في البداية، وخرج مع الجيش العثماني إلى الشام ثم رجع عند خروج الحملة معهم بالتعاون مع الإنجليز، وولاه الصدر الأعظم يوسف ضيا باشا إمارة الصعيد في سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م ثم أخرجوا له جيشاً بقيادة طاهر باشا لمحاربته، ثم ذهب إلى البحيرة وإتصل بالإنجليز بالإسكندرية لمساعدته لدى الدولة العثمانية، ولم يستطع خسرو باشا مقاومته وكان ذلك سبباً لخروج العساكر على خسرو وهروبه من القاهرة، ثم سافر إلى انجلترا عند خروج الجيش الإنجليزي من مصر في ١٥ شوال ١٢١٧هـ/٨ فبراير ١٨٠٣م بناء على طلب أمراء المماليك، وطلبه الذي إستحسنه الإنجليز لتمتع الألفي بإحترام المماليك والعربان مما سيتيح له التمثيل القوي في لندن، ونجح في إقناع الملك جورج الثالث في التدخل لدى الباب العالي لإرجاع سلطة الأمراء المماليك كما كانت قبل دخول الفرنسيين إلى مصر، وعاد في ١ ذي القعدة ١٢١٨هـ/١٢ فبراير ١٨٠٤م إلى مصر عن طريق أدكو على متن السفينة الحربية الإنجليزية أراجو بقيادة الكابتن هالويل، وقد حاول عثمان بيك البرديسي وإبراهيم بيك بالتحالف مع محمد علي التخلص منه، لأنه قبل سفره أخذ صكاً مختوماً من جميع الأمراء أنه إذا حضر سالماً يكون هو المتقدم على جميع الأمراء بمصر، فإختفى عند العربان بالشرقية حتى جمع رجاله وبدأ في مقاومة العثمانيين وإنعزل عن باقي المماليك رغم تدخل عثمان بيك حسن في الصلح بينهم، ولكن الخلافات بين المماليك إستمرت، وأرسل له كل من خورشيد أحمد باشا ومحمد علي لمفاوضته على الصلح على أن تكون له ولاية جرجا ويكون لعثمان بيك حسن قنا، ليكونا معهما ضد إبراهيم بيك وعثمان بيك البرديسي، ثم أرسل خورشيد ومحمد علي عدة تجريدات لمحاربته ولكنهما لم ينجحا في هزيمته مرة واحدة، وكان مركزه في هذا الوقت في الفيوم مع عثمان بيك حسن، ثم وحده في منطقة البحيرة وخاصة حول دمنهور التي حاصرها مدة طويلة، وكان يسعى لدى الصدر الأعظم محمد باشا السلحدار مملوك

يفي فإجتمع معه من المماليك والكشاف والمغاربة[١] وطوائف الحاكم والكثير من كبار المشايخ من الأرياف حتى بلغت المماليك مع الكشاف والأغوات الصقلية[٢] ما يقارب

السلطان مصطفى -الذي كان يريد إستقرار ولاية مصر- والإنجليز الذين يريدون الإستيلاء على الإسكندرية خوفاً من عودة الفرنسيين لإعادة سلطة المماليك وعزل محمد علي، ونجحت مساعيه بالفعل ووصل أسطول عثماني بقيادة صالح باشا القبودان إلى إسكندرية في ١٠ ربيع ثان ١٢٢١هـ/٢٧ يونيو ١٨٠٦م يحمل رسالة الى محمد بيك الألفي تتضمن عفو الدولة العثمانية عن الأمراء المماليك وعزل محمد علي عن مصر وتولية موسى باشا على أن يدفع أمراء المماليك مبلغ من المال، ولكن حقد أمراء المماليك وتدخل محمد علي بينهم أفسد المشروع ورجع الأسطول العثماني وإستمر محمد علي في الحكم، فراسل الإنجليز لمساعدته بجيش للتغلب على محمد علي، ولكنه ما لبس أن توفى عند الجيزة في ١٩ ذي القعدة ١٢٢١هـ/ ٢٨ يناير ١٨٠٧م ودفن بمقابر الشهداء بالبهنسا قبل مجيء الحملة الإنجليزية بأربعين يوماً. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص٨٣، ج٣، ص٢٦٥، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٨٠-٢٨٢، ٢٨٦، ج٤، ص١٠-١٧، ٢٦-٤٢ ؛ نقولا ترك: مذكرات، ص١٥٨، ١٦٩، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧-١٨٠، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٣-٢٠٤، ٢٠٩-٢١٠ ؛ كلوت بك: لمحة، ج٢، ص٦٣، ٦٤ ؛

Georges Douin, "L'Ambassade d'Elfi Bey à Londres (Octobre-Décembre 1803)," Bulletin de l'Institut d' Egypte, VII, (1925), 95-120.

وأنظر أيضاً: أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٠١-٢٠٣ ؛ شكري: الحملة الفرنسية، ص٢٧٣-٢٧٤، ٢٧٨ ؛ شكري: مصر في مطلع القرن ١٩، ج١، ص١٣، ٤٧، ١٢٩-١٣٠، ١٣١-١٣٢، ١٤١-١٤٢، ١٤٤-١٥٠، ١٦٢-١٦٣، ١٦٦، ١٨٠، ١٩٢، ٢٢٤-٢٢٩، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٧٤-٢٨٣، ٢٩٢-٢٩٦، ٣١٣، ٣٢٥-٣٢٦، ٣٣٠، ٣٣٢-٣٣٤، ج٢، ص٣٣٧، ٣٣٨، ٣٩١-٣٩٣، ٣٩٦-٤٩٦، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٩١، ٦٠٥، ٦٣١.

١ - **المغاربة**: كانت بمصر طائفة كبيرة من المغاربة، ولمدة طويلة كان المماليك يستخدمون جماعات منهم لتعزيز قواتهم العسكرية. وقد أشار الجبرتي في مواضع عديدة من تاريخه إلى هؤلاء الجنود المرتزقة.

الألفين في تلك البرية، والطوائف والشجعان من المغاربة وفرسان تلك البلدان ما يفوق عدده ويزيد على ثلاثة آلاف إنسان، ومعه الطبجية (ص١٨٠) بالمدافع والجبخانة وكل كمي مدافع حتى كملت أتباعه نحو ستة آلاف، ثم طلب المرور فمنعه من هناك الأعراب الأجلاف، وكان قد بلغهم أنه يريد عدد سواقيهم وأخذ الأموال بصورة لا ترضيهم عن مساقيهم، فأرسل إليهم الوسائط من أجناده العقلاء يحلفون لهم إنه لا يريد غلالاً[١] ولا مالاً ولا ولا، بل غرضه المرور للتفرج لا غير، ولا يكون بينه وبينهم غم ولا ضير، [وليُقَالَ أن البيك مرّ من هناك بأجناده][٢] فيكون له بذلك الفخر، وأنه عظيم في إستعداده، وصارت الوسائط تارة تخدعهم وتارة بالخوف منه تردعهم، ويهولون لهم كثرة عساكره ويكبرون في صدورهم صولة مناكره، ويجعلون في أغصان الكلام إنه يريد إعطاء كبارهم الكساوى الجليلة ويعمهم بأصناف برّه الجميلة، ومازلوا بهم حتى أجابوا بشرط السرعة في السير، فقالوا لهم نمرّ مرور الطير، فتنحت الأعراب من الجهتين ووقفوا بمقدار نظر العين وبقيت منهم بعض كبارهم ليسيرون معه بجوارهم، ثم أرسلت (ص١٨١) الوسائط بهذا الخبر، فركب بالعرضي وبالوادي عبر وسار والمدافع مستحضرة على العجل، ومشت الطبجية بها تجاه العساكر على عجل، وإستحضرت جميع المماليك مستعدة بالسلاح وكذلك الكشاف وسائر الأجناد مستعدين للكفاح، وذلك خوفاً من غدر الأعراب، إذ ربما وقع منهم خلاف الصواب، ومازالوا هكذا سائرين حتى وفى بنذره بالحدس والتخمين، ثم رجع إلى

---

٢ – **الأغوات الصقلية:** يبدو أنهم قواد وحدة من القوات الخاصة من بين العديد من الطوائف العسكرية في تلك الفترة المضطربة، إذ يشير الجبرتي إليهم كأحدى الطوائف العسكرية ذات القواويق وتظهر في مواكب الباشا. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص١٧٧.

١ – في نسخة [دار الكتب] "غلاّ".

٢ – ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [دار الكتب] في الهامش الأيمن للصفحة ومشار إليه في النص برقم "٣".

مصر وقد أرتفع عمن معه ما كان يظنه من الإصر، أمر أتباعه أن يشيعوا خبر مروره من الوادي وإنه كان عنوة وقهراً على رغم سكان تلك البوادي، وإنه أخذ الأموال الكثيرة وتقادم الإبل والخيول النفيسة الشهيرة، فكان يقال بمصر أن البيك الألفي حكم على عربان الوادي وعبر ومكث الأيام بذلك النادي، وما هو إلا ما ذكرته ورقمته، كما صرح به ثقاة النقلة منهم حين سألته[١].

فأنظر أيها المتأمل في هذا الكتاب إلى هذا الفخر من ذلك الرجل بالمين والإرتياب، وكيف لا يخجل من الكذب مع أولئك (ص١٨٢) الآلاف وهم مشاهدون لما كان من الأعراب الأجلاف، أيفتخر عاقل بذلك، أقول لا ولا بإقل ما يعجبه ما هنالك، وأين هذا من مملوك حضرة الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي وهو إنه من بعض

---

[١] - لم يذكر الجبرتي مثل هذه الحادثة، وعن محمد بيك الألفي بالذات، الذي حالفه عربان أولاد علي والهناد وعربان الشرق في حروبه مع الباشاوات العثمانيين حتى محمد علي، وقال عنه الجبرتي "ومن عجيب أمره ومناقبه التي إنفرد بها عن غيره إمتثال جميع قبائل العربان الكائنين بالقطر المصري لأمره، وتسخيرهم وطاعتهم له لا يخالفونه في شيء، وكان له معهم سياسة غريبة ومعرفة بأحوالهم وطباعهم، فكأنما هو مربي فيهم أو ابن خليفتهم أو ساحب رسالتهم يقومون ويقعدون لأمره مع إنه يصادرهم في أموالهم وجمالهم ومواشيهم ويحبسهم ويطلقهم ويقتل منهم، ومع ذلك لا ينفرون منه، وقد تزوج كثيراً من بناتهم .. فلما بلغ العرب موته إجتمعت بنات العرب وصرن يندبنه .. والعجب منه رحمه الله إنه لما كان في دولتهم السابقة وينزل في كل سنة إلى شرقية بلبيس ويتحكم في عربانها ويسومهم سوء العذاب بالقبض عليهم ووضعهم في الزناجير ويتعاون على البعض منهم بالبعض الآخر ويأخذ منهم الأموال والخيول والأباعر والأغنام ويفرض عليهم الفرض الزائدة ويمنعهم من التسلط على فلاحي البلاد، ثم لما رجع من بلاد الإنجليز وتعصب عليه البرديسي والعسكر وأحاطوا به من كل جانب فإختفى منهم وهرب إلى الوادي عند عشيبة البدوي فآواه وأخفاه وكتم أمره .. وهذا من العجائب، حتى كان كثير من الناس يقولون إنه يسحرهم أو معه سر يسخرهم به، فلما مات لم يجتمعوا على أحد بعده وذهبوا إلى أماكنهم، وبعضهم طلب من الباشا الأمان". الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٣٧، ٣٩.

مأموراته، وما إتفق له في وقت من أوقاته أن جزم علـى مملوكـه حسـن بيـك[١] بالسـير حتى يخرج عن المزارع والأيـك ويجـاوز إقليـم البحـيرة يسـير جهـة الغـرب إلى مدينـة بسيوى[٢] الشهيرة فإن أجابوا إلى السلم فإجنح لها وإلا فخذها عنوة، وها قـد أنفذتـك لها فبادر مسرعاً، وسار بجيشه متتابعاً وكانت أجناده المماليك وغيرهم نحو الخمسـمائة رجل جميعهم وإنضم إليه من أعراب[٣] من البحيرة[٤] ما يتم الألف أو زيادة يسيرة، حتى

---

[١] – **حسن بيك الشماشرجي:** أحد أتباع محمد علي باشا، وزوج ابنة سـليم كاشـف الأسـيوطي، زوجه بها محمد علي في نهاية شعبان ١٢٢٠هـ/مايو ١٨٠٥م، جمع له محمد علي جيشاً مـن عـرب الحويطات والعائد والأرنؤد، أمضى معظم فترته في تسليم (تهدئة) أعراب غرب الدلتا وخاصة أولاد علي، عين في رجب ١٢٢٤هـ/أغسـطس ١٨٠٩م كاشـفاً للمنوفيـة، ثـم حكـم إقليـم الفيـوم سـنة ١٢٣١-١٢٣٢هـ/١٨١٥-١٨١٦م، وصرف عنه حيث أرسله الباشا لمحاربة قبـائل أولاد علـي في دارنه في صفر ١٢٣٢هـ/ديسمبر- يناير ١٨١٦م، فحاربهم عند سيوة وهزمه الخارجين عن الطاعـة وإنسحب إلى مصر وأخذ جيشاً أخر بالإضافة إلى الطائعين مـن أولاد علي وذهـب إلى سـيوة مـرة أخرى في جماد أول سنة ١٢٣٥هـ/فبراير-مارس ١٨٢٠م وهزم باقي أولاد علـي بمساعدة العربـان وإستولى على سيوة، كما كان حسن بيك الشماشرجي حاكماً لولايـة البحـيرة. أنظر: الجـبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٣٤٦ ؛ ج٤، ص٧-٨، ٨٢، ١٠٠، ١٥٠، ٢٦٩، ٢٧٢، ٢٧٣-٢٧٤، ٣٠٧، ٣٠٨.

[٢] – **سيوة:** تقع غربي الفيوم، اسمها القديم سَنْترِيَّة، وقال عنها ياقوت أنها آخر أعمال مصـر وتعـد من نواحي واح الثالثة، وهي قصبتها، وقال عنها ابن الجيعان أنهـا غربـي الإسـكندرية، وذكـر ابـن دقماق أنها من أيام الفراعنة وانها خربت بمرور الزمن ثم بُـني مكانهـا حصنـاً. كـانت تسـمى عنـد الفراعنة واحة أمون لوجود معبد له بها، ثم عرفت أيام البطالسة بواحة جوبيتير (أي المشـترى)، ثـم عرفت باسم سيوة في القرن ١١هـ/١٧م. محمد رمزي: القاموس، ق٢، ج٤، ص٢٥٨.

[٣] – في نسخة [دار الكتب] "الأعراب".

[٤] – **عرب البحيرة** (العربان): ظل عرب البحيرة مصدراً مستمر لإثـارة القلاقـل ضـد هيمنـة محمـد علي على كل الأقاليم المصرية، وبينما سالمته بعض قبائل الأعراب مثل هنـادي وأولاد جهينـة، ظـل

قرب من أرض سيوى ونزل هناك للراحة والإيواء، وقد بلغ أهـل مدينـة سـيوى الخـبر فكل منهم تأجج حمقاً وإستعر وإستحضروا كمـا أخـبرني بذلـك المخـبر بإسكندرية وإجتمعوا بنحو سبعين ألف مكحلة بارود رجالاً سوية، فراسلهم البيك فما أجابوا بل إستعدوا له وما ثابوا، (ص١٨٣) فقام على ظهر جواده كـالليث الطـالب للفريسـة في طراده، وأمر أجناده وحمل فحملوا معه حملة منكرة، فولوا من تجاههم كحمر مستنفرة فرّت من قسورة، مع أن الطريق كله نخيل لا يحصى ومتداخل مـع بعضـه فمـا أجـدى لتلك الآلاف حرصاً، وما زال البيك حتى وصل إلى البلد وأمنهم فأجابوا ممتثلـين ومـا أحد شرد[١]، وهذا لعمري هو الفخار بعينه لا ما فعله الألفي بكثرة مينه.

هذا فعل بعض مماليك حضرة الصـدر العلي ذي العزّ والفخـر الجلـي فـإن أولئـك الرجال أهل سيوى مع كـثرتهم وقـوة عزمهـم وشـهرة شـجاعتهم قـد وقفـوا بخـلال النخيل المشتبكة وهى لهم حصن وظلالها عليهم محتبكة مستعدون بـأرضهم مزدحمـون من الكثرة في طولهم وعرضهم، والطريـق هنـاك صعبـة السـلوك علـى الداخـل لكـثرة النخيلّ التي لا تحصى بتلك المداخـل والمسـافة بينهـا وبـين مصـر بعيـدة السـير بخـلاف الوادي الذي دخله الألفي مع الخوف من الضير لا يحجزه (ص١٨٤) نخيل عن العبـور ولا يعيقه صعوبة الأرض في المرور مع كونه أقرب لمصر من سـيوى بكثـير، بحيـث لـو إحتاج لنجدة فإنها تدركه في الزمن اليسير، ومع ذلك فما دخله إلا بالخداع والحيلـة، ولم يصادف فيه من النفع ما يوازي فتيله، بل هو الذي أعطى كبار الأعـراب الملابـس والأموال لإجل أن يقال إنه حكم في الوادي بالزور والمحال. وهذا حسـن بيـك مملـوك حضرة الصدر العلي ما صنع سوى الجد بعزمه الجلي، وجاء مـن تلـك الجهـات بمـا لا يحصى من الأبل والشاء، فا لله يؤيد بنصره ويحف بتأييده من يشاء.

أولاد علي بصفة خاصة مصدراً للمتاعب، وقد أرسل إليهم العديد مـن الحمـلات الـتي قـاد بعضهـا حسن بيك الشماشرجي.

[١] – أنظر ما ذكره الجبرتي عن هذه الحادثة. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٧٣-٢٧٤.

وبالجملة فهذا الإقليم المعروف برأس الوادي صار من ألطف الأقاليم وأخصبها وأكثرها أمناً بعد أن كان مملوأ بفجار البوادي عمته المحاسن وجرى ماؤه المعين غير آسن، ولقد صدق القائل شعراً

وإذا نظرت إلى البقاع وجدتها	تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

المقالة السَّابَعْة

في الشأن الأكبر والتدبير الباهي الأبهر في ذكر (ص١٨٥) إختراع حضرة أفندينا للعساكر الجهادية وما في ذلك من جليل الحزم وعظيم المزية

إعلم أيها الناظر في هذا المرقوم العارف بقضايا المنطوق والمفهوم أن الملة المحمدية أشرف الملل قد شرفها الله وصانها عن مواطن الزلل لا يضاهي شعارها ولا يضطرب منارها ولا يطفأ نورها ولا تغرب شموسها ولا تأفل بدورها، ومن المعلوم أن لها قوانين وشروطاً ولكل شرط وقانون حداً مضبوطاً، ولها أركان معلومة مقررة مفهومة، ولكل ذلك أساس كبير واصل محقق بغير نكير لا بد لها من وجوده مستديماً إما بالفعل وإما بالقوة تنويها برفعة قدرها وتكريماً واجب أن يدوم إحكامه ومتحتم شرعاً أن تتبين للعيان أحكامه وحكامه، وهو الجهاد في الكفار وفي معشر الطغاة من البغاة والفجار ونحو فرق الخوارج الضالين وجميع المفسدين في الأرض من الفاسقين، لا بد من إقامة هذا الأمر وإلا تسلط زيد على عمرو، ولا يمكن (ص١٨٦) إهماله في ساير الأوقات تارة بالفعل وتارة بوجود الإستعدادات، قال تعالى "وجاهدوا في الله حق جهاده"[١]، أمر بهذا محمداً وكافه القادر من عباده، وقال تعالى "وأعدوا لهم ما

[١] - سورة الحج، آية رقم ٧٨.

إستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ ا لله وعدوكـم"[١]، وقـال جـل وعـزّ "إن ا لله يحب الذين يقاتلون في سـبيله صفـاً كـإنهم بنيـان مرصـوص"[٢]، وقـال تبـارك وتعالى "إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بـإذن ا لله وا لله مـع الصـابرين"[٣]، وقـال جـل اسمـه "إن ا لله إشـترى مـن المؤمنـين أنفســهم وأموالهم بإن لهم الجنة يقاتلون في سبيل ا لله فَيقْتلون ويُقْتَلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من ا لله فإستبشروا ببيعكم الذي بـايعتم بـه وذلـك هو الفوز العظيم"[٤] [صدق ا لله العظيم][٥].

فأنظر أيها الموفق لمفهوم هذه الآية الشريفة العظيمة وما تضمنته مـن الأمـر العظيـم والخير النفيس الجسيم، فإنه سبحانه قد إشترى نفس المجاهد في سبيله المخلص في أمـور دينه بقاله (ص١٨٧) وقيله بثمن عظيم وهو جنة النعيم، فجعل الجنـة ملكـاً للمجـاهد يمتع بنعيمها الدائـم ولِذَاتِـه الأقـدس علـى الـدوام يشـاهد، متملكـاً للحـوار والولـدان متصرفاً في كل ذلك أينما كان في مقابلة بذل نفسه وإذهابها في سبيله قدوماً لرمسـه، فلا يزال المؤمن يقاتل ويَقْتُل حتى يُقْتَل فيربح بالنصيب الأوفر والجزاء الأجزل، وإلـتزم سبحانه وتعالى بذلك وأكد على ذاته الكريمة الوفاء بما هنالك، فقال "وعداً" أي ذلـك الثمن الذي هو "الجنة" جعله "وعداً عليه حقاً"، أي لا يمكن تخلفـه بوجـه أصـلاً فهـم متحققون بتملك الجنة، فيالها من المالك أعظم عطية وأسنى منـه، وذلـك الوعـد الحـق الذي لا شبهة فيه مذكور على لسان رسوله وكليمه موسى في التـوراة، وعلـى لسـان عبده ورسوله وكلمته عيسى في الإنجيل، وعلـى لسَـان حبيبـه وعبـده ورسـوله محمـد

---

[١] – سورة الأنفال، آية رقم ٦٠.

[٢] – سورة الصف، آية رقم ٤.

[٣] – سورة الأنفال، آية رقم٦٦.

[٤] – سورة التوبة، آية رقم ١١١.

[٥] – ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج].

صلى ا لله عليه وسلم في القرآن، وكل هذا منه تعالى تكرم بتأكيد وتحقيق بذل ذلك الثمن الذي هو الجنة، وإنه أخبر بذلك أنبياءه (ص١٨٨) المذكورين وكل من تبع موسى من الأنبياء والصالحين، ومن تابع عيسى من الحواريين وطائفة الموحدين، ومن تبع ملة محمد من الخلفاء والأئمَّة وسادات المؤمنين أجمعين، فهو أمر مشهور وفي هذه الكتب الجليلة مذكور، ثم قال تعالى "ومن أوفى بعهده من ا لله" نقول نحن لا أحد أوفى منك يا رب، بل لا يذكر منا وفاء مع وفائك الجليل فضلاً أن يمثل الأمر بأفعل التفضيل، فسبحانك ما أكرمك وبعبادك ما أرحمك، ثم أخبر بأمرنا بالإستبشار وأن هذا هو الذي عليه المدار، حيث أنه هو الفوز العظيم، فسبحانك لا نحصى ثناء عليك يا منان يا وهاب يا كريم.

وقال تعالى في حق الفاسقين من البغاة والفجار المفسدين "إنما جزاء الذين يحاربون ا لله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض"[١] الآية، والآيات في شأن الجهاد والمجاهدين كثيرة مقروءة ومعروفة وشهيرة.

وأما ما جاء في السنة الشريفة من حديثه عليه الصلاة (ص١٨٩) والسلام، فهو شيء لا يحصى ولا يحصر بالإستقراء والإستقصاء، وحسبك ما كان له من الغزوات والسرايا وما ترتب على ذلك من الخيرات والمزايا، وإن لم يكن سوى قوله المشهور المعروف "الجنة تحت ظلال السيوف" لكان كفاية، وأيّ كفاية وغاية في الحفظ والجهاد أعظم غاية.

ثم أن هذه الأزمان ظهرت فيها محاربة الكفار وقد نقضوا العهود والمواثيق بغير إنكار، وبدا أَيْدُ معَشَرِ الفجار وكثر الإضطراب في الأقطار وإنتشرت الأعداء براً وبحراً نهاراً وسحراً، وقد تعدوا على جهات معروفة مشهورة موصوفة، وإستولوا على جليل من البقاع والأراضي، وصار لهم الحال القوي والجيش الجري والعزم الماضي، ولست

[١] - سورة المائدة، آية رقم ٣٣.

أعد ما أخذوه من البلاد ولا من أذلوه من أعيان العباد، لأن ذلك شيء يحـزن النفـوس ويستجلب الكدر والبؤس، وبقيت جهات في نفوسهم منها ما فيها إلا أن ا لله سبحانه أعزها وصانها بمن تحكـم فيهـا، مـن أعظـم هـذه الجهـات علـى الإطـلاق (ص١٩٠) وأجلها عند العالم بالإتفاق مصر وأقطارها المصونة المحروسـة، الكنانـة المأمونـة صانهـا ا لله بوجود السيد الصـدر كبـير الهمَـم عـالي القـدر، مركـز دائـرة السياسـة، ومعـدن الشجاعة والحماسة، سيد الوزراء وكفيل الأمراء حضرة أفندينا المشـار إليـه المعـول في كلّ المهمات عليه أيده ا لله بالعناية، وأحاطه بالحفظ وكلأه بالرعايه فهـو الـذي حمـى هذا القطر أجمع وصانه وأهله من كيد عدوّ يفجـع مـع أنـه أقـرب الجهـات للأعـداء، وليسوا غافلين ولا إنهم منه بُعَداء، لكنهم عارفون بهمـة صاحبـه المجـالد وقـوة مالكـه الوزير المجاهد، ولوله لسطوا على الكنانة وزالت منها كما وقع مـن الفرنسـيس معـالم الديانة، فهو أيده ا لله بنصره وأهلـك عـدوه بأسـره ذو الهمـة الصّادقـة والسـطوة الـتي تفوق الصاعقة لا يهمل التأمل في حفظ الثغور، ولا يغفل عن إخمـاد نـار الكفـور قـد شحنها بالعساكر وملأها بأصناف الذخائر مستديم لمـا يرهـب أربـاب العنـاد ومـلازم (ص١٩١) على ترويع كل ذي إفساد، فهو أيده ا لله سورُ أمن وسرور أحاطت ظِلال أنسه بأهل الكنانة فأمنوا من كيد كل فجور، لكنه أبقاه ا لله أمعن نظـره في أهـل هـذا الوادي فوجدهم لا يجيبون في مواطن الحرب من ينـادي، ولا يمنعـون عـدواً يفجـأهم، ولا يصدون مغيظاً يفجعهم، لا يدرون ما الشجاعة ولا يقدرون على الصبر لحظة مـن ساعة، لا يمكنهم صيانة أماكنهم ولا يدفعون من رام خراب مساكنهم، مع أن القطـر مشحون بالعدد الكثير ومملوء بمئين الألوف، فهم الجماء الغفير في عدد الرمل والحصـى لا يحصرون بطريق الإستقصاء، فلما رآهم أفندينا بهذه الشئون وعلى صفات لا يقبلها ذوا الهمم المؤمنون تدارك فسادهم وطلـب أن يـروج كسـادهم وأحـب إنقـاذهم مـن الجبن ومذمته وإخراجهم من ذل الهون بعلي همته، فأرسـل إلى القـرى والبـلاد وجمـع

الشبان أولي القوة الشداد[1]، وأمر أن يجيؤا من كل جهة بعدد ليجتمع منهم ما يكون صالحاً للمدد، وقصد أن يعلمهم طرائق (ص١٩٢) الحرب ويوقفهم على إدراك كيفيات الطعن والضرب، وصمم على هذا الأمر الجسيم وجزم بإن يجعل لهم من قمع الأعداء أوفى قسيم، وأحضر رؤس أهل التعليم والرجال العارفين بهندسة الفراسة والتفهيم وأمرهم بتعليم أولئك الشبان أنواع الحروب وكيفية تفاصيل ضرب مكاحل النيران، وأرسل إلى عظيم أتباعه من لا ينفك عن أغراضه وإتباع أوضاعه المستديم على حبه العاكف على وده وقربه محمد بيك كتخداي حضرة أفندينا سَابقاً[2] دام علاه

---

[1] – لم يذكر المؤلف هنا محاولة محمد علي لتنظيم الجنود الأرنود والدلاة على نظم الجيوش الحديثة في شعبان سنة ١٢٣٠هـ/يوليو ١٨١٥م وفشله بل ومحاولة قادة العسكر قتله ونهبهم لمدينة القاهرة، ثم فشله في تجنيدالسودانيين في المعسكر الذي أعده لتجميعهم بفرشوط وغيرها بعد إحضارهم من السودان وأعد لهم مكاناً للتدريب في بني عدي بالقرب من منفلوط، حيث أراد أن يتخذ منهم جنوداً، ولكن سرعان ما فشى الموت بينهم لتغير الجو وعدم استعدادهم للتدريبات العسكرية، ثم إتجاهه بعد ذلك لتجنيد المصريين. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٢٢٢-٢٢٥، ٢٢٧ ؛ كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص٢١٤-٢١٥ ؛ شكري: بناء دولة، ص١٤٩، ١٥١-١٥٢ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص١٥٨-١٦٢ ؛ علي شلبي: المصريون والجندية، ص١٧-٣١.

[2] – **محمد بيك لاظ أغلي**: شغل منصب "سلحدار" محمد باشا خسرو سنة ١٢٢٠هـ/١٨٠٦م، ثم "كتخدا بيك" له إعتباراً من صفر سنة ١٢٢١هـ/ابريل ١٨٠٦م، كما شغل أيضاً منصب "قائمقام" أثناء غياب محمد علي باشا في حملته بالحجاز، كما كان عدواً لدوداً لأمراء المماليك. وقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢٣٣هـ/١٨١٧م أنها إستهلت ومحمد بيك لاظوغلي كتخدا بيك وقائمقام محمد علي باشا في غيابه وحضوره، وإنه المتصدر في الأحكام الكلية والجزئية وفصل الخصومات، ومباشر الأحوال. وقد عزله محمد علي من منصب الكتخدائية في ٢٠ ربيع ثان سنة ١٢٣٤هـ/١٨١٩م، وفي سنة ١٢٣٧هـ/١٨٢٠م أرسله إلى الصعيد على رأس جيش إلى الشلال وبلاد النوبة للتحضير لغزو السودان وإستقبال العبيد المرسلين من هناك في أسنا لتجنيدهم بالجيش المصري، ويجهز الجنود المسافرين إلى السودان، وتولى نظارة الجهادية في المحرم سنة ١٢٣٧هـ/أكتوبر ١٨٢١م كما أطلق عليه ناظر النظام العسكري، توفي في ٢٢ رمضان سنة ١٢٤٢هـ/١٩ ابريل

فخاطبه أفندينا في تنجيز هذا المعنى وأن يكون متولياً إقامة وتشييد ذلك المبنى[١]، وأمره أن يصقل سيف عزيمته وينتضي حسام رأيه وسورة شهامته، وأكد عليه وأبرم وفوض

١٨٢٧م، ولازال مدفنه موجوداً تعلوه تركيبة رخامية بالزاوية أسفل العقار رقم ١٠٠ شارع القصر العيني، بعد أن هدمت وزارة الأوقاف قبته وقبة الشيخ يوسف المجاورة لها وأحلت محلهما عمارة سكنية حديثة. أنظر: الجبرتي: عجائب الآثار، ج٤، ص٧، ١٨، ٢٤٢، ٢٦٩، ٢٨٧، ٣٠١، ٣٠٤، ٣٠٨، ٣٢٠ ؛ كلوت بك: لمحة، ج٣، ص٦٩، ٧٠ ؛ علي مبارك: الخطط، ج٣، ص٩٢، ٩٣، ١١٩ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٥٣،٣٠٤،٣٢٧ ؛ شكري: بناء دولة، ص١٧٧، ١٩٨ ؛ عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي، ص١٦١، ١٦٢ ؛ محمد حسام الدين إسماعيل: وجه مدينة القاهرة، ص١٤٢.

[١] - **مدرسة أسوان:** أمر بانشاء مدرسة أسوان الحربية بعيداً عن القاهرة في ٩ ذي القعدة سنة ١٢٣٦هـ/٨ أغسطس ١٨٢١م وعين بها عدة معلمين على رأسهم سليمان باشا الفرنساوي وأرسل الى هناك ١٠٠٠ جندي من المماليك ليصبحوا ضباطاً، كما أرسل محمد علي برسالة إلى محمد بيك "ناظر العسكرية" في ٦ محرم سنة ١٢٣٧هـ/٣ أكتوبر ١٨٢١م يبلغه بتعيين أمين أفندي المعماري وأحمد باشا متصرف جرجا لبناء قشلاقات أسوان، على أن يسع كل منها ألف جندي، ويبعد كل منها عن الأخر مسافة ربع ساعة، على أن يحدث ذلك على وجه السرعة، وأصدر أمراً في ٢ جماد الأول سنة ١٢٣٧هـ/٢٥ يناير ١٨٢٢م بتعيين محمد بيك ناظراً للمدرسة، وأرسل يبلغ تلاميذه أنه معين لتنظيم شئون المدرسة ورعايتهم كالوالد ويجب عليهم طاعته والإجتهاد في تحصيل العلوم والفنون المختلفة لترقيتهم، ثم أرسل إلى محمد بيك في ٢٤ جمادى الأولى/١٦ فبراير من نفس العام يبلغه بتعيين سليمان أغا (سليمان باشا الفرنساوي) مدرساً لديه، ويأمره بإختيار المدرسين اللازمين وترقية التلاميذ المتقدمين إلى رتبة "جاويش أغاسية" أو "بلوك باشية" و"بكباشية" على العبيد لتحفيز باقي التلاميذ على التقدم. كلوت بيك: لمحة، ج٣، ص٢١٢-٢١٣ ؛ أمين سامي: تقويم النيل، ج٢، ص٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٤ ؛ شكري: بناء دولة، ص١٥١ ؛ عبد الرجمن زكي: التاريخ الحرب، ص١٦٠-١٦٢ ؛ علي شلبي: المصريون والجندية، ص٢١-٢٦.عن النظام الجديد أنظر:

David Farhi, "Nizam-i cedid - Military Reform in Egypt under Mehmed 'Ali," Asian and African Studies 8 (1972), 151-183; Weygand, Histoire Militaire de Mohammed Aly et des ses Fils, Vol. I, 159-173, 185-203.

إليه الحكم فيما يلزم، فإشتهر ذلك عند العالم وحمدته عليه عقلاء بني آدم، وظهر للخاص والعام أن ذلك إذا تم من أكبر الإنعام، وتأملت الأذكياء في ثمراته وفوائده ومحاسن فنونه وفرائد عوائده، فإلتزم ذلك حضرة (ص١٩٣) الأمير الجليل وقام بكل اللوازم من كثير وقليل، وذهبت الرسل إلى البلاد والقرى لإحضار الشبان وحثو المسير وأحسنوا التُري، وتوجه حضرة محمد بيك إلى ثغر أسوان فأقام به متفرداً في العصر والأوان، وأحضر عنده كبار المعلمين وأرباب المعارف الذين هم بإتقان النظام عالمين[1]، وحضرة الصدر العلي ذي العزم والفخر الجلي يرسل إليه كلما لزم له الحال وجميع ما يحتاجه بتلك الجهات والمحال، وفي كل حين يرسل له الأوامر ويحضه على تنجيز ذلك الشأن فيمتثل ويبادر، ووالى عليه إرسال الشبان أنواعاً وأجناساً متواصلين أناساً يتلون أناساً، فرسموا بأسم "العساكر الجهادية" وإشتهروا بذلك، فحبذا الأسم ونعمت الشّهْرة السنية، وجعلهم في مكان رحيب فسيح خصيب، وأقام لهم المؤنة وأكثر لهم أنواع المعونة، وأعطى كل رجل مكحلة بارود محكمة القوام حتى إستعد للحرب أولئك الأقوام، ولزمتهم الرؤسا للتعليم وسَاستهم بالتدرب على هذا الأمر الجسيم، (ص١٩٤) وشددوا عليهم في إتقان تلك المعاني والمدارك ليكونوا من أرباب الحروب والمعارك، وجعلوهم صفوفاً صفوفاً، وعلموهم الضراب أشكالاً وصنوفاً وإستداموا معَهُم مجتهدين وبتفهيمهم الدقائق مجدين تارة صفوفاً وتارة دوائر، والحرب لايزال على تلك الصفات دائر والصفوف أشكال مختلفة والدوائر كذلك، وكلها منسَجَمةُ متآلفة صناعات في أشكال الحروب عجيبة، ونكات من فنون الفراسَة غريبة، بحيث إذا وقف منهم صف وهو مائة إنسان وحاربوا بتلك الصناعة فلا يلاقيهم الألف من الفرسان وإذا سار منهم ألف رجل للحرب لا يثبت تجاههم من الآلاف الكثيرة أحد كان من الشرق أو من الغرب لإنهم على قوانين معلومة موصوفة مركوزة وراسخة فيهم ومعروفة، لا تختل صفوفهم ولا تضطرب صفوفهم، ولا يتأخر رجل عن رجل،

---

[1] – يشير هنا الكاتب مدرسة أسوان الذي أنشأها محمد علي لتخريج الضباط.

يفعل القليل منهم ذلك والجل ولا يزال يجاهد في تدرّبهم وتخلقهم بصناعة (ص١٩٥) الحروب وتجربهم كل يوم صباحاً ومساءً مستروحاً بشأنهم ومستأنساً حتى حصل الغرض الأكمل بقدوم حضرة السيد الأفضل صاحب السيف والقلم وأمير البنود والعلم، الشجاع الغضنفر والهزبر القسور مولانا وسيدنا إبراهيم باشا نجل الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي[١] فلما قدم تمت بقدومه الأمور وساسهم بتدبيره المأثور ولازم إدمان تعليمهم وأكثر عنايته لتدريبهم حتى أتقنوا هذه الصناعة، وربحت تجارة تلك البضاعة وأحكموا المقصود والغرض وتحققوا بعرفان ما أوجبه عليهم وإفترض، وبقى لهم ذلك طباعاً وأخلاقاً حتى ألفوه بل أشربوا حبه كأساً دهاقاً وأقاموا شعار الشجاعة وإنضموا عليه به وفاقاً، وساد البيض والسمر على كل من سواهم وزادوا وفاقاً، وكثر جمعهم وإلتأم مع السياسة والحماسة شملهم، ومازال حضرة أفندينا إبراهيم باشا يسوسهم بتدبيره ويجمعهم على التعليم بحقائق فنونه وتحريره ضابطاً لهم الضبط الكامل حتى (ص١٩٦) إنتظم الأمر بالعرفان الشامل، فقد قام بذلك أتم القيام ولازم تعريفهم تلك القوانين وأكد لهم الإلزام، فهو أبقاه الله أكبر عضد لهم وأعظم من أعانهم على ذلك ودلهم، وهذه الحالة من أعظم الأحكام وأكبر المفاخر، و لله القائل "كم ترك الأول للآخر"، وهذا شروع في ذكر الأدلة على وجوب إتخاذ العساكر الجهادية، وهى على طرق خمسة محررة شرعية[٢]:

الدّليل الأوّل حفظ الثغور الإسلامية وتحصينها بالعساكر الجهادية لإرهاب الأعداء المحاربين وإدخال قلوبهم هيبة المسلمين،

---

[١] – أرسل محمد علي ابنه إبراهيم للتعلم هناك لحث الجنود على إجادة التعليم.

[٢] – وقد قاوم الفلاحون الإلتحاق بالجندية ووصل الأمر بهم إلى إحداث عاهات مستديمة بأجسادهم ليتجنبوا التجنيد، وذكر أحد العمال الإنجليز بعد رحلته إلى الصعيد أن الفلاح كان يفضل أن يقطع أحد أطرافه على أن يصبح جندياً، ولاحظ في رحلته أيضاً أن كثيراً من الفلاحين يقوم بفقأ عينه اليمنى أو قطع عصب يده اليمنى أو خلع أسنانه من الجهة اليمنى. أنظر:
Bowring, Report on Egypt and Candia, 52, 196.

واجب شرعاً وفرض محتوم أصلاً وفرعاً إذ لو لم يلحقهم من المؤمنين رهبة و لم يخشوا منهم لحوق كربة ولا نكبة لسطوا على الثغور والبلاد وأضروا بالقطر وسكانه الأمجاد وإستولى على ديار الإسلام أهل الألحاد وتملكوا أولادهم ونساءهم وأموالهم وإستباحوا محارمهم ونفوسهم وأعراضهم، ودليل ذلك ما وقع منهم مراراً وفعلوه بالمحاربة (ص١٩٧) مع المؤمنين جهاراً كما صنعوا بجزائر الغرب وأوقعوا بهم على حين غفلة الهول والكرب[١]، وكما إتفق للفرنسيس بمصر وما ألحقوه بأهلها من الضر والإصر[٢]، وكما جاءتهم الإنكليز وأخذوا ثغر إسكندرية وإستردها منهم حضرة أفندينا بهمته العلية[٣]، ولا يخفى الذي تملكوه من الهند وبلاده لضعف سلطانه وإضطراب أجناده[٤]، ولا أذكر ما ملكوه من ذلك ولا أنقله لمعرفة الناس له بحيث لا أحد يجهله، وناهيك بهذه الأوقات وما تجدد بها من للكفار من المنابذات والمحاربات، وما صاروا عليه من القوة والكثرة، عافانا الله من أن يلم بنا من جهتهم مزلة أو عثره، وإذا كان كذلك فيلزم حاكم القطر شرعاً تجديد ما تعطل من الفروسية وإقامة جند يتعرفون ما جهلوه من أنواع الحروب بكل كيفية، لأن في ذلك حفظ البلاد وإرهاب أهل الطغيان والعناد.

وقد بسطت فيه مقال البيان ليكمل الإيضاح والتبيان، (ص١٩٨)

لدليل الثاني

---

[١] – أنظر عن إحتلال الفرنسيين للجزائر في صفر سنة ١٢١٧هـ/١٨٠٢م الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٢٢٢.

[٢] – **الحملة الفرنسية**: جاءت إلى مصر في سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م وخرجت منها في سنة ١٢١٦هـ/١٨٠١م.

[٣] – حملة فريزر Fraser سنة ١٢٢٦هـ/١٨٠٧م.

[٤] – **إحتلال الإنجليز للهند**: جاء إلى مصر في شعبان سنة ١٢٠٢هـ/١٧٨٨م رسول من حيدر بيك معه إذن من السلطان عبد الحميد بتجنيد عسكر لمقاومة الإنجليز. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢ ص١٦٠.

قد جعل ا لله للواحد من المؤمنين إثنين من الكفار، وللمائة مائتين وللألف ألفين نصاً في الكتاب بلا إنكار، ولا تخفى كثرة المؤمنين ولا تنكر معرفتهم لذلك أجمعين، ومع هذا فقد غلبت الكفار وإستولت على كثير من الأقطار مع توفر المؤمنين في العَدَد والعُدَد وكثرة ما عندهم من المعونة والمدد، ولم يستنقذوا من هؤلاء بلداً ولا قرية، كما هو محقق بلا مرية ولاسيما وسطوة الأعداء في البحر لا تنكر ومحاربتهم ظاهرة مع القوة في البر الأقفر، وهم الآن يرغبون في الإستيلاء على أجل البقاع، ويطلبونه عنوة وينافسون في تلك الشؤون والأوضاع، وغاية أمر المؤمنين أن يتمكنوا من إبعادهم بطريق الإستدفاع، ويكثرون في تفكر ذلك من الحوقلة والإسترجاع، فما السبب في هذا الأمر؟ وما الذي أوجب وقود ذاك الجمر؟ فأقول في الجواب أن ا لله سبحانه جعل هذا الأمر مرتبطاً ومقترناً بحالة الصبر، والصبر له أسباب معلومة وإلتزام عدم الإنفكاك حالة[1] الحرب له أوضاع مفهومة، (ص١٩٩) فما لم تكن الأسباب موجودة وأوضاع كيفيات الحرب معروفة ومحدودة لا يتفق هذا المعنى ولا يتشيد ذاك المبنى، وليست أسبابه الأكيدة وموجباته الحميدة سوى إرتباط القلوب بعضها بالبعض، ولزوم المجاهدين في العيان كل جماعة للآخرى في العرض وفي السير في الأرض، وأن لا يتخلف الرفيق عن الرفيق ولا يتخالفا في القتال بالتفريق وطاعتهم لكبرائهم وموافقتهم أوامر وأغراض أمرائهم، وترتيبهم في الأماكن والصفوف وفي أشكال الحروب حسبما هو عندهم معروف، وأن يواصلوا الطعن والضرب حتى لا يكون فيه خلل في مواقيت الحرب، ولا يفتروا عن إستدامة ذلك ليمتنع إقدام العدوّ عليهم هنالك، ويكونوا متأملين النصرة محرصين على إنتهاز الفرصة في العشية والبكرة، فمتى كانوا بهذه الأوصاف فهم السروات والأشراف لا يقاومهم أحد في مواطن الحروب ولا يقوم بهم أثر من متاعب (ص٢٠٠) الخطوب، وتأمل لما كان عليه الرسول صلى ا لله عليه وسلم وأصحابه، وما كان يفعله أنصاره وأتباعه وأحزابه،

---

[1] – في نسخة [دار الكتب] "حانة".

فقد كانوا يقفون في الحروب صفوفاً ولا يتخالفون آن متياً وآن ألوفاً ملازمون على تنفيذ أوامره محرصون على وعظه منزجرون بزواجره راغبون فيما يرضيه مطيعون لما يقضيه، لو أمرهم أن يلجوا النار لولجوها أو يخوضوا البحار لخاضوها، وحسبك ما قاله له بعض أصحابه في مكالمته له في شأن الحرب وحسن خطابه يا رسول الله لا نقول لك كما قال أصحاب موسى: أذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، بل نقول: أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، وكانوا يتراصون في موطن الحرب ولا يتزلزلون عن مواطنهم إلا لغرض من أغراض الطعن والضرب، وأنظر لما أمر الرسول الرماة أن لا ينتقلوا عن مكانهم وقال لا تنتقلوا إن كانت[١] لنا أو علينا وأحمونا بالنبال، فإنكم ما دمتم كذلك لا يمسنا نصب ولا يلحقنا وبال أو ما هذا معناه، (ص٢٠١) ولا يخفاك أن كل مرة إنهزم المسلمون بها لم يأتهم ذلك إلا من التخالف الذي قام بها، وما أصابهم الوهن إلا من إضطراب بعضهم مع بعض وعدم الإنقياد لأميرهم ونبذ أمره بالغض وقلة المعونة والنجدة وعدم القيام بكفايتهم بإن لم يكن عند الأمير جده، فهذه أسباب للخلل وما سبق أسباب لإزالة الوجل، وتأمل كيف وقع التخالف في أجناد مصر حيث أذلتهم الفرنسيس، وما ذاك إلا من إضطرابهم وعدم طاعة الرئيس، وحيث كان الأمر على هذه الصورة وعرفت أسباب الخذلان مضبوطة محصورة وخشينا على بلاد الإسلام وخفنا من أضرار يدخل على الآنام، فوجب حتماً وفرض جزماً أن يكون للقطر الإسلامي أجناد متفقة، لهم في معرفة صناعة الحروب خبرة وهم منها على ثقة يتصافون متفقين ويتراصون مؤتلفين يعرفون أصناف الحروب، ويدرون تخالف أشكالها، إذ هي أقسام وضروب، لا ينفكون عن جماعتهم ولا يتفرقون عن رفقتهم، (ص٢٠٢) مطيعون لأمرائهم، منافسون في تنجيز أثر أريهم، فمتى أمكن تحصيلهم كذلك وكان متأتياً سلوك هذه المسالك وجب على أمير القطر تحصيله وقام بهذا المهم شرعاً هو أو وكيله، بحيث إذا

---

١ - في نسخة [دار الكتب] "كان"

ترك ذلك كان آثماً ولعالم[1] الإسلام ولشعاره مبطلاً وكاتماً، ووجب على المؤمنين السعي لمن أمكنه أن يسعى والتسبب في إيجاد ذلك فرادى وجمعاً بالقول وبالعمل ليوافق السلف الأول، ومن لم يكن لهذا الأمر مادحاً ومثنياً على وجوده ثناء صالحاً فهو في غفلة عن الدين وبعد عن حب إظهار شعاره المتين، وليس معدوداً من الموفقين ولا مذكور بالخير بين المؤمنين، ومن لم يرض بإقامة شعار هؤلاء العساكر فقد باء بالإثم الكبير وضرب به في الذم المثل السائر، ومن يرغب في ذلك وحضر عليه ومال بلسانه وقلبه إليه فهو مؤمن حقاً وتقي صدقاً، وهو ممن رضي الله عنه ورسوله ويبلغ بفضل الله في الدنيا والآخرة مناه وسؤله.(ص٢٠٣)

الدليل الثالث

فشا في جميع المسلمين وإشتهر عند كافة الموحدين تركهم تعليم الفروسية وتعلمها وإهمالهم عرفان أصناف كيفيات الحروب وتأملها، فلا يدرون الرمي وأنواعه ولا صور إمتداد الصف وأوضاعه، فقد كانوا في سالف الزمن مقدمة وساقه وكميناً لإضرار العدو أَعَدَّه الرئيس وساقه وقلباً وجناحين إستعداداً لِدَفع الحين، وصفوفاً متفقة ورفقة ببعض مرتفقة متفقة على الإقْدَام قلوبهم متساوية على الأرض مواقفهم، متحاذية أجسامهم يميلون على العدُوّ كما يميل البحر، وينزل طعنهم وضربهم عليه كما ينزل من العلو الصخر، ولذلك غلبوا على الأعداء وقهروهم بالحرب في البيداء وملكوا ديارهم وأزالوا آثارهم، وكتب الفراسة مشحونة برقم الصفوف وتنويعها إذ هي أشكال وصنوف هندسها الأوائل وأهملها الأواخر[2]،

---

[1] - في نسخة [دار الكتب] "لعالم".

[2] - من أمثلة كتب الفروسية:

- الكلبي: أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تحقيق أحمد زكي، القاهرة سنة ١٩٦٥.

- محمد بن منكلي، ٧٨٤هـ/١٣٨٢م: الأدلة الرسمية في التعابي الحربية، تحقيق محمود شيت خطاب، بغداد سنة ١٩٨٨.

فبدت بإهمالها أهوال الغوائل، وليس أمرها في (ص٢٠٤) المؤمنين مبتدعاً ولكن تركوا صنع السلف فلا ترى أحداً من الأواخر لهم متبعاً، وقد رجعت للأعداء البلاد الكثيرة وتملكوا الأقطار الشهيرة بعد أن كانت بأيدي المسلمين، وما ذاك إلا لجبتهم بتركهم معرفة الحروب أجمعين حتى صارت العساكر المعدودة لهذا المعنى، إذا ساروا جموعاً فرادى ومثنى وقابلهم العدوّ المحارب يضطرب كل طاعن وضارب لإنهم يزدحمون بلا ترتيب في الضرب ويتكاثرون مع بعضهم بغير إنتظام في الحرب، فإذا ضربوا مكاحلهم أول مرة وأرادوا إعادة الضرب كرة بعد كرة يكون بين الضربتين والضربات ابطال وخلو من الحرب درجات، والأعداء لا تبطل مكاحل بارودهم لإحكام صفوفهم وإمكان مواصلة إصدارهم عن الضرب وإيرادهم، ولا تبطل موالاة نيرانهم أبداً ولا يقع خلل في تواصلها سرمداً، فيقع في خلال تلك الفترات ووسط هذه المهلة والسكنات إضرار كبير وقتل ذريع وإضطراب وهول يريب (ص٢٠٥) ويريع، فإلى أن يضربوا أول مرة ثم يعودوا إليه بعد السكتة كرة يكون قد قتل منهم ما لا يحصى عدداً، فيضطربوا رهباً ويختلوا مدداً، وسببه معرفة أولئك بكيفيات المعارك، فلا يختل ولا يتعب منهم رجل معارك، فلهذا وقع الضرر بإهمال هذه الصناعة وترك تعلم أشكالها حتى جهلوا الأمر وكلهم اضاعه، فقويت الأعداء بمعرفة الصناعة التي أهملها المسلمون وكان عليها سلفهم الصالح أجمعون.

وحيث كان الشأن ذلك وأمكن الأمير إعادة ما دثر من تلك المسالك وتعليم طوائف من المؤمنين صناعة الفروسية وتعريفهم أشكالها وإختلاف الصور وإتقان هذه الكيفية، فقد وجب عليه شرعاً المبادرة إلى هذه الصناعة وحرم عليه أن تأخر وأبدى إمتناعه، وله إذا أقدم على هذا الشأن الجليل الرضوان من الرحمن مع الثواب الجزيل،

– محمد مصطفى: مخطوط في تعليم فنون القتال والفروسية في أواخر عصر المماليك الجراكسة، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس-ابريل سنة ١٩٦٩م، ثلاثة أجزاء، القاهرة سنة ١٩٧١م.

وما أنفقه على المتعلمين لصناعة الجهاد وما بذله في هذا الموطن للإستعداد من مرتب رزق (ص٢٠٦) وإطعام وإيصال البر لهم والإكرام وكسوة ومؤنة وإسعاف لهم بإصناف المعونة وآلات حرب وقتال، وكل ما قواهم في مواطن النزال مجموع في ميزانه أمثال الجبال، ومرقوم في صحيفة أعماله مضاعفاً بالتفصيل والإجمال، ولكل من له مدخل في ذلك بأيّ سبيل من سَاع في أسبابه ومعين لإربابه كرئيس أو وكيل ما لا يحصى من جزيل الثواب والإنعام بعتق الرقاب من رب الأرباب لما جاء في خَبَرٍ صلى ا لله وسلم على قائله أن الدال على الخير كفاعله، ومن خالف في هذا الأمر المذكور فعاقبته الويل والثبور [والهلاك والجور][1].

الدليل الرابع كان المؤمنون فيما مضى من البعثة الشريفة إلى زمن السلطان قانصوه الغوري[2] يتعلمون الرماية بالسهام، ويلازمون صناعتها على توالي الأيام، وجاء الأمر بتعلمها وتعليمها في السنة الشريفة على لسان الرسول الأكرم والسيد الحبيب السند الأفخم محمد صلى ا لله عليه وسلم، فقد مر على قوم [من العرب][3] يرمون بالسهام ويتعلمون (ص٢٠٧) إصابة الغرض على التمام، فقال صلى ا لله عليه وسلم لهم آمراً ولصنيعهم راضياً رمياً بني إسمعيل فإن أباكم كان رامياً، وجاءت فيه الأخبار العديدة حتى إنه من اللهو الذي تحضره الملائكة، وكانت عساكر الموحدين وأبطال المسلمين يتقنون ذلك إتقاناًمحكماً ويرمون الأعداء رمياً مصيباً مستحكماً، وكانت المقاتلة ممن لا يدري الرمي يفزعون من الرماة ويفرون بين أيديهم إذا لاقوهم بفلاه، هذا مع معرفتهم بأحكام صفوفهم وترتيب صنوف مئينهم وألوفهم

---

[1] - ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج].

[2] - **الغوري:** حكم من ١ شوال سنة ٩٠٦هـ/٢٠ ابريل ١٥٠١م إلى ٢٥ رجب سنة ٩٢٢هـ/١٤ أغسطس ١٥١٦م.

[3] - ما بين الحاصرتين مكتوب في نسخة [دار الكتب] في الهامش الأيسر للصفحة ومشار إليه في النص.

كما تقدم ذكره وشرحه سابقاً، ونتممه في البيان لاحقاً، فلما رأت الكفار ذلك وهالهم الأمر في المعارك إخترعوا صناعة مكاحل البارود ولازموا تعلم صناعة رميه مع بذل المجهود في سائر أزمنتهم وفي القيام والقعود، وأتقن هذا الأمر أهلاالجحود، فصار يسمع صوت المكاحل الخارجة بالنيران القاتلة للأبطال والفرسان، وهو صوت هائل جسيم يدهش من (ص٢٠٨) لا يعرفه فيرجع بحال الوجل السقيم، ولاسيما إذا كثر عدد الضاربين وإصطفوا على الأشكال التي بها موسومين، ودام الضرب بلا إنفصال وإستحكم تواليه بلا إختلال، فحصل الإضطراب بهذا الصنيع وهابت فرسان المؤمنين ذلك الأمر الشنيع وقوى الكفار بهذا السبب وظهروا مُستحْكمين أشكاله بحال عجب، فإقتضى الحال ولزم المؤمنين من خشية النكال تعلم ذلك وإصطناعه ولزومه دواماً وإتباعه ومكثوا مدة يتعلمونه ويحضرون آلاته ويتعرفونه، فأدركوا طرفاً جيداً من أعماله وعرفوا كيفية إصطلاحه في إمتلائه ثم إرساله، فحصل لهم بعض القوة وعاد لهم شيء منَ الفتوّة، إلا إنهم لصعوبة تعاطيه وكثرة الدخان وثقل الحديد وحموه بالنار في يد راميه تكاسلوا بسبب ذلك عن الترتيب وأهملوا عملهم الأول في الإصطفاف الذي يصد العدوّ المريد المريب، وأهملوا صناعته الهندسية المربحة الرافعة للتعب وللوهن[1] مزيحة لإنهم يرسلونها (ص٢٠٩) أدواراً ويوالونها مراراً، كل صف إذا أرسل صبر وتوقف ليضرب الآخر تلوه ولكيد الخصم يتلقف، وصار أجناد المؤمنين وجيش الموحدين يجتمعون ألوفاً ولدى الضرب يختلفون صفوفاً ويزدحمون مع بعضهم البعض ويضطربون في فسيح الأرض وربما أصابهم من أنفسهم الضر بالإزدحام والعرض، مع أن الأعداء لعنهم الله إذا إجتمعوا وأظهروا ترتيب ما صنعوا يجعلون مع ذلك طبولاً لهم، وهى في الحقيقة كأنها زلازلهم، فإذا ضربوا مكاحلهم المعروفة ضربوا طبولهم الموصوفة فيكون دَوِيّ عظيم وحال مريع جسيم تفر منه الوحوش والطيور ويرجع السامع وهو هائم مذعور، ويساعد هذا مزاميرهم ونفخهم فيها وزئيرهم

---

[1] - في نسخة [دار الكتب] "للهون".

فيزداد الدوي المهول كأنه الرعود تسوق السيول ونيران البنادق كالصواعق والأمر متزايد متلاحق، ويثور العثير مصاحباً للدخان ويغشى الأبصار حتى يغطيها، فلا عينان بل ولا فكرة تبقى حيث (ص٢١٠) تتلف الأذهان، وهذا شيء لا ينقضي حتى تحصل الهزيمة، وهم على تلك الصورة بهذه العزيمة، فلما قوى العدو بإدمان هذه الصناعة وضعف المؤمنون بترك هذه البضاعة حصل الضرر والإضرار، وبدت المنابذات والمناضلات من الكفار، وحينئذ فيخشى على الأماكن والدور من سطوات أهل الجحود والفجور وكذلك الثغور المعلومة التي هي لأذهانهم وأبصارهم مشاهدة مفهومة، وحيث كان الأمر على ما قلناه وبحسب ما ذكرناه ورقمناه، فإنه يجب على أعيان المسلمين وأهل الحل والعقد من الموفقين أن يخاطبوا أمير القطر في تحصيل أجناد ترهب الأعداء وترهقهم بالحرب إذا تواقفوا بالبيداء بتعليمهم كيفية الحروب وأشكالها إذ هي ضروب، حيث تميزت الأعداء بهذه الصناعة العظيمة وملكوا بها الجهات الجسيمة، فيلزم حينئذ أن يتعلمها أجناد المؤمنين ويتقنوا عرفانها أجمعين، ليدرؤا الشر بمثله ويصادرون العدو بوزان صنعه وشكله (ص٢١١) ومن تأخر عن ذلك فقد باء بإثم كبير، وناداه لسان الشريعة المحمدية بالنكير.

الدليل الخامس حفظ الدين والنفوس والأعراض والإنساب والعقول والأموال واجب شرعاً، وذلك متوقف على القوة لرد الأعداء الصائلين على الأموال والنفوس، ولاسيما إذا كانوا كفاراً فيزداد عند ذلك الخوف على الدين والعرض مع المال والنفس، ولا شك إنه إذا وقع الخلل في الدين والعرض والمال تلف العقل أو كاد، وضاعت النفوس والأنساب في الأماكن والبلاد، فكان الخوف من الكفار جامعاً لكل مخيف ومتلفاً لكل سيد تقيّ عفيف، فإذا ظهرت من الخوف أسبابه وطغى العدو وسال عبابه وضعفت الأجناد عن مقاومته ومضاربته ومصارعته، وجب على الأمير بالقطر إحضار جند معلمين عارفين بصناعة حرب الكفار مقاومين يدرون الصفوف وصنوفها وترتيب الضربات وصروفها، ووجب

عليهم تعلم صناعة حرب (ص٢١٢) الكفار إن لم يكن لهم بها إلمام وتذكار ليدرأ الشر بمثله وينقمع العدو بطبق صنعه وشكله، وهذا محتم في الوجوب وفرض لازم على هذا الأسلوب لتوقف حفظ ما تقدم عليه، وما توقف عليه الواجب فهو واجب يعول عليه.

خاتمة

إعلم أيها الناظر في هذا الكتاب، المتأمل لما فيه من فصل الخطاب أن إتباع الشرع الشريف شعار المؤمنين والإقتداء بالسنة المطهرة شأن الموفقين، ومن ذلك ما نحن فيه هنا من إتخاذ العساكر الجهادية وتعليمهم تلك الصناعة التعَلِّيمة[١] وإدمانهم على ملازمة هذه الكيفية وأمرهم بمباشرة أوضاعها البادي نفعها فهي عليه موافق ذلك كما تقدم للكتاب والسنة ومطابق لما عليه سلف سادة الأمة، فهو أمر شرعي المظهر والقول بحقيقه وفرضه من الشمس أظهر،ثم أن هنا سُؤالاً ينبغي النظر في جوابه وتبيين القول فيه خطأه أو صوابه حاصله إذا قال قائل أن (ص٢١٣) العساكر الجهادية جماء غفيروجمهورهم شهير وعدد آلافه كثير، وهؤلاء أخلاقهم الأصليّة جافية وطباعهم الغريزية خشنة ليست بمقام العرفان وافيه، فهم عن طريق الصواب غافلون وعن أشكال رسوم الأدب غائبون بسبب الجهل الغريزي وجفاء الأخلاق الطبيعي، وهؤلاء بهذه الأخلاق مع هذه الكثرة قد تداخلهم شئون شيطانية وربما غرتهم شهامتهم الظاهرية والباطنية، فقد يقع منهم أهمال في خاصة صناعتهم أو يصدر من بعضهم زلة ومخالفة لجماعتهم بإن يقع منهم التعدي على الغير بالإيذاء أو على رفقته، أو يكون منه بعض منابذة لأميره بمخالفته أو إرتكب ذنباً لا يلايم أو أهمل في بعض الأوقات قانونه اللازم، وربما قلد بعضهم بعضاً في هذه الشؤن فيدخل عليهم الخلل من حيث لا يشعرون، وكان تركهم على هذه الأحوال [فيه][٢] ضرر

---

[١] - في نسخة [دار الكتب] "العَلِيَّة".

[٢] - ما بين الحاصرتين ليس في نسخة [سوهاج]، وفي نسخة دار الكتب مكتوب في الهامش الأيمن من الصفحة ومشار إليها في النص.

ظاهر وخلل كبير يفضي إلى إضرار ومناكر، بل ربما حصل بسبب ذلك فساد في الناس كلاً أو بعضاً، وإضطرب (ص٢١٤) الحال بهذا السبب رفعاً وخفضاً، فهل للأمير إذا تحقق أن أهمالهم مجلبة للخلل، وأن العفو في مثل هذه المعاني من أعظم أدوات الضرر والوجل أن يسعى في ضبطهم بسياسته ويقوم في سد خللهم بعرفانه وحماسته، وهل إذا كانت جزئيات الذنوب غير مضبوطه ولا تحررت في كتب الفروع الفقهية مربوطة أو كان بعضها غير مقول فيها أو لكثرة الأفراد كان البعض غير منقول عن مؤلفيها يسوغ للأمير حينئذ أن يرتب قوانين لضبط شأنهم ويحرر بحسب فطنته أنواعاً من التعازير لترتيب وتنظيم جمعهم وله والحالة هذه ضبطهم بتلك القوانين[1]، حيث رتبها كافلة بأوضاعهم وتأديبهم، وكافية بأنواع صناعتهم وتعليمهم، وكيف يكون الحال فالغرض بيان ذلك بأبين مقال، قلت ينبغي أن تعلم قبل ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الدين النصيحة، قلنا لمن يا رسول الله، قال لله ولكتابه ولرسوله ولإئمة المسلمين وعامتهم إنتهى. (ص٢١٥) قلت أما النصيحة لله ورسوله وكتابه فظاهرة بالإيمان بالله ونفي الشريك عنه وترك الإلحاد في صفاته وطاعته كما هو مقرر شهير، وأن القرآن كلام الله لا كلام البشر وإنه لا قدرة لإحد على الإتيان بمثل أقصر سورة منه، إلى آخر ما هو معروف ومشهور، وأن يصدق برسوله جازماً بحقية كل ما جاء به ونصرته حياً وميتاً وحبه وحب آله وصحبه حسبما هو منصوص معلوم في كتب السنة. أما النصح لإئمة المسلمين فهم الخلفا ونوابهم من الوزرا والأمرا والعلما بطاعتهم في الحق والجهاد معهم وترك الخروج على

---

[1] - اتخذ محمد علي من القانون العسكري الفرنسي -قانون نابليون- قانوناً للجيش "السياسة نامة" سنة ١٢٣٥هـ/١٨٢٠م، وكان يبغي من تنظيم الجيش الحديث القضاء على الفتن التي كان يسببها النظام القديم في جمع الجنود، واخضاع الجميع للقانون وليس للمال الذي ينفق عليهم كلوت بك: لمحة، ج٢، ص٩٧، ج٣ص١٧٥، ٢٢٤ ؛ شكري: بناء دولة، ص١٤-١٧، ١٨٣، ١٨٤، ٢٧٣، ٦٨٠.

الخلفا والوزرا والأمرا وجميع نواب الخلفاء، فلا يجوز الخروج عليهم وإن جاروا وعسفوا بل للازم علينا الدعاء لهم بالصلاح والتوفيق ومعاونتهم في مقام الإصلاح، وتذكيرهم بالله وأحكامه بالرفق معهم والتلطف. وأما النصيحة للعامة فذلك بإرشادهم لإمر دنياهم وآخرتهم، وسدالخلل عنهم ودفع المضار والذب عن أعراضهم وأنفسهم وأموالهم، وتحصيل أسباب الأمن التي يعمهم بها الإطمئنان ويتم لهم بها (ص٢١٦) سكون الجنان. إنتهى [بحمد الله][1].

وهذا الذي ذكرناه من الأصول التي ينبني عليها الجواب عما ذكر من السؤال السابق كما سنوضحه قريباً، وأيضاً من القواعد الأصولية الشهيرة أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ومن ثم سومح في ترك الواجب بإدنى مشقة تحصل كترك القيام في فرض الصلاة لمن مسه ضرر يبيح، وكفطر رمضان في نحو السفر ولمن لم يطقه لعجز طاريء، وكفطر الحامل والمرضع إذا خافتا علىأنفسهماكما هو مفصل في كتب الفروع، وكالعدول عن الوضوء إلى التيمم للعذر المعروف المبيح. ومن القواعد أيضاً قول الإمام الشافعي رضي الله عنه وقد سئل عند دخوله مصر عن أواني الفخار المصنوعة بالنجاسة [فقال ثم إذا ضاق الأمر إتسع وكما إذا وقع الذباب على النجاسة][2] ثم وقع على الثوب ونحوذلك، [المشقة تجلب التيسير][3]. ومن القواعد كذلك إذا تعارض مفستدتان روعي أعظمهما ضرراً بإرتكاب أخفهما.

فإذا كان الأمركما ذكر وخيف أن يلحق بالعساكر الضرر والخلل إذا أهملوا في شأن شيء مخصوص لو لم يزجروا بسببه (ص٢١٧) ويعزروا من أجله، ولم يكن لخصوص ذلك الفرد من الذنوب ذكر في الفروع ولا تقييد نوع تعزير خاص له

---

[1] – ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج].

[2] – ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [دار الكتب].

[3] – ما بين الحاصرتين وارد في نسخة [دار الكتب] في الهامش الأيمن للصفحة، ومشار إليه في النص والهامش برقم "٣".

وخيف من الإهمال ترتب خلل بتجاريهم على أمثال تلك الأشيا الضارة وإضطراب في هؤلاء الجماعات يحصل بسببه خلل فيهم أو في الرعية أو أفراد من الناس أو جهة من الجهات، فإن للحاكم حينئذ تنظيم وترتيب أمور من التعازير وكتابتها متى ترتب على ذلك الصلاح وتوقف عليه طريق النجاح، وله أن ينوع الأقوال في ذلك بما يراه مصلحةوإعانة على ضبطهم وإنسجامهم، وتأديباً وزجراً لمن خالف من كبيرهم وصغيرهم، وهذا كله راجع إلى تلك الأصول المذكورة من الأحاديث والقواعد المرقومة آنفاً، فإن في ذلك حفظاً للرعية متضمناً للكف والذب عما يريعهم ومبعداًلما عساه يطرأ من إضرارهم في أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، فإن صلاحهم في ذلك متوقف على إعتدال شأن الأمير وضبط أحواله وسداد أقواله وأفعاله، وذلك موقوف على ضبط أولئك الأجناد وعلى طاعتهم بالبعد[1] عما يوجب الإفساد والخلاف (ص٢١٨) والعناد، وبتحصيل ما ذكرناه يحصل الأمن والطمانينة للعباد والبلاد، فمن أعظم المصالح للرعية إظهار شعار الشهامة والشجاعة للأعدا من الأمير وجنده ولاسيما في أوقات ظهر فيها للعدو خروج على الخليفة وشقاق ومنابذة له ولوزرائه وكافة دولته وعلى الخصوص مثل حضرة أفندينا الصدر العلي أبقاه الله فإنه وقع بينه وبين أولئك الأعداء مفاقمة كبيرة وحروب شهيرة، وقد ضبط إقليم جريد ومدائنه بعساكره وقوة عزمه، ولولاه لحصل هناك من الكفار من الإضرار ما لا يدخل تحت ميزان ولا عيار، وكذلك صنيعه بقبرس، وبالجملة فقد جعله الله تعالى في هذه الأزمان سداً بين أهل الإيمان وأهل الكفر والطغيان، ورادعاً لما يقوم بأوهامهم من الإقدام على قطر الكنانة في أي زمان، وحاجزاً عظيماً لكل باغ ومتمرد أينما كان، بحيث أن الله جلت قدرته أودع قلوب أولئك الأعدا مع إختلاف أجناسهم وكثرة عدد ناسهم وظهور بأسهم ما ملأها منه مهابة وإجلالاً وإرتداعاً من (ص٢١٩) عظيم هممه وكبير قوته الظاهرة لهم تفصيلاً وإجمالاً، فنسأل الله أن يزيده سداداً وعزة وقوة،

[1] – في نسخة [دار الكتب] "البعيدة".

ويديمه محفوظاً بالتأييد والحفظ والفتوة، وعلى كل إحتمال فترتيب تلك القوانين على النمط الذي ذكرناه غير خارج عن القواعد في كل حال، إلا أنه مقيد بما سيأتي بيانه ويظهر لك بالتحقيق عرفانه، وأما رجوعه لقاعدة إذا تعارض مفسدتان روعي أعظمها ضرراً بإرتكاب أخفهما، فذلك ظاهر لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه، فإن تعزير أولئك الجند بما ينص عليه إن قيل إنه مفسدة كان ترك التعزير بالإهمال أشد ضرراً لما يلزمه من تجاريهم وإقدامهم على المخالفات وإرتكاب المحظورات وتعاطي القبائح وعدم المبالاة بالخلل وأسبابه، وهذا كما لا يخفى يجرّ إلى الوبال ويفضي بالنكال ويكون به إضطراب الأمير والمأمور وإختلال العامة والخاصة بإختلال ذلك الجمهور، فتعين حينئذ ضبطهم بذلك الترتيب المعلوم وتحتم تقريره لهم وإبرازه إلى الوجدان بالوجه المفهوم، فهو في الحقيقة مصلحة لهم كبيرة (ص٢٢٠) لا مفسدة على المجاز حيث هي في إنسجامهم كشمس الظهيرة.

ومن المعلوم أن هناك أموراً وأنواعاً من جزئيات الوقائع الكثيرة غيرمصرح بخصوصها ولا معنون عن أشخاصها في كتب الفروع الشرعية، وأمثلة ذلك غير محصورة ولا سيما في مثل ما يتعلق بالعساكر المذكورة، فإن أحدهم ربما أهمل شيأ من لوازم التعليم أو تأخر بلا عذر عن أوقات التفهيم أو خالف فريقه في نوع من الأنواع، أو حصل منه تعدٍ على أحد أو إرتكب خلاف تلك الأوضاع في إقامة وسفر وسير وحرب وسلم ونحو ذلك مما لا يحصى، فإنه والحالة هذه إذا أهمل وجد الخلل سريعاً وبدا الفشل وربما عمهم جميعاً، فللأمير ضبطهم بما يراه مصلحاً وله أن يجعل للذنب نوعاً خاصاً من التعازير متى كان ضبطهم به واضحاً، بل ينبغي أن يرتب لهم من يذاكرهم في تَفَهُّم ذلك بالتلاوة عليهم ليتمكنوا من عرفانه، وينبغي لهأن يذكر في قوانينه كلما لزم لتلك الصناعة من أسباب وكيفيات وطرق للتعليم لهذه الصناعة الجليلة، بحيث إذا تذاكروا (ص٢٢١) فيه إنطبع في أفكارهم ورسم في أذهانهم فيكون ذلك إعانة لهم وأيّ إعانة.

وبالجملة فلا ينبغي إهمالهم عن تعريفهم هذه القوانين، فإنها صالحة لهم وبها ضبطهم وكمالهم وإنسجامهم ما لم يترتب على ذلك إبطال لحكم شرعي أو إرتكاب منهي عنه مصادم للنص الصريح ومنابذ للإجماع، فما لم يخالف ذلك من سائر أنواع التعازير و لم يبطل به قاعدة شرعية فذلك كله لا ضرر فيه ولا حرج على فاعله شرعاً، ولا يخفى أن أهل الشرع ذكروا أن التعزير تختلف أنواعه بحسب الأشخاص، فقد يكون التعزير لشخص بضربه مائة سوط، وإذا وقع مثله من شخص آخر فإنه يعزر بنقل الشال من كتفه الأيمن إلى كتفه الأيسر، وكثير من الأشياء الموجبة للتعزير لم ينصوا على شيء في خصوصها يعزر به فاعل ذلك الشيء، مع إنه لا يصح إهماله عن التعزير، فلذلك حكموا في الكثير منها بإختلافه بحسب صغر الجرم وكبره، وبحسب الشخص حقارة وعظماً، وقالوا[1] الأمر في ذلك راجع لما يراه الحاكم العارف بإختلاف أجناس الناس، فقد يكون (ص٢٢٢) تعزير شخص بما يغيظه ويكربه ويلحق به غاية التكدير، ويكون هذا بعينه إذا وقع لشخص آخر يعد إكراماً له كما ذكرنا ولا سيما وشأن الجند عجيب وحالهم في الأخلاق غريب، وخاصة إذا كانوا عريقين في غلظ الطباع وفي خشونة الأخلاق كالعبيد، فإنهم لا تنكر صعوبة طباعهم وغلظ أفهامهم وأخلاقهم، ويلحق بهم أجناس الفلاحين مع إنهم مختلفون ومتفاوتون في الأخلاق، فمعظمهم غليظ الطبع جامد الخلق ويندر فيهم ضد ذلك، فإنه مشاهد فيهم، وقد رأينا في الفلاحين من ضرب ألف سوط و لم يتأثر سوى الضارب بوجع يده، ولا تستغرب ذلك فإني قد شاهدت من ضرب ثلاثة آلاف كرباج و لم يتأوه قط، وكان هذا المضروب فلاحي وكان ابن شيخ بلد عندي وكان الضارب له رجل يقال له عثمان أغا شقيق لاجين بيك وقصد بذلك غمّي وتكديري، ثم بعد ذلك أخذ الحصة مني نهباً وإستولى عليها ظلماً، قبحه الله وسر بله بالعذاب، فإنه كان من أكبر الظالمين، وأشد الخاسرين.

---

[1] – في نسخة [دار الكتب] "قانوا".

وحاصل القول فيما ذكرناه أن الأمر راجع لما يراه الأمير (ص٢٢٣) على النمط الذي شرحناه، وإنه لا يصح إهمال هؤلاء الأجناد أصلاً قولاً واحداً فاعلم ذلك وحققه، والضابط الجامع لذلك ولكل ما سواه قوله صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمريء ما نوى، فمتى كان القصد الإصلاح والمحافظة على الجهاد وإيجاد الأمن للرعية والذب عن القطر وأهله وإقامة الشعائر الإسلامية، كان هذا مجلبة للثواب وأعظم سبب لرضا رب الأرباب، ودليل على السعادة الكبرى وبرهان على التأييد والعزّ في الدنيا وفي الآخرى. نسأل الله أن يديم حضرة الصدر العلي ويوفقه لكل خير جلي، ويسدد أحواله وشؤونه بالإسعاف والإتحاف والتأييد والحفظ والألطاف.

تتمة ينبغي التأمل في شأن العساكر الجهادية، فإنه مهم كبير ينبغي الإعتناء به في سائر الأوقات والحرص على تحصيله في جميع الحالات، فإنها صناعة أشكالها بديعة متقنة، والهيبة معها ثابتة محكمة، فإن من لطائفها إذا كان العدو مقبلاً في أرض أو جهة من الجهات وسار (ص٢٢٤) الفريقان كلاهما طالب للفريق الآخر وقاصد إرهاقه في حركات المحاربات، فينبغي تفريقنا وجماعتنا رفع أرجلهم ووضعها وهم بمكانهم ثابتون لا يسيرون عنه خطوة ولا ينتقلون، فإن فريق الأعداء يرى أنهم سائرون إليه ويظن أنهم قاصدونه لما يظهر في الشخص من حركة رجليه الشبيهة بحركة الماشي، ولا يرى سوى ذلك من توالي الوهم الغاشي، فيكون فريق من جماعتنا مستريحون[١] وفريق الأعداء هم بتعب السير يختلجون، إذ ربما وقعت عين فريق على الفريق الآخر وبينهما نصف سَاعة أو أكثر، وأحدهما مأسار ولا بادر فتكون هذه راحة كبيرة وزيادة إستعداد وثبات في مواطن الحرب والجلاد والطراد، ولاسيما إذا كان فريقنا مستدبراً لهم بظهره، فإنّ الأعداء يظنونهم فارين، فربما هرولوا مسرعين هذه المسافة فيرجع تعب كل شخص منهم عليه وكيده في نحره، فإذا قاربوا فريقنا في

---

[١] – في نسخة [دار الكتب] "المستريحون".

المكان فيلتفت فريقنا لفتة واحدة وهو بالراحة مصان ويضربونهم حينئذ بالمكاحل الحاضرة، فيكر ذلك العدوّ من التعب (ص٢٢٥) رجوعاً كرة خاسرة.

وبالجملة فهذه الصناعة يجب الإحتفال بها وإستجلاب الموحدين إلى معرفة ضروبها، ثم إنه ينبغي التأمل في هؤلاء العساكر بما يصلح أبدانهم، وذلك يكون بالغذاء وإصلاحه، فالملايم لهم أن يجعلوا لهم في الأسبوع يوماً أو يومين يأكلون فيه خبز الذرة البيضاء المسمى بالبتاو، وذلك مع الجبن والبصل في وقت الضحوة وقت الغذاء المعلوم المسمى بالفطور تارة وبالغداء بفتح الغين تارة، ويكون عشاؤهم ذلك اليوم مثل البيصار ونحو العدس، أو يوم هذا ويوم هذا مع البتاو والبصل، ثم بعد اليوم أو اليومين يطعمون الثريد باللحم والأرز ويكون بلحم عجول الجاموس لا البقر، وهكذا في كل أسبوع يصنعون لهم ذلك وهذا فيه لإبدانهم غاية الصلاح ونهاية القوّة، لأن أبدانهم قد إعتادت ذلك بحسب نشأتهم، وألفته بداعية عادتهم الدائمة والغالبة، وقد قالت أساطين الأعلام عوّد وأكل جسد بما إعتاد، فلا بد من إصلاح غذائهم على هذا المنوال والنمط الذي رقمناه، فإنه نافع لجميعهم نفعاً بيناً، والحذر كل الحذر من معالجة (ص٢٢٦) أمراضهم بقانون طب براكلسوس الذي يعانيه الإفرنج، فإنه ضار بهم غاية الضرر، ومهلك لإبدانهم، وإنما الذي يوافقهم العلاج بقانون الطب القديم طريقة ابن سينا والمسيحي وداود الأكمه وأنظارهم[1]، فمتى حصل لإحدهم برد وقشعريرة فلا أنجح له من بعده عن الزفر وأكلة دقة الكسفرة الناشفة المحمصة يسيراً مع قليل النعنع والملح وشوربة الأرز خالية عن السمن والزفر،

---

[1] – من أمثلة كتب الطب القديم:

– داود بن عمر الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب،حزان، القاهرة، سنة ١٩٥٢م.

– الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشقرونية،تحقيق وتعليق بدر التازي، القاهرة سنة ١٩٨٤م.

بشرط التدفي والتدثر في مكان حار، فإنه بهذه الصورة يبرأ بعد ثلاثة أيام غالباً [بإذن الله][١]، وإذا غلبت عليه الصفراء فهذه الدقة غذاؤه، ويشرب بعض عسل ممزوجاً بخل يسير، فإنه يبرأ ويلائمهم في كل شهر سفوف السنا المكي المنقى من عوده كلياً، ويجعل عليه ليمونة من المالح مقطعة أربع قطع ويوضع الماء فوق الكل، والأوقية ونصف تكفي الرجل فيبقى عليه الماء ستَّ عشرْ سَاعة ثم يصفى بأجمعه في إناء ويحلى بشيء من نحو عسل ويشرب، فإنه نافع لهم غاية النفع.

وأما في مثل أوقات الوباء فينبغي أن لا يختلطوا بغيرهم أبداً ولا يأكلون ذلك الوقت شيأ من أنواع الحلوى أصلاً، ويكثرون من أكل (ص٢٢٧) البصل والحاذق ونحو القثاء والخيار والخس، ويبخرون أماكنهم في الصباح داخلاً وخارجاً بمثل تراب اللوبان ونحو المسكة[٢] الصيفية، فإن ذلك يطرد عفونة الوباء [إن شاء الله][٣].

وعلى كل حال فالواجب إبعادهم عن العلاج بطب براكلسوس، فإنه لا يوافق إلا أهل الأقطار الباردة كالروم والشام وحلب ونحوها، أما أهل قطر مصر جميعه فلا.

وبالجملة والتفصيل فلا ينبغي إهمال أولئك الأجناد، ونسأل الله أن يوفقهم للسداد ويعينهم ويقويهم ويجعل عقباهم إلى الخير ويطيل بقاء حضرة سيدنا الصدر العلي ذي العز والفخر الجلي، ويديم حفظه مع العز والسداد والتأييد والإسعاف بالقصد والمراد، والله أعلم[٤].

---

[١] - ما بين الحاصرتين ليس موجود في نسخة [سوهاج]، وفي نسخة [دار الكتب] مكتوب في الهامش الأيسر من الصفحة ومشار إليه في النص.

[٢] - في نسخة لأدار الكتب] "المستكة".

[٣] - ما بين الحاصرتين غير موجود في نسخة [سوهاج]، مكتوب في نسخة [دار الكتب] في الهامش الأيمن للصفحة ومشار إليه في النص.

[٤] - إلى هنا ينتهي نص نسخة [سوهاج]، وباقي النص المنشور من نسخة [دار الكتب]، وسنستعمل أرقام صفحاتها.

تمت كتابته آخر يوم

من شعبان سنة ١٢٩٣

ثلاثة وتسعين

ومائتين

بعد

الألف[١]

(ص١٩٨)

[١] -هذا التاريخ هو تاريخ نسخة دار الكتب.

فائدة

مراسلة من قران الروسية إلى مولانا السلطان عبد المجيد

العزة لله، قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إعلموا أننا جند خلقنا الله تعالى من سخطه، وسلطنا على من حل عليه غضبه، لا نرق لشاكي ولا نرحم عبرة باكي، قد نزع الله الرحمة من قلوبنا، فالويل لمن لم يكن من حزبنا، قد خربنا البلاد ويتمنا الأولاد وأظهرنا فيها الفساد، وخيولنا سوابق ورماحنا خوارق وسهامنا بوارق وسيوفنا صواعق وليوثنا سواحق، وعددنا كالرمال وقلوبنا كالجبال، من رام سلمنا سلم ومن لم يدخل حزبنا ندم، فملكنا لا يرام وجارنا لا يضام، فإن أنتم قبلتم شروطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن أنتم أبيتم وعلى بغيكم تماديتم فلا تلوموا إلا أنفسكم (ص١٩٩) فالتحصن من أيدينا لا يمنع والعساكر لقتالنا لا تضر ولا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا ينجع، لإنكم أكلتم الحرام وإرتكبتم الآثام وضيعتم الجمع وغرقتم في بحار الطمع وسلكتم طريق العدوان، فأبشروا بالمذلة والهوان اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون، لقد ثبت عندكم إننا كفرة وقد ثبت عندنا أنكم فجرة، قد سلطنا عليكم إله بيده أمور مقدرة وأحكام مدبرة، فعزيزكم لدينا ذليل وكثيركم لدينا قليل، فإننا قد ملكنا الأرض شرقاً وغرباً

وأخذنا كل سفينة غصبا، وقد أوضحنا لكم طريق الصواب فأسرعوا إلينا برد الجواب قبل أن يكشف الغطاء ويقع الحرب والسطاء وتوقد الحرب نارها وترمي عليكم شرارها، و لم يبق لكم باقية، وينادي عليكم منادي الفنا هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً.

قد أنصفناكم حيث راسلناكم، ونشرنا عليكم جواهر هذا الكلام والسلام.

جواب حضرة الخاقان الأعظم والدستور المكرم

(ص٢٠٠)

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، وردّ ا لله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى ا لله المؤمنين القتال وكان ا لله قوياً عزيزاً.

وصل الكتاب المخبر عن الحضرة الإنجابية والسُّدة العظيمة القانية، تقولون إنكم مخلوقون من سخطه ومسلطون على من حل عليه غضبه، ولا ترقون لشاكي ولا ترحمون عبرة باكي، قد نزع ا لله الرحمة من قلوبكم، فذلك أكبر عيوبكم، وهذه من صفات الشياطين لا من صفات السلاطين، وكفى بهذه الشهادة عليكم و[هي][1] أعظم ما وصفتم به أنفسكم [وكفى بقول ا لله أمراً ونهياً][2]، قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين، ففي كل كتاب لعنتم وبكل قبيحة وصفتم وعلى لسان كل رسول ذكرتم وعند الأخبّار من حين خلقتم، وزعمتم أنكم كفرة، ألا لعنة ا لله على الكافرين، ومن تمسك بالأصول لا يبالي بالفروع، فنحن المؤمنون حقاً والقائلون صدقاً لا يدخلنا عيب ولا يصدر عنا ريب، القرآن على لسان نبينا نزل وهو رحيم بنا لم

---

[1] - ما بين الحاصرتين مكتوب في الهامش الأيسر للصفحة ومشار إليه في النص.

[2] - ما بين الحاصرتين مكتوب في الهامش الأيسر للصفحة ومشار إليه في النص.

يزل، وتحققنا من شريعته إنما النار (ص٢٠١) لكم خلقت ولجلودكم أضرمت، والجحيم لكم سعرت إذا السماء إنفطرت، ومن أعجب العجب تهديد الرتوت بالتوت والسباع بالضباع والكماة بالكراع، فنحن خيولنا رقية وسيوفنا يمانية ورماحنا خطية وسهامنا خلنجية ولُتوتنا مصرية وأكتافنا شديدة المضارب وصفاتنا في المشارق والمغارب، إن قتلناكم فنعم البضاعة، وأن قُتِلنَا فبيننا وبين الجنة ساعة ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون، وأما قولكم قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، فالقصاب لا يبالي من كثرة الغنم، وإن كثيراً من الحطب يكفيه قليل من الضرم، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، الفرار الفرار من الرزية لا من المنية، فنحن عندنا المَنِيْة إن عشنا سعداء وإن متنا شهداء، ألا إن حزب الله هم الغالبون، أَبَعْدَ أمير المؤمنين [يقول إن][1] تريدوا منا الطاعة، لا سمعاًلكم ولا طاعة، وطلبتم أن نسلم أمرنا قبل أن يكشف الغطاء ويقع الحرب والسطاء، هذا الكلام في نظمه تركيك وفي سلكه تفكيك، لو كشف الغطاء لبان النقصاء بَعْد التبيان أكفر[تم][2] بعد إيمان لإنكم إتخذتم (ص٢٠٢) إلهاً ثانياً، لقد جئتم شيأً إدّاً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا.

قل لكاتبكم الذي وصف مقالته وصل كتابك فما هو إلا كصرير باب أو طنين ذباب، سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مَدّا.

---

[1] – ما بين الحاصرتين مشطوب عليه في النص.

[2] – ما بين الحاصرتين مشطوب عليه في النص.

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات

١- الأوامر والمكاتبات الصادرة من محمد علي باشا،ج١، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤٨٤ تاريخ تيمور.

٢- البكري، محمد بن أبي السرور، ت سنة ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م: قطف الأزهار من الخطط والآثار، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٥٧جغرافيا.

٣- عبد الحميد بك نافع: ذيل المقريزي، مخطوط بمكتبة الجامع الأزهر، رقم ٦٧٠٣.

ثانياً: المصادر العربية

١-آدى شير: الألفاظ الفارسية المعربة، القاهرة، الطبعة الثانية، دار العرب للبستاني، القاهرة سنة ١٩٨٨م.

٢-آمال العمري: دراسات في وثائق داود باشا، القاهرة سنة ١٩٨٦م.

٣-أحمد الحته وأخرون: جهود إبراهيم باشا في خدمة الزراعة والصناعة والتجارة، ضمن كتاب ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا، ١٨٤٨-١٩٤٨، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة سنة ١٩٤٨م.

٤-أحمد السعيد سليمان: تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.

٥-أحمد شلبى بن عبد الغنى، ت ١١٥٠هـ/ ١٧٣٧م: أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات، الملقب بالتاريخ العيني، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٧٨م.

٦-أحمد عبد الرحيم مصطفى: عصر حككيان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٠م.

٧-أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في عصر محمد علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة ١٩٣٨م.

٨-أحمد كتخدا عزبان الدمرداشي: الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق عبد الوهاب بكر ودانيال كريسيليوس، القاهرة سنة ١٩٩١م.

٩-أحمد فارس عبد المنعم: السلطة السياسية والتنمية (منذ ١٨٠٥ وحتى الآن)، مؤسسة الأهرام، القاهرة سنة ١٩٩٣م.

١٠-أمين سامي،تقويم النيل،الجزء الثاني، الجزء الثالث (٣ مجلدات) وملحق، الجزء الثاني:مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٢٨، الجزء الثالث:مطبعة دار الكتب، القاهرة سنة ١٩٣٦، ملحق:مطبعة دار الكتب، القاهرة سنة ١٩٣٦.

١١-أندريه ريمون: فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، روز اليوسف، القاهرة ١٩٧٤م.

١٢-ابراهيم حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت سنة ١٩٨٨.

١٣-ابن اياس، محمد بن أحمد الحنفي،ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ٥ أجزاء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة١٩٨٢-١٩٨٤.

١٤-ابن عبد الظاهر، محيي الدين: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور "المنصور قلاوون" ٦٧٨-٦٨٩هـ، تحقيق مراد كامل، القاهرة سنة ١٩٦١م.

١٥-ابن عبد الظاهر، محيي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض سنة ١٩٧٦.

١٦-الان ريتشاردز: التطور الزراعي في مصر (١٨٠٠/١٩٨٠)، ترجمة أحمد فؤاد سيف النصر، كتاب الأهالي رقم ٣٤، القاهرة سنة ١٩٩١م.

١٧-الياس الأيوبي: تاريخ مصر في عهد الخديوي اسماعيل باشا، من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٩، مجلدان، مطبعة دار الكتب، القاهرة سنة ١٩٢٣.

١٨-بريس دافين: ترجمة أنور لوقا، (أدريس أفندي في مصر)، مذكرات بريس دافين (١٨٠٧-١٨٧٩)، أخبار اليوم، القاهرة سنة ١٩٩١م.

١٩-البغدادي، إسماعيل باشا: إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م.

٢٠-البغدادي، إسماعيل باشا: هدية العارفين - أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استانبول سنة ١٩٥١م.

٢١-الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن، ت ١٢٤٩هـ/٢٤-١٨٢٥م: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ٤ أجزاء، الطبعة الأولى، بولاق سنة ١٣٢٢هـ.

٢٢-الجبرتي: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق حسن محمد جوهر وعمر الدسوقي، لجنة البيان العربي، القاهرة سنة ١٩٦٩م.

٢٣-جورج جندي وجاك تاجر: اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٩٢٣.

٢٤-حسن عبد الوهاب: العمارة في عصر محمد علي باشا، مجلة العمارة المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤.

٢٥-حسن عبد الوهاب: قناطر محمد علي، مجلة العمارة، المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد٣-٤.

٢٦-حسن عبد الوهاب: مسجد الخانقاه، مجلة العمارة، المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤.

٢٧-حسن عبد الوهاب: المصانع، مجلة العمارة المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤.

٢٨-حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، جزءان، مطبعة دار الكتب، القاهرة سنة ١٩٤٦.

٢٩-حسن قاسم:المزارات الاسلامية والآثار العربية في مصر والقاهرة المعزية، القاهرة سنة ١٩٤٢.

٣٠-الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، ٥ أجزاء، دار الكتاب العربي، بيروت (د. ت).

٣١-حسين أفندي الروزنامجي: ترتيب الديار المصرية في عهد الدولة العثمانية، تحقيق محمد شفيق غربال، بعنوان "مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨-١٨٠٠م"، حوليات كلية الآداب، جامعة فؤاد (القاهرة)، مجلد ٤ جزء ١، سنة ١٩٣٦م.

٣٢-الخشاب، إسماعيل: خلاصة ما يراد من أخبار الأمير مراد، حققه وترجمه وعلق عليه حمزة عبد العزيز ودانيال كريسيليوس، القاهرة سنة ١٩٩٢م.

٣٣-داود بن عمر الأنطاكي: تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب،جزأن، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٩٥٢م.

٣٤-دانيال كريسيليوس: جذور مصر الحديثة، ترجمة عبد الوهاب بكر، القاهرة سنة ١٩٨٥م.

٣٥-الدمرداشي، الأمير أحمد الدمرداشي كتخدا عزبان، القرن ١٢هـ/١٨م: الدرة المصانة في أخبار الكنانة، تحقيق دانيال كريسيليوس وعبد الوهاب بكر، دار الزهراء للنشر، القاهرة ١٩٩٢.

٣٦-رجب حراز: المدخل إلى تاريخ مصر الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة سنة ١٩٧٠م.

٣٧-رد حاوس: كتاب معاني لهجة، بيروت ١٩٨٧م.

٣٨-الرشيدي، الشيخ أحمد ت ١١٧٨هـ/١٧٦٤م: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولى امارة الحاج، تحقيق ليلى عبد اللطيف أحمد، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٠م.

٣٩-زينب راشد: كريت تحت الحكم المصري ١٨٣٠-١٨٤٠، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية القاهرة سنة ١٩٦٤م.

٤٠-سعاد ماهر: مشهد الإمام علي في النجف وما به من الهدايا والتحف، دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٩م.

٤١-السكري، علي بن جوهر: الكوكب السيار إلى قبور الأبرار، تحقيق ودارسة ونشر محمد عبد الستار عثمان، سوهاج سنة ١٩٩٢م.

٤٢-السيد السيد أحمد توفيق دياب: السياحة في مصر خلال القرن التاسع عشر، دراسة في تاريخ مصر الإقتصادي والإجتماعي، القاهرة سنة ١٩٩٤م.

٤٣-السيد محسن الأمين: كشف الإرتياب في أتباع محمد بن عبد الوهاب، كتبخانة برزك اسلاه (د. ت).

٤٤-الشجاعي، شمس الدين: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحى وأولاده، تحقيق بربارە شيفر، القاهرة سنة ١٩٧٨م.

٤٥-صلاح الدين المختار: تاريخ المملكة العربية السعودية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت سنة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.

٤٦-طاهر الصادق وآخرون: مدن مصر ذات التبادل الحضاري، التقرير الثاني، أغسطس ١٩٩٤م.

٤٧-الطب العربي في القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشقرونية،تحقيق وتعليق بدر التازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٨٤م.

٤٨-طوبيا العنيسي: تفسير الألفاظ الدخيلة في اللغة العربية، دار العرب للبستاني، القاهرة سنة ١٩٦٤م.

٤٩-عبد الرحمن الرافعي: عصر محمد علي، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٨٢م.

٥٠-عبد الرحمن زكي: التاريخ الحربي لعصر محمد علي الكبير، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، القاهرة سنة ١٩٥٠م.

٥١-عبد الرحمن زكي: الجيش المصري في عهد محمد علي، مطبعة حجازي، القاهرة سنة ١٩٣٩م.

٥٢-عبد الرحمن زكي: الحصون والقلاع، بحلة العمارة، المجلد الثالث سنة ١٩٤١، العدد ٣-٤.

٥٣-عبد الرحمن زكي: قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق، القاهرة سنة ١٩٥٠م.

٥٤-عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الريف المصري في القرن الثامن عشر، مطبعة حامعة عين شمس، القاهرة سنة ١٩٧٤م.

٥٥-عبد الرحيم عبد الرحمن: الإدارة في البلاد العربية في العصر العثماني، مجلة الدارة، العدد الأول - السنة التاسعة، الرياض سنة ١٩٨٣م.

٥٦-عبد الكريم رافق: بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني إلى حملة نابليون بونابرت، ١٥١٦-١٧٩٨م، دمشق سنة ١٩٦٨م.

٥٧-علي باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة وبلادها القديمة والشهيرة، ٢٠ جزء، الطبعة الأولى، بولاق، القاهرة سنة ١٣٠٦هـ.

٥٨-علي شافعي: أعمال المنافع العامة الكبرى في عهد محمد علي الكبير، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، القاهرة سنة ١٩٥٠م.

٥٩-علي شلبي: المصريون والجندية في القرن التاسع عشر، دار الكتاب الجامعي، القاهرة سنة ١٩٨٨م.

٦٠-عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، دمشق سنة ١٩٤٩م.

٦١-عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، دمشق ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

٦٢-عمر طوسون: صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي، الجيش البري والبحري، دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٩٤٠م.

٦٣-عمر طوسون: الصنائع والمدارس الحربية في عهد محمد علي باشا، الطبعة الثالثة، الاسكندرية سنة ١٩٣٥م.

٦٤-عمر طوسون: تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية، الاسكندرية سنة ١٩٤٢م.

٦٥-عمر عبد العزيز: تاريخ مصر الحديث (١٥١٧-١٩١٩)، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية سنة ١٩٩٣م.

٦٦-العيني، بدر الدين: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد "شيخ المحمودي"، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة سنة ١٩٦٧م.
٦٧-كلوت بيك: لمحة عامة الى مصر، ترجمة محمد مسعود، ٤ أجزاء، دار الموقف العربي، القاهرة سنة ١٩٨٢-١٩٨٤م.
٦٨-الكلبي: أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تحقيق أحمد زكي، القاهرة سنة ١٩٦٥.
٦٩-ليلى عبد اللطيف أحمد: الادارة في مصرفي العصر العثماني، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة سنة ١٩٧٨م.
٧٠-محمد حسام الدين اسماعيل عبد الفتاح: منطقة الدرب الأحمر، دارسة للقسم الثالث من ظاهر القاهرة القبلي، دراسة أثرية تسجيلية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية آداب سوهاج، جامعة أسيوط، سنة ١٩٨٦.
٧١-محمد حسام الدين اسماعيل عبدالفتاح: بعض الملاحظات على العلاقة بين مرور المواكب ووضع المباني الآثارية في شوارع القاهرة، حوليات إسلامية، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، مج ٢٥، سنة ١٩٩٠م.
٧٢-محمد حسام الدين اسماعيل عبد الفتاح: وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد علي حتى نهاية حكم اسماعيل ١٨٠٥ - ١٨٧٩م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب جامعة أسيوط، قسم الآثار الإسلامية، سنة ١٩٩٤م.
٧٣-محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، قسمان، ٥ أجزاء، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٤م.
٧٤-محمد زكريا عناني: مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون بونابرت ورجال حملته على الشرق (إضافات)، مجلة الدارة، عدد ٤، السنة ٢١، الرياض سنة ١٤١٦هـ.
٧٥-محمد شفيق غربال: محمد علي الكبير، دار الهلال، القاهرة سنة ١٩٨٦م.
٧٦-محمد عبد الكريم الوافي: في تاريخ العرب الحديث، يوسف باشا القرماني والحملة الفرنسية على مصر، طرابلس سنة ١٩٨٤م.
٧٧-محمد فؤاد شكري: الحملة الفرنسية وظهور محمد علي، مطبعة المعارف، القاهرة د.ت.
٧٨-محمد فؤاد شكري وآخرون: بناء دولة، مصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة سنة ١٩٤٨م.

٧٩-محمد فؤاد شكري: مصر في مطلع القرن التاسع عشر ١٨٠١-١٨١١، ثلاث أجزاء، مطبعة جامعة القاهرة، القاهرة سنة ١٩٥٨م.

٨٠-محمد فؤاد شكري: مصر والسودان، تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر ١٨٢٠-١٨٩٩، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م.

٨١-محمد محمود السروجي وآخرون: الإسكندرية منذ أقدم العصور، الإسكندرية سنة ١٩٦٣م.

٨٢-محمد محمود السروجي وأخرون: البحرية المصرية في العصر الحديث، ضمن تاريخ البحرية المصرية، مطبعة جامعة الإسكندرية، الإسكندرية سنة ١٩٧٤م.

٨٣-محمد محمود السروجي:الجيش المصري في القرن التاسع عشر، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٦٧م.

٨٤-محمد مصطفى: مخطوط في تعليم فنون القتال والفروسية في أواخر عصر المماليك الجراكسة، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس-ابريل سنة ١٩٦٩م، ثلاث أجزاء، مطبعة دار الكتب المضرية، القاهرة سنة ١٩٧١م.

٨٥-محمد بن منكلي، ٧٨٤هـ/١٣٨٢م: الأدلة الرسمية في التعابي الحربية، تحقيق محمود شيت خطاب، المجمع العلمي العراقي، بغداد سنة ١٩٨٨.

٨٦-محمود الشرقاوي: مصر في القرن الثامن عشر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة سنة ١٩٥٧م.

٨٧-محمود محمد فتحي الألفي:العمارة الاسلامية في مصر خلال القرن التاسع عشر، أسرة محمد علي بالقاهرة ١٨٠٥-١٨٩٩م، رسالة دكتوراة غير منشورة، قسم العمارة، كلية الهندسة، جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م.

٨٨-المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، ت سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط، جزءان، بولاق سنة ١٨٥٤م.

٨٩-ناهد عبد العال محمد السويفي: ديوان الخديوي في عهد عباس الأول، دراسة وثائقية أرشيفية للوثائق والسجلات العربية في الفترة من ٢٧ ذي الحجة ١٢٦٤هـ - ١٨ شوال ١٢٧٠هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم المكتبات والوثائق، كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

٩٠-نيبور، كارستين: رحلة إلى مصر ١٧٦١-١٧٦٢م، ترجمة مصطفى ماهر، القاهرة سنة ١٩٧٧م.

٩١-نيقولا الترك:.مذكرات، ترجمة جاستون فييت، حوليات مصر (١٧٩٨-١٨٠٤)، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، القاهرة، سنة ١٩٥٠م.

٩٢-هنري دودويل:محمد علي مؤسس مصر الحديثة، ترجمة أحمد محمد عبد الخالق وعلي أحمد شكري، الطبعة الثانية، مكتبة الآداب، القاهرة د.ت.

٩٣-هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسيني، دار المعارف، القاهرة سنة ١٩٦٨م.

ثالثاً: المصادر الأجنبية

1-Abu-Lughod, Janet L., Cairo: 1001 Years of the City Victorious, New Jersey, 1971.

2-Arnaud, Jean-Luc, Observatoire Urbain du Caire Contemporain, Cartographie de l'Egypte, Cairo, 1989.

3-Ayalon, David, "Studies in al-Jabarti I, Notes on the Transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans," Journal of the Economic and Social History of the Orient III (1960), 148-174, 275-325.

4-Baer, Gabriel, A History of Landownership in Modern Egypt: 1800-1950, London, 1962.

5-- Baer, Gabriel, Egyptian Guilds in Modern Times, Jerusalem, 1964.

6-Baer, Gabriel, "Fellah Rebellion in Egypt and the Fertile Crescent," in Gabriel Baer, Fellah and Townsman in the Middle East, London, 1982, 253-323.

7-Bakr, 'Abd al-Wahhab, "Administrative and Judicial Rules Relating to Land and Property in Ottoman Egypt in the Eighteenth Century," Majallat Kulliyat al-Adab, Zagazig University, Vol. II, 1988, 1-20.

8-Behrens-Abouseif, Doris, "An Unlisted Monument of the Fifteenth Century: The Dome of Zawiyat al-Damirdash," Annales Islamologiques, XVIII, 1982, 105-115.

9-Behrens-Abouseif, Doris, Azbakiyya and its Environs From Azbak To Isma'il: 1476-1879, Le Caire, 1985.

10-Behrens-Abouseif, Doris, Islamic Architecture in Cairo, An Introduction, Cairo, 1989.

11-Bowring, John, Report on Candia and Egypt, London, 1840.

12-Cezzar, Ahmed, translated and annotated by Stanford J. Shaw, Ottoman Egypt in the Eighteenth Century, Cambridge, Harvard University Press, 1962.

13-Crecelius, Daniel, The Roots of Modern Egypt: A Study of the Regimes of 'Ali Bey al-Kabir and Muhammad Bey Abu al-Dhahab, 1760-1775, Chicago, 1981.

14-Crecelius, Daniel, "The Waqf of Muhammad Bey Abu al-Dhahab in Historical Perspective," International Journal of Middle East Studies 23 (February, 1991), 89-102.

15-Crecelius, Daniel, "The Waqfiyyah of Muhammad Bey Abu al-Dhahab,"Journal of the American Research Center in Egypt XV (1978), 83-105 ; XVI (1979), 125-146.

16-Cuno, Kenneth M., The Pasha's Peasants, Cambridge, Cambridge University Press, 1992.

17-Douin, Georges, "L'ambassade d'Elfi Bey à Londres (Octobre-Décembre 1803)," Bulletin de l'Institut d'Egypte VII (1925), 95-120.

18-Douin, Georges, Les Premières Frégates de Mohamed Aly (1824-1827), Cairo, 1926.

19-Douin, Georges, and C.E. Fawtier-Jones, l'Angleterre et l'Egypte: La Campagne de 1807, Cairo, 1928.

20-Douin, Georges, and C.E. Fawtier-Jones, L'Angleterre et l'Egypte: La politique mameluke, 1801-1803, Cairo, 1929.

21-Driault, Edouard, Mohamed Aly et Napoléon, 1807-1814, Cairo, 1925.

22-Durand-Viel, Georges, Les Campagnes Navales de Mohammed Aly et d'Ibrahim, Paris, 2 volumes, 1937.

23-Enkiri, Gabriel, Ibrahim Pascha (1789-1848), Cairo, 1948.

24-El-Gawhary, Ex-Royal Palaces in Egypt From Mohamed Aly To Farouk, Cairo, 1954.

25-Farhi, David, "Nizam-i Cedid - Military Reform in Egypt under Mehmed 'Ali," Asian and African Studies 8 (1972), 151-183.

26-Faroqhi, Suraiya, Pilgrims & Sultans, The Hajj Under the Ottomans, London, 1994.

27-Hautecoeur, Louis, and Gaston Wiet, Les Mosqués du Caire, Vol. I, Paris, 1932.

28-Holt, P.M., "The Beylicate in Ottoman Egypt during the Seventeenth Century," Bulletin of the School of Oriental and African Studies XXIV, 1961, 214-248.

29-Holt, P.M., Egypt and the Fertile Crescent, Ithaca, 1992.

30-Holt, Peter, "The Pattern of Egyptian Political History from 1517-1798," in P.M. Holt, ed., Political and Social Change in Modern Egypt, London, 1968, 79-90.

31-Huseyn Efendi, translated with notes by Stanford J. Shaw, Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, Cambridge, Harvard University Press, 1966.

32-Jaubert, A. "Nomenclature des Tribus Arabes," Description de l'Egypte, Etat Moderne, Paris, 1821-1829, Tome XVI, 110-137.

33-Lane, Edward W., An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians, London, 1860.

34-The National Archives of the United States, despaches from United States Consuls in Alexandria, Roll 1, Volume 1.

35-Raymond, André, Artisans et Commerçants au Caire au XXVIII[e] siècle, 2 vols., Damascus, 1973-74.

36-Rivlin, Helen Anne B., The Agricultural Policy of Muhammad 'Ali in Egypt, Cambridge, Harvard University Press, 1961.

37-Scharabi, Mohamed, Kairo: Stadt und Architektur im Zeitalter des europaischen Kolonialismus, Tubingen, 1989.

38-Shaw, Stanford J., The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798, Princeton, 1962.

39-Tagher, Jacques, ed., Mémoires de A.-B. Clot Bey, Cairo, 1949.

40-Weygand, General Maxime, Histoire Militaire de Mohammed Aly et des ses Fils, 2 vols., Paris, 1936.

41-Wiet, Gaston, Mohammed Ali et les Beaux-Arts, Cairo, 1948.

42-Wiet, Gaston, Nicolas Turc: Chronique d'Egypte, Cairo, 1950.

رقم الإيداع ٩٥٨٨ / ٩٦

الترقيم الدولى 977-5727-01-4